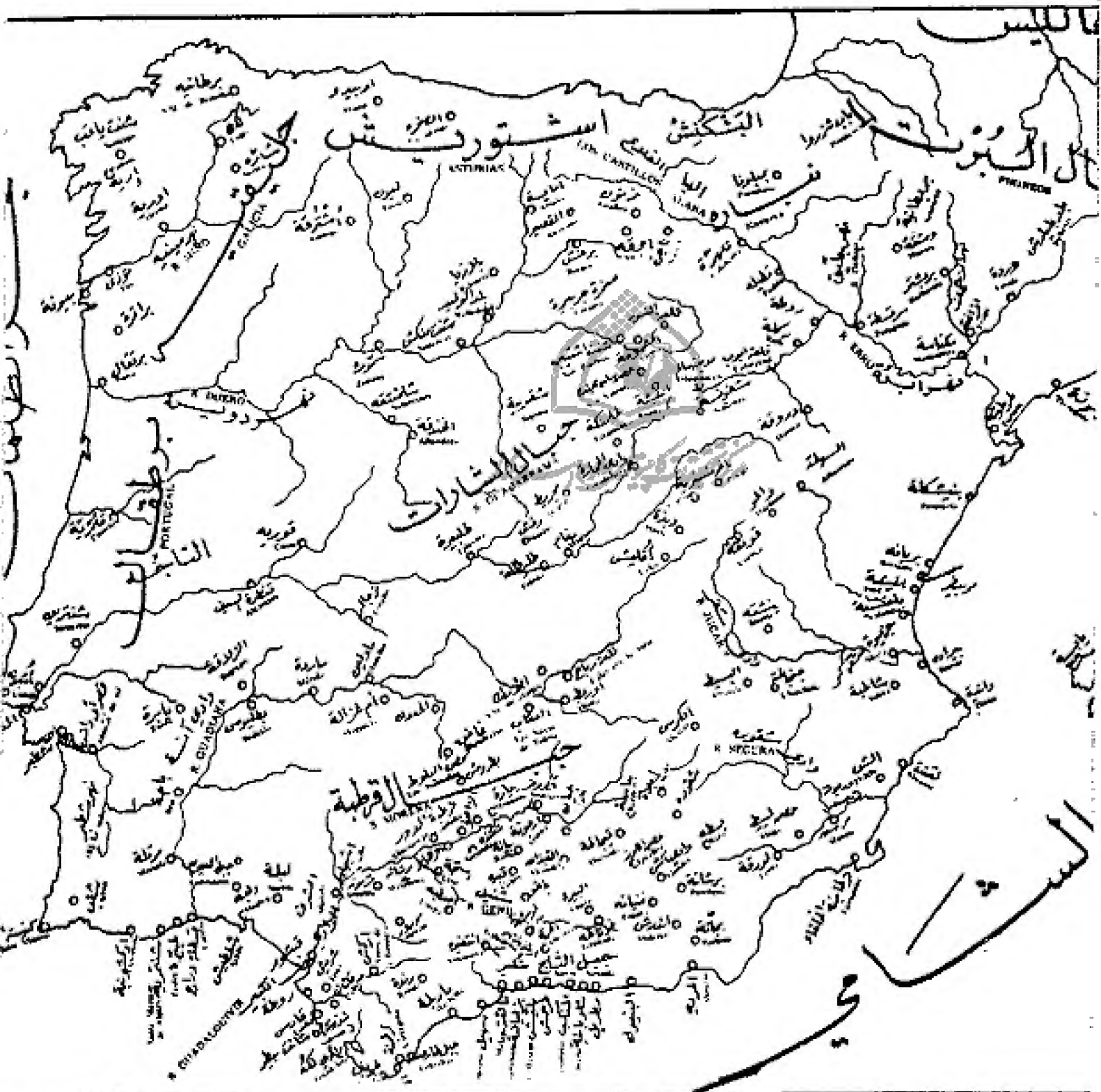


دراسات أندلسية

٣٧٥



مجلة دراسات أندلسية

مجلة علمية مختصة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية

مؤسسا ومديرا
جمعة شيخة

الأعضاء الاستشاريون : الدكتور عبد السلام المسدي، الدكتور محمد اليعلاوي (من تونس)،
الدكتور عبد القادر زمامة (من المغرب)، الدكتور ميكال دي إيلزا (من إسبانيا).

تصدر المجلة مرتين كل سنة في جانفي وجوان.



مركز تقيت كينجيز برودي

نمن العدد :

— بتونس : 3,000 د.

— بالبلدان العربية : 4,000 د.

— بقية البلدان : 5,000 د.

توجه المراسلات باسم مدير المجلة إلى العنوان التالي : د. جمعة شيخة

ص. ب. رقم 51 - 1008 تونس - باب منارة - الجمهورية التونسية - تليفون :
227.616

تسدد قيمة الاشتراكات عن طريق حوالة يردية في الحساب الجاري 94 - 543 تونس أو
بواسطة حوالة بنكية.

لا تلتزم المجلة بما ينشر فيها من آراء، ولا ترد الفصول المخطوطة إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.

— يرجى من المؤلفين أن يرفقوا مقالاتهم بملخص بالعربية أو الفرنسية.

مجلة دراسات أندلسية



مركز تقيت كينجيز برمودي
العدد الثاني (خاص) بابن الأثير

1989 / 1409

تونس

طبع بمطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار
(3200 نسخة)

الفهرس

الصفحة

3 جمعة شيخة : تصدير
5 أعمال ملتقى ابن الأتار بأندة
6 رشاد الإمام : ابن الأتار وعصره في تونس
32 جمعة شيخة : القيمة الوثائقية لديوان ابن الأتار
32 — تقديم الديوان
39 — العدة الأندلسية في الديوان
63 — العدة الإفريقية » »
110 — المشرق العربي » »
111 — مقتل ابن الأتار
117 عبد السلام الهراس : شاعر وفي لوطنه

قائمة كتب أندلسية وغيرها منشورات :

31 — انذار التونسية للنشر
116 — انذار العربية للكتاب
131 — دار التركي للنشر

تصدير

هذا العدد الثاني من مجلة (دراسات أندلسية) يصدر في موعده الذي حدّد له وضبط .
ولمن عرفنا وتجاهلنا، أو شكّ في نزاهتها وجديتها، نقول : إننا على الموعد دائما وسبقي .
ومجلة (دراسات أندلسية) وجدت لتستمرّ في خدمة تراث إنساني خالد مازال يعبق
أرجحه إلى اليوم . وما لاح في الأفق من صعوبات منتظرة وغير منتظرة لايفلّ من عزمنا ولا
ينقص من ثقنا في أنّ المشرّع التونسي بالأمس واليوم حبا ومازال يحور الثقافة بربوعنا
بكثير من عنايته وتشجيعه .

والدراسات الأندلسية كغيرها من ميادين النشاط الثقافي شملتها هذه العناية . فبين
ظهور العدد الأوّل من مجلّتنا في ديسمبر 1988 وصدر العدد الثاني هذا في جوان
1989 شاركت تونس على المستويين الرسمي والفكري في ثلاث ملتقيات تهمّ الأندلس :
ففي تونس عاش الجامعيون الإسبان والتونسيون أسبوعا ثريا بالدراسات العلمية
والبحوث الأكاديمية حول التراث الأندلسي وتأثيره في الثقافة العربية والإسبانية قديما
وحديثا . وقد نظّم هذا الملتقى مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية
بتونس⁽¹⁾ من 3 إلى 10 فيفري 1989⁽²⁾ .

وفي ألدّة المدينة الأندلسية الحاملة التأمّ ملتقى علمي حول الشاعر والمؤرّخ الكبير ابن
الأبّار البلنسي نظّمته جامعة أليكانت تحت إشراف اللّجنة الثقافية للتربية والعلوم ببلنسية
ومشاركة بلدية أندة⁽³⁾ ، من 20 إلى 22 فيفري 1989⁽⁴⁾ .

وفي تونس ثانية انعقد بإشراف مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق
والمعلومات بزغوان ، المؤتمر العالمي الرابع للدراسات الموريسكية حول الموريسكيين

- (1) وعد الدكتور عبد الوهاب بوحديّة مدير المركز المنظم للملتقى نشر أعماله في كتاب خاص .
- (2) افتتح هذا الملتقى الدكتور عبد السلام المسدي وزير التعليم العالي والبحث العلمي .
- (3) اقتضت مجلة شرق الأندلس ومجلة (دراسات أندلسية) نشر أعمال هذا الملتقى . وها هي مجلة (دراسات أندلسية) تفي بوعدها وتشرّ البحوث التي أقيمت بالعربية في ملتقى ابن الأبار في عددها هذا الثاني . وستشرّ مجلة (شرق الأندلس) البحوث التي قدّمت بالإسبانية والفرنسية .
- (4) حضر هذا الملتقى يوم افتتاحه سفير تونس بمدريد الأستاذ عبد الرزاق الكافي، وكان العلم التونسي يوفّر فوق بلدية أندة طيلة انعقاد التّدوة .

وتفكيرهم الديني وإشكالية الكتابة التاريخية والعربية الإسلامية عن المورسكيين (5) من 15 إلى 19 مارس 1989 (6).

ولا نرى في هذه الملتقيات إلا ضرباً من لقاء العلماء الأجلاء والباحثين المختصين في سيدان من المعرفة مضبوط ومحدد لتدقيق المناهج ، وتبادل الخبرات ، وتوسيع الآفاق . لقد كان العلماء في القرون الماضية يشدون الرجال ويضربون في الأرض وينتقلون من قطر إلى قطر للقاء عالم أديب ، أو مدرّس لبيب ، أو فقيه له نظر ودراية ، أو محدّث له حفظ ورواية . فبينما ترى أحدهم في هذا البلد جالساً جلسة المتعلّم منتقلاً من حلقة إلى أخرى يكرع من ينابيع المعرفة ، ويطلب إجازته من شيوخه فيجّاز ، تراه في بلد آخر وقد تصدر حلقة الدرس محدّث بما علم ، ويشرح ما غمض ، ويجب من سأل ، ويميز من طلب . وهو لا يتحرّج من أن يكون الطالب المستفيد حيناً ، والشيخ العالم حيناً آخر . كلّ ذلك في تواضع من لا يتنصع طالبا ، وفي أريحية من لا يتنضب عطاء .

وقد لا نجد فرقا بين هذا العالم الرحّالة مع من يلتقي بهم في بلدان مختلفة ، وبين الملتقيات العلمية اليوم . فبينما ترى الأستاذ والباحث الشهير متحدثاً في اختصاصه محلاً ، والآذان إلى كلامه صاغية والأنظار إلى حركاته شاخصة ، تراه بعد قليل مستمعاً بدوره مُنصتاً ، ولم لا مستفيداً ومستفسراً ! وبهذا التداول تتلاقح الأفكار ، وتتدفّق المعلومات ، وتتطوّر البحوث وتتقدّم العلوم . فكم من فكرة في الذهن غامضة اتضحت ، وكم منهج في البحث غير قويم استقام ، وكم من رأي غير صائب تمسك به صاحبه طويلاً فتخلّى عنه وقد تجلّت له الحقيقة . وترى القوم بعد ذلك — خلال فترة الاستراحة — ما بين محب عن سؤال ، أو مستفسر عن مقال ، أو مُهدٍ لكتاب ، خلال ذلك نواذر تُحكى وطرائف تُروى تهبّئ القفوس للأخذ والعطاء في جلسة علمية أخرى دسمة .

إنّ عصرنا بكلّ ما أوتي من وسائل تقنية في التبليغ متظوّرة قضى بها على الرّغبة في مصاحبة الكتاب ، وأغرى الناس بالثقافة السريعة السهلة والسطحية أحياناً ، سوف لن يقدر على المسّ من ناموس الملتقيات العلمية والتدوّنات الفكرية . فهذه لها نكهتها وطرافتها وفائدتها وستبقى ما بقي الإيمان بالثقافة الحرة الأصيلة المفتحة .

د. جمعة شبيحة

مدير المحلّة

(5) وعد الدكتور عبد الحليل التميمي مدير المركز المنظم للملتقى بنشر أعماله في كتاب خاص .

(6) دشّن الأستاذ الحبيب بولعراس وزير الشؤون الثقافية مكتبة المركز برغوان يوم افتتاح المؤتمر في

1989/3/15 .

أعمال ملتقى ابن الأتبار بأندة

انعقد في الفترة ما بين 20 فيفري 1989 إلى 22 منه ملتقى علمي حول الشاعر والمؤرخ الكبير ابن الأتبار — البلسي مولدا التونسي وفاة — بمدينة أندة الإسبانية . والشخصية التي انعقد المؤتمر تحت اسمها شخصية علمية وأدبية مرموقة . جمعت — فيما خلفته لنا من آثار — مع الإبداع الأدبي شعرا ونثرا ، التصانيف العلمية : ترجمة وتاريخا ، فكانت بحق موسوعة علمية لا غنى للباحثين في تاريخ الأندلس وإفريقية وحضارتهما عنها .

وقد وقع الاتفاق على أن تنشر مجلة (شرق الأندلس) الإسبانية البحوث التي أُلقيت باللغتين الإسبانية والفرنسية وتتولى مجلة (دراسات أندلسية) التونسية نشر البحوث التي أُلقيت بالعربية وهي أربعة :

- 1 — ابن الأتبار وعصره في تونس : للدكتور رشاد الإمام من تونس .
- 2 — القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأتبار : للدكتور جمعة شيخة من تونس .
- 3 — شاعر وفي لوطنه : للدكتور عبد السلام الهراس من المغرب .
- 4 — بين ابن الأتبار وابن عميرة : للدكتور محمد بن شريفة من المغرب(٥).

(٥) لم يصلنا النص النهائي من الأستاذ ابن شريفة إلى حد طبع هذا العدد . لذا نرجى نشر مقاله إلى العدد المقبل في ديسمبر 1989 .

ابن الأَبَّار وعصره في تونس

بقلم الدكتور رشاد الإمام

سنحاول في هذا البحث التركيز على محورين هامين يتعلقان بأمرين شغلا بالناس منذ زمن : الأمر الأول هو خلفيات مقتل العالم والشاعر ابن الأَبَّار (قتل 20 محرم 658/6 جانفي 1260) بتونس تنفيذا لأمر المستنصر بالله الحفصبي ، ثم حرق أشلائه وكتبه وإجازاته وأشعاره وأوراقه معه . وهو حدث يبعث في نفس الباحث الاستغراب من شدة هذا العقاب الرهيب وعنقه ، وبحثه على البحث والتنقيب عن خلفيات هذا الإجراء القادر حصوله في تونس ، خاصة وأنه حصل والدولة الحفصية في عنفوان شبابها وفي أوج قوتها وعزتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية نفذ هذا العقاب المؤلم بل الغريب على أحد كبار علماء الأندلس البارزين لمبجلين الذين شجّعهم الأمراء الحفصيون على الإقامة بتونس عاصمتهم بصفة نهائية ، وأزجلوا لهم العطاء والتبجيل والتكريم . الأمر الثاني الذي سنركز عليه في هذا البحث هو محاولة إبراز أهمية تواجد العلماء الأندلسيين في تونس وتأثيرهم في مختلف الاختصاصات والعلوم فيها ، والنهوض بتلك العلوم والمعارف إلى مستويات أرقى وأعظم ، بل إدخال طرق وأساليب وعلوم ومناهج ومواد دراسية ومهن وتقنيات جديدة انتفعت بها تونس إفادة منقطعة النظير في القرن 13/7 وما بعده .

وفي هذا الفصل الذي سنحاول فيه بحث أهمية هجرة الأندلسيين إلى تونس في أول عهد الدولة الحفصية ، سنستقصي أيضا دور ابن الأَبَّار شخصيا ومشاركاته في

هذا التأثير العلمي والثقافي والحضاري الممتاز الذي يعود الفضل فيه إلى مهاجري الأندلس .

أولا : ابن الأبار ونكبته في تونس ، العوامل والخلفيات :

العصر الأول: حلّ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أحمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار بتونس سنة 1238/635 في عهد أبي زكرياء الحفصي (ت 1249/647)، مؤسس الدولة الحفصية المستقلة عن الموحدّين في المغرب الأقصى .

وكان أبو زكرياء وخليفته المستنصر (ت 1277/676) ومن تولّى بعدهما من أوائل خلفاء الحفصيين رجالا أقوياء وشدادا ، تفانوا في الدّود عن عرشهم وعن دولتهم الفتية التي لم يمرّ على تاريخ استقلالها رسميا سنة 1237/635 سوى عشر سنوات تقريبا لمّا حلّ ابن الأبار بحاضرتهم سنة 1238/636 . وقد نجح أبو زكرياء والمستنصر خاصة في إقامة دولة عتيّدة من سنة 1228/625 إلى 1574/982 . وهي أطول فترة تاريخية حكمتها دولة واحدة في كامل تاريخ تونس .

ومن سوء حظ ابن الأبار أنّه حلّ بتونس في عهد أعظم حاكّمين حفصيين بل مؤسّسي الدولة وهي في عنفوان شبابها . ولا يخفي على أحد مدى غيرة مؤسس عرش جديد على حماية ذلك العرش وترسيخ أسسه مهما كلفه ذلك من تضحيات ، بل من عنف وبطش إذا اقتضى الحال ذلك . خاصة إذا وضعنا هذا الحدث في إطاره التاريخي أي في العصر الوسيط (القرن 13/7) .

ومن أوّل ما يجب أن نلاحظه في أسباب نكبة ابن الأبار وخلفياتها أنّ موازين القوى العرقية في المجتمع الإسلامي بدأت تتغيّر عما كانت عليه من قبل ، وخاصة بعد التّكبات التي كانت تحلّ دائما بالموالي من بربر وفرس وأتراك على يد العنصر العرقي العربي الغالب والمتفوّق والحاكم . وهنا لنا أن نتذكّر نكبات عدّة عرقية مثل نكبة البرامكة ونكبة طارق بن زياد بعد عبوره وانتصاره في أوّل وقائع فتح المسلمين للأندلس وأعظمها .

قلنا تغيّرت الأوضاع وتبدلت الأسر الحاكمة القويّة خاصة في شمال إفريقيا والأندلس . فالحفصيون بربر قدموا من جبال الأطلس ببلاد المغرب الأقصى . وهذه

الترعة البربرية التي تجري في دماهم كانت واضحة جدًا لدى الحفصيين سواء في طريقة حكمهم الصلبة أو معاملاتهم الحازمة مع رعيّتهم في الداخل ، أو مجابهاتهم الشرسة العنيفة والعنيدة للقوى والدّول الأجنبية التي كانت دائمة التهديد أو التخطيط للتّيل من سلامتهم واستقلالهم⁽¹⁾.

لَمّا توفي أبو زكرياء الحفصي كانت كامل البلاد التّونسيّة من طرابلس إل بجاية تحت سلطته . وكانت أنظمة هذه الدولة الشّاسعة محكمة سواء في المجال السّياسي أو الإداري أو الأمني ، وحتىّ القبائل والعروش التي اعتادت على إحداث الإضطرابات وإعلان العصيان وإثارة النزاعات أُخبر أهلها على الانضباط والانصياع والطاعة .

عندما تولّى المستنصر حكم الدّولة الحفصيّة سنة 1249/647 واصل تركيز أعمدة الدولة بكلّ كفاءة وجدارة إلى أن بلغت دولته شأواً من المناعة والقوّة جعلناه يتلقب بخليفة المؤمنين .

وأصبحت الدّولة الحفصية تكاد تكون الدّولة الوحيدة في العالم الإسلامي التي يسود فيها الاستقرار والهيبة وبالتالي القوة والمناعة . وهذا ينطبق على البلاد الإسلاميّة بجناحيها المشرقي والمغربّي .

وهذا السّودد يتجلّى في أنّ لويس التاسع لَمّا هاجم تونس في الحملة الصليبيّة الثّامنة سنة 1270/669 ، بعد مقتل ابن الأبار بعشر سنوات ، كان يظنّ أنّ بقضائه على الدّولة الحفصيّة القويّة في قلب العالم الإسلامي يكون قضى على أهمّ دولة في ذلك العالم الممزّق داخليا والمنهزم أمام القوى الأجنبيّة خارجيّاً⁽²⁾ .

نعتقد إذاً أنّه من سوء حظ ابن الأبار أنّه نزل تونس ، وهو المتيّم بحبّ السّلطة والتّفوذ ، والدّولة الحفصيّة الفتية في فترة التّدعيم والتركيز والتّشديد . وما أخطر تلك الفترات على رجالات الحكم والدولة ، وما أشدها حساسية وما أكثرها مآخذ وانزلاقات

H.R. Idris, «Hafsids» The encyclopedia of Islam, New Edition, (1)
. Grill-Luzac, 1965, vol 3, pp 66-69

سنشير إلى هذا المرجع فيما يلي من هذه الدراسة بدائرة المعارف الإسلاميّة.
(2) الزّركشي : تاريخ الدّولتين ص 27 — 40 ط تونس 1966. و: ح. ح. عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص 105 — 116 ط 1953 .

إنه لو تأخر حلول ابن الأبار بتونس سبع عشرة سنة فقط لوجد خليفة المستنصر سنة 1277/676 أكثر ليما وأقل جرأة لأخذ قرار القتل والتمثيل والحرق فيه أو في غيره .

وإذا كانت الدولة الحفصية في عصر فتوتها تلك من أعظم الدول الإسلامية في المشرق والمغرب ، وكانت الدول التصرانية تعمل على البطش بها⁽³⁾، فإنه بإمكاننا أن نتصور نار الغضب القاتل التي يحرق بها الخليفة كل متردد في ولائه لتلك الدولة أو متشكك في مقدراتها أو عامل على التيل من مناعتها . إن وضع الدولة الحفصية في خضم الأحداث في كامل حوض البحر الأبيض المتوسط يشبه وضع قوتين عظيمين : الدولة الحفصية من جهة والدول التصرانية من جهة أخرى . كل منهما تعمل على البطش بالثانية بأية وسيلة كانت .

ومن هذا المفهوم يمكننا أن نتصور حزم أمراء الدولة الحفصية وشدتهم وعنفهم مع المشكوك في ولائهم ، أو المخالفين لأوامرهم أو المعارضين لملكهم ، أو التاقمين والحاقدن عليهم من رجال دولتهم وأصحاب الخطط العليا فيها ، وغيرهم من الإطارات والأهالي في جميع مجالات أعمالهم ومسؤولياتهم ونشاطاتهم . فالإخلاص المطلق للدولة والتفاني في خدمتها في تلك السنوات الصعبة من تاريخ الدولة الحفصية كان يقتضي الطاعة الكاملة للخليفة والتفاني والفداء بالنفس من أجل الدولة وسلامتها داخليا وخارجيا . وهو ما لم يتوفر بصفة قطعية في علامتنا ابن الأبار .

أما العنصر الثاني من العوامل والخلفيات التي شاركت في القضاء على ابن الأبار وموته أشنع ميتة هو عنصر عرقي على ما اعتقد . وقد لمحنا إلى هذا سابقا ، فقد ولد عالمنا الجليل سنة 1198/595 من عائلة عربية عريقة عريقة الجذور في نسبها القضاعي⁽⁴⁾ . وتلقى علومه في بلنسية على أيدي مشاهير العلماء الأندلسيين من أمثال أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي . وطاف أرجاء البلاد الأندلسية لتلقي العلم والمعرفة على العلماء الكبار حيشما وجدوا . وقضى فترة طويلة من شبابه في طلب العلم من جهة والتأليف من جهة أخرى . ومن هذه العلوم التي تلقاها ، وتبرز فيها ، وأصبح علما

(3) عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . ط بيروت ، 1959 ، ج 6 ، ص 591 — 611 .

(4) عبد الله الطاع : كتاب الحلة السراء ، بيروت 1962 ، ص 14 ، 37 ، 40 .

من أعلامها سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا هو علم التّراجم والأنساب وذلك بالمعرفة الواسعة والتأليف والتدريس . فنسب ابن الأَبّار العربي الأصيل ومعرفته المتعمّقة حدا بالأنساب والتّراجم ، وتميّزه لدى المؤرخين بأنّه كان عينا من أعيان بلنسية بل شيخا (من مشيخة أهل بلنسية)⁽⁵⁾، جعل صاحبنا شديد الافتخار بنسبه العربي التّيّيل وسموّ أرومته على غيره ممن ليسوا عربا مهما كانت مراكزهم .

أوّل زيارة أداها ابن الأَبّار إلى تونس كانت سنة 1238/636 لطلب النّجدة من الأمير الحفصيّ لإنفاذ مسقط رأسه مدينة بلنسية من الحصار المضروب عليها من طرف الإسبان التّصاري . ثم رجع إلى بلنسية وبعد أيّام معدودات التحق بتونس ثانية للاستقرار بها نهائيا ، بعد أن امنولى خايمي الأوّل على بلنسية في 16 صفر 636/28 سبتمبر 1238⁽⁶⁾.

فحضوره إلى تونس كان من أجل طلب النّجدة العسكريّة من أبي زكرياء الحفصيّ . وما مبايعة أمير بلنسية وسكّانها له ، كما أعلن ابن الأَبّار ، إلا طمع في النّجدة العسكريّة الحفصيّة . ومما يدلّنا على أن سفارة ابن الأَبّار كانت ترمي إلى تحقيق نجدة أبي زكرياء العسكريّة قول السّفير — وهو ابن الأَبّار — في أوّل بيت من قصيدته السّنيّة الشّهيرة التي ألفاها بين يدي الأمير الحفصيّ :

أَذْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّسِ أَنْدَلُسَا إِنَّ السَّيْلَ إِلَى مُنْجَاتِهَا ذَرَسَا

غير أنّ أبا زكرياء لم ينجدهم إلا بالأقوات والأعطية والمون⁽⁷⁾ ولم يقم بأيّ عمل عسكريّ يستجيب لاستغاثتهم ويستهدف فكّ الحصار على بلنسية . يقول المؤرخون إنّ سفارة ابن الأَبّار كانت ناجحة⁽⁸⁾، وأنا أعتقد العكس تماما . وأمام هذه الخيبة في التّجّاح في سفارته يكون خسر ماء وجهه أمام أمير بلنسية من جهة وخسر مناصبه وممتلكاته في تلك المدينة بسبب الغزو المسيحيّ من جهة ثانية . ولم يتيقّ له من كل ما كسب إلا الغرور والعناد السياسيّ والشّعور بالتّفوّق العرقيّ فيما بعد في تونس .

(5) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 652 .

(6) نفس المصدر .

(7) نفس المصدر ص 653 .

(8) نفس المصدر .

ولا تخفى أهمية الأنساب العريقة والمتميزة في الأسر العربية في مختلف العصور الإسلامية ، وخاصة في تلك الفترة . وكم شُيّدت ، في تاريخ البلاد الإسلامية قاطبة ، من دول وعروش بسبب النسب العائلي . والأمر الأكيد ، كما ذكرنا سابقا ، أنَّ ابن الأَبار كان من أكثر علماء عصره معرفة بالأنساب العربية ودورها القاطع في التَّبلِّ والسُّودد والسيادة . والأمر الأكيد الثاني هو أنَّ ابن الأَبار كان بتأليفه وعلومه ودروسه ، على غرار تبحره في علم الأنساب والتراجم⁽⁹⁾، من أعظم مؤرخي عصره . وما مؤلفاته في التاريخ والتراجم إلا أكبر دليل على ما نقول .

على العكس من كلِّ هذا كان أمراء بني حفص ، أولياء نعمة ابن الأَبار ، أبعد ما يكونون عن هذا النسب العربي الأصيل . فهم بربر في نسبهم وفي عصبيتهم وفي انتمائهم . ولا داعي هنا للتأكيد على النفور الذي كان مستفحلا بين البربر والعرب في تلك العصور سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا .

انتماء عرقي بهذه الحدة في الاختلاف وبهذه القوة في الحساسية المفرطة والغيرة الصارخة لا يمكن إلا أن يجعل علاقة ابن الأَبار العربي القحِّ وأسياده بني حفص البربر علاقة مبارزة عرقية واختبار نوايا وامتحان انتماءات .

لقد ذكر المؤرخون إشارات تدلُّ على هذا الصِّراع بين الطرفين من ذلك قول صاحب العبر (... ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه (ضمير الغائب المفرد يعود على ابن الأَبار) المستنصر إلى حضور مجلسه ... وكان في ابن الأَبار أنفة وبأو (فخر وتكبر) ... فكان يزري على المستنصر في مباحته ويستقصره في مداركه⁽¹⁰⁾ . ويذكر نفس المؤلف في مكان آخر أنه لما عاد ابن الأَبار من بجاية بعد أن رضي عنه المستنصر (... عاد هو (ابن الأَبار) إلى مساءة السلطان بنزعته...⁽¹¹⁾ .

ويقول حسين مؤنس في تحليل شناعة مقتل ابن الأَبار : (والحقيقة أن ما جرى لابن الأَبار كان حلقة من حلقات الصِّراع بين الأندلسيين والمهاجرين وشيوخ تونس من موحدين وغير. موحدين ...)⁽¹²⁾ .

(9) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ، القاهرة . 1350 هـ . ج 1 ص 195 .

(10) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .

(11) نفس المصدر ص 654 .

(12) حسين مؤنس : كتاب الحلة السراء ، القاهرة ، 1963 ، ج 1 ، ص 40 .

وباعتبار كل ما سبق أرى أن الاختلاف العرقي كان واردا بين ابن الأتبار وأسياده من البربر ، وإن كان ذلك الخلاف في أغلب الأحيان مستترا جدا ، بل لم يكن من صالح أي طرف البوح به وكشفه بشكل صارخ .

العنصر الثالث من العوامل والخلفيات التي أدت بآبن الأتبار إلى التهلكة هو تمرسه بالإدارة وتفوقه فيها منذ أن كان في الأندلس ، بشكل جعله متميزا عن رجالات تونس ووزرائها وإداريها . فقد تولى ابن الأتبار مناصب عالية في إمارة بلنسية ومنها السفارة التي قام بها إلى تونس . وكذلك تولى منصب الكتابة والمراسلة لأمر بلنسية وغيره من الأمراء . وبذلك كان متفوقا على حاشية الأمير في تونس وعلى وزرائه إداريا . ومن هذا الباب ، نعتقد ، دبت الفرقة وتكوّن الصراع على الخطط العليا ، خاصة منها الملتصقة بخدمة الخليفة ومقابله مباشرة فكان الصراع على الجاه بين وزيرين أحدهما هو ابن الأتبار ذو المهارة السياسية والكفاءة الإدارية مغربيا⁽¹³⁾ . والثاني هو أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغساني كاتب خط العلامة لدى الخليفة الحفصي ، وكانت براعته وكفائه محدودة بل (محلية) بالمقارنة مع ابن الأتبار . وما حكاية سعاية الغساني لدى المستنصر ضد ابن الأتبار ، لأنّ هذا الأخير وصف والد الغساني بقوله : (... إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب حامل)⁽¹⁴⁾ ، إلا تهويل للأحداث وتضخيم لها . ولا يمكن أن تكون سعاية مبنية على مثل هذا التعريض سببا يؤدي إلى تعزيق السلطان الحفصي لأبن الأتبار ثم حرق أشلائه وكل مؤلفاته . هذا أمر لا يستقيم للتحليل والمنطق ، بل الأغلب أن سبب الوشاية هي التنافس على السلطة ، أو مظهر من مظاهر الاختلاف في الاتجاهات السياسية بين الوزيرين . وهذا كله هو الذي سبّب وولّد المخاوف لدى السلطان من ابن الأتبار الأكثر قدرة وتمرسا بشؤون الدولة سياسيا وإداريا ، وبالتالي خاف من غدره كما سيأتي .

أما العنصر الرابع فيتمثل في أن شاعرنا ابن الأتبار لم يستقر في تونس كمدّرس عادي أو موظف بسيط أو شاعر مناسبات ، بل وُلّي خطة كاتب علامة الأمير الحفصي

(13) يذكر ابن خلدون الخطط السامية التي تولّاها ابن الأتبار قبل أن يحلّ بتونس بقوله : (وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن بلنسية ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد ... ثم كتب عن ابن مردنيش . ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونالها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعهم إلى الأمير أبي زكريا وكان فيهم ابن الأتبار ...) (العبر : 654/6).

(14) المصدر السابق .

ورئيس كتابه ، وهي من أعظم وظائف الدولة ، وكانت تجعل صاحبنا في احتكاك مباشر مع الأمير في كل صغيرة وكبيرة ، وبالتالي كان ابن الأبار مستهدفا لشكوك الأمير وغضبه . وهذا ما جعل أبا زكرياء يعزل ابن الأبار من خطته ويضعه في الإقامة الجبرية في بيته تحت الحراسة . ثم عفا عنه فيما بعد وأرجعه إلى خطته . وكأن الأمير كان حائرا بين شدة حاجته لكتابته من ناحية وعدم ثقته فيه من ناحية ثانية . هذا على الرغم من شفاعة المستنصر — قبل توليه العرش — فيه لدى والده أبي زكريا للعفو عنه لاستجارته به .

لما توفي أبو زكرياء أبقى المستنصر ابن الأبار في وظيفته ، ولكن شكوك الخليفة في ولاء ابن الأبار بدأت تتعاظم ، بناء على مواقف شاعرنا المشبوهة والتي كانت تستهدف الخليفة شخصيا ومباشرة بالخط من قيمته وسلطانه . وهو الأمر الذي ضاعف من غضب الخليفة وحاشيته وبعض المسؤولين في بلاطه إلى حد الأمر بإعدامه .

إذا يمكننا أن نعتبر الخطة المرموقة التي تولّاها ابن الأبار وقربه الشديد من الحاكم ، والتحامه اليومي الوظيفي والسياسي بصانعي ومتخذي القرارات السياسية في أعلى هرم السلطة وفي أوج قوة الدولة الحفصية ، عاملا أساسيا في نهايته المؤلمة .

العنصر الخامس غرور ابن الأبار وتعتته وسلطة لسانه جعلته هدفا لانتقاد والتجريح والحقّد . فمن غروره وتعتته الغريب أنّ أبا زكرياء بعد أن عينه رئيس مكتبته ، أمره بأن يُبقي فراغا أبيض في أعلى كل وثيقة رسمية حتى يتمكن وزيره أبو العباس الغساني⁽¹⁵⁾ من كتابة العلامة أي اسم الأمير وإمضائه . وقد كلف بها لأن خطّه مشرقى يصعب على الكتاب في تونس تقليده . فلم يمثل ابن الأبار لهذا الأمر من الأمير وتجاهله إطلاقا . ولما وقع الإلحاح عليه في ذلك استشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد قول المتنبي :

وَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطْفِي وَذَرِ الدُّلَّ لَ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَابِ الْخُلُودِ
فُئِي ذَلِكَ إِلَى السُّلْطَانِ فَأَمْرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ فِي إِقَامَةِ جَبْرِية⁽¹⁶⁾ .

(15) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .

(16) نفس المصدر .

وإذا كان أبو زكرياء مؤسس الدولة متحكما في غضبه ومسيطرا على سخطه ، فإن المستنصر مشيد الدولة والمتلقب بالخليفة ، والكثير الشكوك فيمن حوله ، وجد في سيرة كاتبه وتحذيه له ما لا طاقة له به . وزاد الطين بلة اتهام صاحبنا — بسبب ملازمته للأمير مباشرة ، وهو في قلب جهاز الدولة السياسي والإداري — بأنه يتوقع (المكروه للدولة)⁽¹⁷⁾ ويربص بها الدوائر .

العنصر السادس : عدم الولاء المطلق . والذي يدلنا على عدم ولاء صاحبنا لولّي نعمته هو أن الخليفة المستنصر اكتشف في أوراق ابن الأبار عندما صودرت أبيات خطيرة في هجاء الخليفة وفي الحقّد عليه⁽¹⁸⁾ ، وهو ما عجل بمقتله .

العنصر السابع : بالإضافة إلى ما سبق اتهم ابن الأبار في تونس بالتشيع ولئن كان من الصعب تصديق هذا الاتهام لأسباب عديدة ، فإن الإطار الذي وضع فيه هذا الاتهام إطار قاتل . فقد وردت في كتابه «درر السمط في خبر السيط» ، الذي كان يدرسه ابن الأبار نفسه في حلقات تعليمه للطلبة في جامع الزيتونة ، إشارات فسرت بأنها تدل على ولاء المؤلف لشيعة علي وعلى عداوته للأمويين السنيين⁽¹⁹⁾ . لقد ذكر المقرّي بعد أن أورد قسما من كتاب ابن الأبار (درر السمط) أنه كان متشيعا لعلي وآله وأنه لم يورد من كتاب السمط لابن الأبار في كتابه نفع الطيب إلا ما ذكره (لأن في الباقي ما تشتم منه رائحة التشيع والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه ولطفه)⁽²⁰⁾ .

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الاتهام الخطر أن البلاد التونسية تعتبر من أشد البلاد الإسلامية محاربة للشيعة والبدع وتشبها بالمذهب المالكي السني .

العنصر الثامن : ومن عوامل غضب السلطان وحاشيته على ابن الأبار تفوق علماء الأندلس وأدبائها وإداريها على أمثالهم بتونس في ذلك الوقت . وما تشجيع أبي زكرياء الحفصي لخيرة علماء الأندلس على الاستقرار بعاصمته إلا دليل قاطع على هذا التفوق

(17) نفس المصدر ص 655 .

(18) يذكر ابن خلدون النبت الأول من هذه الأبيات وهو :

طقا بتونس خلت ستمه ظلما خليفة

(العبر . ج 6 . ص 655) .

(19) دائرة المعارف الإسلامية : 66/3 .

(20) المقرّي : نفع الطيب . ط القاهرة 1302 هـ . ج 2 ص 601 .

وعلى هذا التميّز وعلى الحاجة الملحة إليهم لبناء دولته ، الحديثة الاستقلال عن
الموحدّين ، وبذلك بدأت الهجرة . ومن بين هؤلاء المهاجرين مجموعات من رجال
الفكر من مختلف أنحاء البلاد الأندلسية .

ولا شك أيضا أن الأندلسيين المهاجرين إلى تونس ، ومنهم ابن الأثير قد شعروا
بالتفوق العلمي والتميّز الحضاري لما حلّوا بتونس . وهذا الواقع ولّد لدى أغلبهم
اقتناعا بتفوّقهم على باقي المواطنين التونسيين وبالتالي السعي للتسامي عليهم وتحاشي
الاختلاط بهم .

وإذا كان المهاجرون الأندلسيون في القرن 11/17 قد عاشوا في تجمعات صغيرة
خاصة بهم ، وانفردوا بلباسهم وطعامهم وتفاخروا بها ، وامتنعوا عن مصاهرة الأهالي
المحليّين ترفعا — ومعظمهم كانوا من الصناع والتجار والمزارعين وأصحاب الحرف— .
فما بالك بمهاجري القرن 13/7 الذين كانوا في أغلبهم من كبار العلماء والأدباء
والإداريين والأطباء والمدرّسين والفنيين والكتّاب .

لقد بادر معظم هؤلاء بالتشبّث بطابع التفوّق حتى ظهروا في المجتمع التونسي
وكأنهم مجموعة من المهاجرين ناشئة عن المجتمع الذي انتقلوا إليه ، تراحم أفرادهم
وتعاديهم⁽²¹⁾، بل تصرّوا بإصرارا كبيراً على تحديهم⁽²²⁾ .

العنصر التاسع : هو جحود ابن الأثير إلى حدّ تمتّيه زوال حكم الحفصيّين . يقول
حسين مؤنس في مقدمته لتحقيق الحلقة السبراء معلّلا مقتل ابن الأثير بأن ما حلّ بابن

(21) حسين مؤنس : الحلقة السبراء ص 40

هناك قصّة تروى إلى اليوم في تونس وهي من محلّفات أسمار القرون الماضية في الوطن القبلي بالبلاد
التونسية أروها باختصار للتدليل على مدى عناد الأندلسي المهاجر بالبلاد التونسية ومدى تشبه
بموقفه أو برأيه وإن كان على خطأ تقول هذه القصة الشعبية القصيرة إن أحد الأندلسيين المهاجرين
كان يتنزه مع صديق له من التونسيين الأصليين خارج إحدى المدن عند غروب الشمس . فرأى
الأندلسي عن بعد شيئا أسود يتحرك على الطريق غير واضح المعالم . فقال لصديقه انظر رأيت ذلك
السواد الذي يتحرك على الطريق . ثبت منه إنه قطع من العنز تأخر الراعي عن الرجوع به إلى
حضرته إلى هذه الساعة ، فأجابه التونسي بعد التثبت فيه جيّدا : هذا ليس قطيعا من العنز بل هو
سرب من الغربان . ولما اقترب الصديقان من ذلك الشيء الأسود الذي يتحرك فوق الطريق ، طار
سرب الغربان وعلا في الفضاء قال التونسي لصديقه : ألم أقل لك أنه سرب غربان وليس قطيع عنز
فأجابه الأندلسي بحدة : (معيز أي عنز) ولو طارت .

(22) حسين مؤنس : الحلقة السبراء ص 40 .

الأبار يعتبر حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين وشيوخ تونس من موحدين وغيرهم (بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزله وعلمائه...) (23).

قد يكون هذا التحليل صحيح في بعض أوجهه ، ولكن عقوبة القتل بأشنع طريقة ثم حرق الجثة والمؤلفات وغيرها لا يمكن أن تكون ناتجة عن زلات صغيرة أو عدوات محدودة من ابن الأبار . كان في إمكان الخليفة أن ينفية أو يحبس أو يجبره على الإقامة الجبرية في بيته . ولكنه لم يفعل شيئا من كل ذلك بل أمر بقتله .

هذا التصرف من الخليفة المستنصر يتجاوز مرحلة احتمال خوفه من ابن الأبار كما يقول حسين مؤنس . ولو كان السلطان خائفا منه فقط لما أحرقه بعد قتله وأحرق جميع مؤلفاته معه . بل هذا يدل أن السبب تجاوز الخوف الشخصي العادي إلى الخوف السياسي الذي يهدد حكم العائلة الحفصية ويعمل على زوالها . وقد تدعّم هذا بقراءة ابن الأبار لطالع ولّي عهد المستنصر وتصريحه بأن الدولة ستسقط في عهده . وهذه تعدّ في حدّ ذاتها جريمة سياسية لا تغتفر .

أعتقد أن هذه العوامل والخلفيات مجتمعة متكاملة متداخلة قضت على ابن الأبار وليس عاملا واحدا منفردا منها مهما كانت قوته وتأثيره ، غير أن العامل السياسي كان هو الأقوى بينها جميعا .

عصر ابن الأبار في تونس

1 — هجرة الأندلسيين إلى تونس :

بدأت هجرة الأندلسيين إلى تونس تظهر منذ أوائل القرن 13/7 في عهد أبي زكرياء الحفصيّ الذي شجّع الأندلسيين على الإقامة في تونس . وقد أغراهم بالامتيازات لشدة حاجة الدولة الجديدة إليهم وإلى معارفهم في مختلف المجالات العلمية والفكرية والإدارية والأدبية والفنية وغيرها .

(23) المصدر السابق ص 40 .

ومن بين هؤلاء المهاجرين الأوائل المتميزين في مختلف الاختصاصات العلمية والفنية والمهنية قلّة من رجال الفكر ينتمون إلى أنحاء متعددة من البلاد الأندلسية : من كورة ماردة وميورقة وجزيرة شقر وقرطبة وطرطوشة ، وكذلك من بلنسية وإشبيلية وشاطبة وغرناطة ومالقة ولبلّة وبياصة وشريش وبطرنة وشلب .

وقد كانت الوجهة المفضّلة لهؤلاء المهاجرين هي تونس بصفة خاصة لقيموا آمين في ظلّ الدولة الحفصية ، بعيدا عن القلاقل والفتن بالمغربين الأوسط والأقصى .

ومن الجدير بالذكر أن حدس المهاجرين صدق في تفضيل المدن التونسية عن مدن المغرب الأقصى. فقد ذكر ابن خلدون أنه لما انقرضت دولة الموحيدين وظهر بنو مرين بفاس في المغرب الأقصى كانت لهم مشاحنات وخلافات مع الأندلسيين القاطنين بتلك البلاد . فكان الأندلسيون ينتقلون من المغرب ومن الأندلس رأسا إلى البلاد التونسية وخاصة العاصمة⁽²⁴⁾ .

عندما حلّ هؤلاء بتونس — وكان من بينهم ابن الأبار — كانت تلك المدينة — على الرغم من كونها، عاصمة الدولة الحفصية — تعد قرية كبيرة من جملة القرى التونسية . وما أن انتهى القرن 13/7 ، وهو القرن الذي نزح خلاله الأندلسيون ، حتّى تحوّلت تونس عاصمة للمغرب قاطبة وقبلّة العلماء ورجال الفكر والطلبة . وشيّد فيها المدارس والمكتبات والجوامع ، وانبثقت النهضة التي جعلت ذلك القرن يتميز عن بقية العصور التاريخية في تونس إلى درجة يمكننا أن نطلق عليه عصر النهضة التونسية .

وقد تواصل تأثير الأندلسيين في تونس علميا وحضاريا وفنيا على مدى القرون المئوية . وذلك لسببين : الأول أن الهجرة الأندلسية لم تقف بانتهاء ذلك القرن بل تجاوزته إلى القرن 14/8 حيث قويت حركتها فشملت ، زيادة على العلماء ورجال الفكر ، التّجّار والصّناع والمزارعين وأصحاب الحرف بأعداد وافرة . وقدم لهم أمراء الدولة الحفصية أحياء في المدن يقطنونها وضياعا في الريف يسكنونها ويعملون فيها . ويرجع لهؤلاء الفضل في إدخال أنواع من العلوم والاختصاصات جديدة وأساليب صناعية ومهنية وهندسية لم يسبق للبلاد أن عرفتها .

(24) ابن خلدون : المعبر : 6/ 625 .

أما السبب الثاني الذي جعل تأثير الأندلسيين لا يزول من تونس فهو الأعداد الوفرة من الطلبة التونسيين الذين تلقوا علومهم عن أعلام أندلسيين في الحاضرة بندر وجود أمثالهم في كامل العالم الإسلامي في القرن 13/7 .

ومما تجب ملاحظته أيضا أن تأثير الأندلسيين في الحياة الفكرية والحضارية بتونس كان من طراز المؤثرات التي لا تزول بمرور السنين والقرون ، لأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا ومتفاعلة تفاعلا كاملا ومتينا مع مختلف طبقات المجتمع التونسي وفئاته . فقد تداخلت أفكارهم العلمية والدينية وأساليبهم العملية في جميع الميادين الحياتية للمجتمع التونسي حتى صارت عنصرا من العناصر الحضارية التي يتكوّن منها ، وعادة من عاداته وتقليده من تقاليده . فلو اقتصر تأثير الأندلسيين على مجالس الأمراء والأعيان لا تنتهي بانتهايم . أما وتأثيرهم كان متفاعلا مع مختلف فئات السكان ، فإن ذلك التأثير لا يزول بزوال الأفراد بل يبقى ساري المفعول مكوّنا عنصرا هاما من العناصر الحضارية والفكرية والثقافية لأمة بأسرها .

في ذلك العصر ، عصر ابن الأثير في تونس ، شجّع أمراء المحفصيين المهاجرين الأندلسيين على نشر المعرفة بكل ما لديهم من وسائل ، فازدهرت المعرفة إلى أن أصبحت الحاضرة مقصد طلاب العلوم والفنون من أقاصي البلاد يقتبسون من أنوارها ويرتوون من ينابيعها .

2 — تأثير الأندلسيين في النشاط الثقافي بتونس :

لقد جدّد الأندلسيون في تونس في القرن 13/7 عدّة مجالات في الميدان الثقافي وأدخلوا طرقا وأساليب واختصاصات حديثة كان لها تأثير مباشر وقوي في الحياة الثقافية بتونس .

ففيما يتعلّق بالمواد الدراسية أدخل المهاجرون الأندلسيون مواد دراسية جديدة في حلقات التعليم . من هذه المواد علم الفلك والأزياج والطب والهندسة وغيرها من العلوم⁽²⁵⁾، بعد أن كانت المواد الدراسية في تونس قبل مجيء الأندلسيين متعلّبا عليها

(25) ابن خلدون المقدمة ص 880 . وكذلك :

R. Brunshvig : La berberie Orientale, Paris, 1940, vol. p. 364

الطابع الديني واللغوي ، فكانت المواد التعليمية لا تخرج عن العلوم الشرعية التقليدية من توحيد وحديث وفقه وفرائض وعلوم القرآن والقراءات والسيرة والمغازي والتاريخ من جهة ، والعلوم اللغوية من نحو وتصريف وأدب وشعر من جهة ثانية(26) .

وبذلك التأثير الأندلسي في نشر العلم بتونس بمختلف ميادينه وفروعه صارت الحاضرة في ذلك العصر كما يشهد بذلك شاهد عيان: (لا تنشأ بها ضالة للعلم إلا وجدت ولا تلتبس بغية معوزة إلا استفدتها ... وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس من به قائما ولا موردا من موارد المعارف إلا رأيت حوله واردا وحائما)(27) .

وفيما يتعلّق بالمدارس في عهد ابن الأتبار أنشئ كثير منها بتونس بمجيء الأندلسيين بعد أن كانت قليلة فيها . ولم تنتظم حلقات الدروس في جامع الزيتونة إلا في منتصف القرن 13/7 . ولم يزرع القرن 14/8 حتى كثر عدد المدارس المخصصة لإلقاء الدروس وسكنى الطلبة ، وهذا يعتبر أكبر دليل على ازدهار الحركة العلمية بالعاصمة وبعض المدن التونسية الأخرى خاصة في عهد أبي زكرياء والمستنصر . ينضاف إلى ذلك الجوامع والمساجد التي كانت تعقد فيها حلقات التعليم وكذلك بيوت العلماء ومنازلهم . ومعظم دور العلم تلك كان يدرّس بها أولئك الأعلام من اللّاحثين الأندلسيين .

ومن هذه المدارس المدرسة الشّماعية ومدرسة المعرض والمدرسة التوفيقية والمدرسة العنقية ومدرسة ابن نافراقين ومدرسة جامع الهواء ، ومن الجوامع : جامع الزيتونة وجامع القصبة ، ومن الزّوايا : زاوية الزّليجي .

هذا عدا المكتبات ودكاكين الورّاقين التي أنشئت في تونس في ذلك القرن الزاهر وفي عهد أبي زكرياء بالذات ، وهو ما يدلّ على رواج سوق العلم وانتشار الثقافة بالبلاد التونسية . ومن هذه المكتبات الشهيرة مكتبة جامع الزيتونة التي كانت تشتمل على ستة وثلاثين ألف مخطوطة(28) . يذكرها ابن خلدون بقوله : (كان الأمير أبو زكرياء

(26) العسري : الرّحلة . ص 125 — 126 ، 176 — 178 .

(27) المصدر السابق ص 125 .

(28) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها⁽²⁹⁾. ومن المكتبات أيضا دار الكتب بالقصبة التي أسسها نفس الأمير، وكان مولعا بالأندلسيين وبعلمهم وثقافتهم . وشيد كذلك سوقا بأكملها سميت سوق الكتبيين بالعاصمة⁽³⁰⁾ ، ولا زالت أجزاء من هذه السوق موجودة إلى الآن ، وهذا كله يؤكد مدى ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الأثير .

غير أن هذه المكتبات لم تملأ غالبيتها سبعون سنة بعد وفاة أبي زكرياء حتى أباد محتوياتها وباع مخطوطاتها الثائر ابن النجاشي سنة 1317/717 ، فلم يبق فيها شيئا ذا أهمية (حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أسسها ودواوينها أخرجت للوراقين بيعت بذكائينهم . فجمع من ذلك كما زعموا قنطرة من الذهب تجاوز العشرين ، وجوالتين من حصى الدر والياقوت ...)⁽³¹⁾.

3 - تأثير الأندلسيين في مجال العلوم في القرن 13/7 .

الطب : كان أهم أساتذة الطب في تونس في القرن الذي ندرسه أندلسيين ، ليس بينهم تونسي واحد ولا يهودي حسب ما توفره لنا المصادر التي رجعنا إليها في هذه الدراسة . وتكفي هذه المعلومة لتؤكد على الدور الأساسي والمصيري الذي يمثلته الأندلسيون في المجال العلمي . من هؤلاء الأطباء حكيم المستنصر المشهور محمد ابن أندراس المرسي⁽³²⁾ .

يصف الغرييني أستاذه في علم الطب ابن أندراس بقوله : (... وتبسّط للطبّ طبيا باحثا جيّدا ... وكانت الأبحاث في كلّ ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجليّة⁽³³⁾ .

(29) ابن خلدون : العبر . ج 748 .

(30) ابن أبي دينار : المؤنس . ص 130 .

(31) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 748 - 749 .

(32) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس من أهل مرسية (ت .

1275/ 674) . ورد على نجاية ثم رحل إلى تونس باستدعاء المستنصر له بعد أن ذاع صيته في

الطب (أبو العباس الغرييني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في بجاية، الجزائر 1910 ،

ص 45 - 47) .

(33) المصدر السابق .

كان هذا الطبيب إذا سئل عن مسألة طبية لا يجيب عنها إلا بعد إعمال النظر في أسباب المرض وتميزها ، وينظر في أنسب الأدوية وعندئذ يقدم الجواب . وهذا كما يذكر تلميذه (هو حال حذاق الأطباء وأما عواتهم ومن يعد منهم في أعداد القوابل فعندما يُسأل يجيب بغير علم)⁽³⁴⁾ .

بالإضافة إلى هذا الطبيب العالم هناك عدة أطباء أصلهم من الأندلس ، منهم أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة⁽³⁵⁾ . ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي (ت . 1291/691) ، وكذلك أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام أصله من تدلس⁽³⁶⁾ . ومنهم محمد بن أبي العباس بن عيشون .

وتواصل حلول أطباء أندلسيين بتونس في القرن 14/8 ، ومنهم الفرناطيان أحمد ابن علي الخولاني⁽³⁷⁾ وأحمد بن محمد الأنصاري⁽³⁸⁾ ، وابن عشتاب القرطبي⁽³⁹⁾ وابن الحجّاج يوسف⁽⁴⁰⁾ .

وبسبب وجود الأطباء الأندلسيين في تونس في القرن الذي ندرسه صار علم الطب بها يقوم بالدرجة الأولى على التحاليل وعلى فحص وتشخيص المركبات الأساسية التي تتعلق بكل جسم وبكل عضو ، مع اهتمام كبير بمعرفة خصوصيات ومركبات المواد الغذائية . وقد نتج عن ذلك شيوع التجديد في طبخ المأكولات بطريقة تطابق ما أدخله هؤلاء الأطباء من آراء طبية تتعلق بالمواد الغذائية⁽⁴¹⁾ .

ويمكننا أن نعرف الشاؤ الذي بلغته تونس في المجال الطبي في القرن 13/7 بتفضّل الخليفة المستنصر وإرساله أحد الحكماء الأندلسيين من تونس إلى ملك صقلية . ومثل

(34) المصدر السابق .

(35) عنوان الدراية : ص 43 — 44 .

(36) المصدر السابق ص 208 .

(37) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، حيدر أبا الدكن . 1929

— 1931 ، ج 1 . ص 219 .

(38) نفس المصدر ج 1 . ص 306 .

(39) نفس المصدر ج 4 . ص 160 .

(40) عبد الله الترجمان : نعمة الأريب في الردّ على أهل الصليب ، القاهرة 1907 ، ص 8 .

(41) انظر برانشفيك : ج 2 . ص 138 — 139 .

هذا حدث سنة 1278/677 حيث بعث المستنصر للملك شارل الأول ملك أنجو Anjou ، بطلب من هذا الأخير ، كتاب (الحاوي في الطب) للرازي (42) .

الهندسة : أثر وجود المهندسين الأندلسيين على التخطيط المعماري والبناء في البلاد التونسية في القرن 13/7 . وأصبح الطراز الأندلسي هو الغالب على أكثر الأبنية التي شُيّدت في ذلك القرن . وقد استجلب أبو زكرياء عددا كبيرا من المهندسين والصناع الأندلسيين ، وهم الذين قاموا بهندسة وبناء أكثر القصور والجوامع والزوايا والأسواق التي أنشئت في عهد هذا الأمير . وقوي هذا التأثير بعد وفاة أبي زكرياء والمستنصر (43) . وهذا النمط البنائي الأندلسي نلاحظه بصفة جلية في بناءات القرن 13/7 في تونس مثل هندسة وبناء جامع القصبة الذي تم بناؤه سنة 1235/633 مع صومعته . وقد وصفها صاحب (المؤنس) بأنها كانت عجيبة الشكل (44) . وكذلك يظهر ذلك النمط الهندسي جليا في المباني والمعالم التالية : باب المنارة بالعاصمة ، باب للآريخانة وهو أحد أبواب الجامع الكبير بالقيروان (45) . ومن هذا القبيل هندسة بناء أفواس (سوق القماش) و (مiazza سوق العطارين) وزاوية سيدي قاسم الجليزي (46) .

ومما يزيد في تركيز هذا الطابع المعماري الأندلسي وإبرازه: التصميم والهندسة والبناء بالإضافة إلى وجود الزليج في أكثرها (47) ، وكذلك اعتمادها في الزركشة على النقش فوق الجدران ، والسطوح المغطاة بالقرميد (48) .

علم التاريخ : على غرار علوم الطب والهندسة والتحو لا يجد المستقصي للمؤلفات التاريخية التي كتبت في القرن 13/7 بالبلاد التونسية كتابا واحدا كتبه مواطن أصله تونسي .

(42) المصدر السابق .

(43) Ch. A. Julien: Histoire de l'Afrique du nord, vol 2, p 153 .

(44) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

(45) ش. أ. جوليان : 414/2 .

(46) G. Marçais: Manuel d'art musulman, 2 vols, Paris 1926 p 527 .

(47) الزليج كلمة إسبانية أصلها Azulejo .

(48) سليمان مصطفى زيس : بين الآثار الإسلامية في تونس ط . تونس 1963 ص 52 .

أول هذه الكتب ألفه أندلسي من بياسة وهو أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري (ت 1255/653)، ألفه لأبي زكرياء وذكر فيه الثورات والحروب الداخلية في الإسلام إلى عهد هارون الرشيد . وقد نشر هذا الكتاب حديثا ويعتبر من أهم المصادر في موضوعه. أما كتاب أبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي (ت 1336/737) — ويشتمل على التاريخ الإسلامي من الدعوة المحمدية إلى أيام المؤلف — فمفقود ولا نعلم عنه إلا أنه مرتب على حسب السنوات الهجرية مثل تاريخ الطبري وأنه يتكوّن من ستة أجزاء⁽⁴⁹⁾ .

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين كانوا يدرسون التاريخ في معاهد العلم ، منهم ابن عبد البر التنوخي⁽⁵⁰⁾ ، وابن الغمار⁽⁵¹⁾، وابن الأبار نفسه ، وكتابه (درر السمط في خبر السبط) كان مادة تاريخية تدرّس في المعاهد العلمية بتونس . هذا بالإضافة إلى كتب التراجم والطبقات التي ألفها أندلسيون في تونس خلال ذلك القرن .

التعليم : ولا يقف تأثير الأندلسيين عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى مجالات أخرى ثقافية وعلمية وصناعية متعدّدة مثل التعليم . لقد اقتبس التونسيون منذ أوائل العهد الحفصيّ طرق التعليم المنظّورة عن الأندلسيين . ولا ننسى هنا أنّ أبا زكرياء الحفصيّ مؤسس الدولة ورائد نهضتها العلمية والحضارية تثقّف على علماء أندلسيين أو عن تلاميذهم كابن عصفور الإشبيلي الذي أخذ عنه علم النحو ناظره فيه⁽⁵²⁾ . وقد أعجب أبو زكرياء بالطريقة الأندلسية في التعليم واستنصوها . ولمس حاجة تونس إليها وإلى العلماء الأندلسيين فاستدعى من إشبيلية — وقد أصبح سيّد إفريقية وكان في السابق حاكما لمقاطعة تابعة لها — عددا من أصحاب الصناعات المختلفة منهم العلماء للقيام بمهمة التعليم بتونس⁽⁵³⁾ .

(49) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصيّة ص 111 — 112 .

(50) المصدر السابق .

(51) العبدري : الرحلة . ص 126 .

(52) مخلوف : شجرة الثور الزكيّة ، ج 2 ص 138 .

(53) كانت عائلة خلدون من هذه العائلات التي جلبها أبو زكرياء من إشبيلية ، أحد أبناء خلدون هذا أصبح وزير مال ، وابنه محمد حاجبا ثم وزيرا ، وابن محمد هذا كان رجل علم ودين تولّى خطة الإفتاء بتونس أما حفيد المذكور فهو عبد الرحمان ابن خلدون المؤرخ التونسي الشهير (ولد سنة 722 وتوفّي سنة 808 / 1322 — 1405) (انظر كتاب ج . ماري السابق ص 303) .

وقد أشاد المؤرخون بتفاني هؤلاء العلماء المدرّسين في بثّ العلم والمعرفة في حلقات دروسهم⁽⁵⁴⁾. ومن أشهر هؤلاء أبو العباس أحمد بن الغمّاز البلنسي (ت 1293/693)، وأبو العباس البللي⁽⁵⁵⁾، وأبو العباس أحمد المالقي، وأبو العباس أحمد الغرناطي (ت 1292/692) صاحب كتاب المُشْرِق في علماء المغرب والمُشْرِق. وكان الخليفة أبو زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي (حكم من سنة 678 إلى 1279/683 إلى 1284) يحضر دروسه بمدرسة المعرض في العاصمة التونسية. ولما رأى الخليفة مدى تفاني ذلك المدرّس في أداء وظيفته، وما اتّصف به من تبحّر في العلوم أجرى عليه مرتباً عالياً، وأعطاه كيسين مملوءين ذهباً وفضّة ليوزّعهما على كلّ من يتلقى العلم في حلقات دروسه⁽⁵⁶⁾. ويضيف المؤلّف أن ذلك الإجراء من قبل الأمير الحفصي، شجّع الطلبة على التعلّم بتلك المدرسة فازداد عددهم حتى أنّه لم يبق لبعضهم محلّ يجلسون فيه. وبلغ إعجاب الأمير بالدروس التي تُلقَى بتلك المدرسة حدّاً جعله يفتح بها شبّاكاً على بيته يستمع منه إلى الدروس ويراقب سير التّعليم بها⁽⁵⁷⁾.

أما طريقة التّعليم الجديدة التي أدخلت على أيدي الأندلسيين إلى تونس في القرن 13/7، فقد أشاد بها ابن خلدون حيث أنها تحرّرت من المَنوال التّقليدي الذي يتعلّق في استظهار النصوص عن ظهر قلب و التّركيز على تعلّم علوم القدامى كما تداولتها الأجيال. وأصبح التّعليم يعتمد على إطلاق المجال للعقل في التّفكير والتّعليل وتحليل الآراء ودراستها ومناقشتها. يصف ابن خلدون أصحاب الطريقة التّعليمية التّقليدية بقوله: (نجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجانس العلميّة سكوتا لا ينطقون ولا يفاضون... فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرّف في العلم والتّعليم. ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصل ملكته قاصرة في عنقه إن فاوض أو ناظر أو علّم. وما أتاهاهم القصور إلّا من قبل التّعليم... وإلّا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم نشدّة عنايتهم به، وظنّهم أنّه المقصود من الملكة العلميّة وليس كذلك)⁽⁵⁸⁾.

(54) العبدري: الرّحلة ص 385.

(55) المصدر السابق ص 126.

(56) E. Fapau : Chronique des Almohades et des Hafsides attribué à Zarkachi, 1895, p. 73.

(57) المصدر السابق ص 78.

(58) ابن خلدون: المَقْدَمَة ص 780.

ويذكر ابن خلدون بالإضافة إلى ما سبق مقارنة أخرى بين الطريقتين في التعليم في ذلك العصر فيؤكد بها ما للطريقة الحديثة من جدوى ، وذلك عندما يعلمنا أن المدة التي كانت معينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عند أهل المغرب الأقصى مدة طويلة جدا وهي ست عشرة سنة . أما بتونس حيث تطبق الأساليب التعليمية الحديثة فإن المدة لا تتجاوز الخمس سنوات فقط . وهي أقل مدة متعارف عليها بالمدارس في ذلك الوقت . ثم يعقب مؤرخنا الشهير بقوله (فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك) (59) .

لقد ازدهرت طرق التعليم الناجحة في تونس بسبب التجديد فيها والتحديث في أساليبها كما رأينا ، وبسبب وجود المدرسين الأندلسيين العلماء ووفرة المدارس المستحدثة . وهذا من شأنه أن يلقح الأفكار ويشحذ الأذهان ويزيد في طلب المعرفة ونشرها . ولقد ازدهرت طرق التعليم والتدريس في تونس في القرن 13/7 إلى درجة جعلت المدرسين بالمغرب الأقصى يبعثون بأساتذة من بلادهم إلى تونس للتدرب . وقبل رجوعهم إلى أوطانهم كانوا يُمتحنون قبل تسلّمهم خطة التدريس في مدارس بلادهم . وكان هذا الامتحان يشمل ، من جملة ما يشتمل ، على معرفة مدى حذق المدرس في التبليغ واعتماده على المناقشة والتعليل والاستنتاج لا على الحفظ والاستظهار (60) .

واعتمادا على ما لاحظناه ، فيما تقدّم من هذه الدراسة ، من تأثيرات إيجابية مبدعة للأندلسيين في تونس في مختلف المجالات الثقافية والعلمية وغيرها ، فإنه لا يسعنا إلا أن ننوّه بنظر أبي زكرياء الحفصي الثاقب وذكائه الحاد وصواب رؤيته المستقبلية لما اقتنع من أول وهلة ، لما تولّى الحكم بإفريقية أنّ حاجة تونس وازدهارها ومستقبلها لا تتحقّق كما يتصوّره إلا بجلب أعلى الإطارات في مختلف الاختصاصات من بلاد الأندلس . لقد عاش أبو زكرياء حضارة الأندلس وتقدّمها وتفوّق علومها وتقنياتها وتشبّع من تمدّنها . ولا شكّ أنّه صُعق لما انتقل إلى تونس حيث وجد البون شاسعا جدا بين البلدين والهوة سحيقة بين العدوتين . ولم يجد بدا من إغراء رجالات الأندلس المتميّزين لجلبهم إلى تونس من أجل بعث ثورة علمية وثقافية في حضرة دولته

(59) المصدر السابق ص 780 — 781 .

(60) المصدر السابق ص 109 .

الجديدة ، وقد أرادها أن تكون مثل مدينة إشبيلية وقرطبة وغرناطة من بلاد الأندلس في علومها وصناعاتها وهندسة بناءاتها . وقد بلغت دولته العزّ والسؤدد في عهد خليفته المستنصر بالله، حيث صارت تونس كعبة العلماء والأدباء والمؤرخين والمدرّسين .

يذكر ابن خلدون بلاط المستنصر بقوله : (وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ... ومما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصا الأندلس من شاعر مطلق وكاتب بليغ وعالم تحرير ... متفئين ظلّ ملكه متناغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده ، وخفوت صوت الملك إلّا في إيوانه)⁽⁶¹⁾ .

4 — ابن الأبار ومشاركته في نهضة تونس في القرن 13/7 :

في خضم إنجازات المهاجرين الأندلسيين في حاضرة الحفصيين في القرن 13/7 حلّ أبو عبد الله ابن الأبار بإفريقية ليقم في العاصمة كمواطنيه الأندلسيين . وكانت له المشاركة الفعالة في العطاء علما وأدبا ، وشعرا وثقافة .

ألّف ابن الأبار ما يزيد على الخمسة وأربعين كتابا في فنون مختلفة . وليس ذلك بغريب ، فقد كان علامة (في الحديث ولسان العرب ، بليغا في التّرسل والشعر)⁽⁶²⁾ . ويصفه صاحب شجرة التّور التركية بأنه (الإمام الحافظ النّظار ، الرّواية المتبحر في العلوم ، الحامل لواء المنثور والمنظوم)⁽⁶³⁾ . ويقول فيه أيضا : (ومن اعتنائه بالرّواية لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلّا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص)⁽⁶⁴⁾ .

بالنسبة إلى التاريخ، كان عمدة فيما كتبه عن الأندلس والمغرب . وقد انتفع في تواريخه المتعلقة بإسبانيا بكتب المؤلّفين السّابقين . (وهو بالنسبة إلى تاريخ بني هود في سرقسطة والمرايضين والموحدّين مصدر في غاية الأهمية . وقد وصف لنا أحوال

(61) ابن خلدون : المغر . ج 6 . ص 675 .

(62) ابن خلدون : المغر ج 6 . ص 653 .

(63) محمد مخلوف : شجرة التّور ج 1 . ص 195 .

(64) نفس المصدر .

دولة الموحدين في أواخر أيامها ، وكذلك فتوح النصارى في الأندلس وصف معاصر وشاهد عيان⁽⁶⁵⁾ .

أما عبد الله الطَّبَّاع فعند حديثه عن ابن الأَبار باعتباره مؤرخا يبرز أهميته وتفوقه بقوله: (...) وقد درست بعد ذلك قيمة ابن الأَبار العلمية والتاريخية مبرها أن مؤرخنا بالرغم من أن ابن خلدون لم يأت على ذكره بين كبار مؤرخي العرب ، فهو يستحق أن يحتل مكانته بينهم كمؤرخ الأندلس وإفريقيا الشمالية وأنه من حقّه أن نذكر اسمه إلى جانب اسم ابن حيّان ، أكبر مؤرخي الأندلس الإسلامية ... لقد أكدت في النهاية أن مؤرخنا ابن الأَبار كان أول من خطا من بين المؤرخين العرب ، نحو نقد التاريخ ، هذه الشهرة التي اكتسبها فيما بعد ابن خلدون⁽⁶⁶⁾ .

وفي التراجم كتب ابن الأَبار عدة مؤلفات منها التكملة لكتاب الصلّة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضا كتاب الحلة السيرة في تراجم بعض أعيان الأندلس والمغرب منذ الفتح إلى عصره . وهو كتاب قيم جدا بالنسبة إلى التراجم وتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس في القرن 12/6 .

ولهذا العالم مؤلفات أخرى⁽⁶⁷⁾ بديعة ، منها : معادن اللّجين في مرآتي الحسين . يقول محلوف في شأنه : (ولو لم يكن له من التأليف إلا هو لكفاه على علو درجته في العلوم وسمو رتبته)⁽⁶⁸⁾ . وله كتاب آخر في منتخب الأشعار سماه : قطع الرياض ، وله كتاب : هداية المعترف في المؤلف والمختلف ، وله المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي : وهو يشتمل على ثلاثمائة وخمسين ترجمة لطائفة من علماء الأندلس⁽⁶⁹⁾ ، وتحفة القادم ترجم فيها للشعراء بالأندلس ، ودرر السمط في خبر السبط يتحدث فيه المؤلف عن آل البيت : وهو الكتاب الذي أظهر فيه مؤلفه تشييعه

(65) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين تعريب محمد عبد الله عنان ، الطبعة 2 ، القاهرة ، 1958 ، ص 505 .

(66) عبد الله أنيس الطَّبَّاع : كتاب الحلة السيرة . ص 17 ، ص 153 .

(67) حسين مؤنس : الحلة السيرة ص 46-54 ، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة: 66/3 .

(68) شجرة التورج ج 6 . ص 196 .

(69) نفس المصدر .

لعلي بن أبي طالب وهاجم فيه الأمويين الستة بشدة⁽⁷⁰⁾ . ومن هذه المؤلفات أيضا كتاب : إعتاب الكتاب ، كتبه ابن الأثير لما أعفي من منصبه وأبعد عن القصر وألزم بالإقامة الجبرية في داره ، وهو كتاب تاريخي أيضا ترجم فيه المؤلف لكتاب تعرّضوا لغضب الملوك والسلاطين والخلفاء ثم حلّت بهم نعمة الرضى فأعجبوهم ، وهو الكتاب الذي استشفع فيه مؤلفه بولّي العهد الحفصي فغفر الأمير له وأقال عشرته⁽⁷¹⁾ .

وإذا نظرنا بدقّة في كتب ابن الأثير التي وصلتنا وهي ستة، والكتب التي ضاعت وهي تسعة وثلاثون ، يمكننا أن نلاحظ أنّها ركّزت على أربعة محاور رئيسية هي الحديث والأدب والتاريخ والتراجم . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أن ميدان ابن الأثير الحقيقي كان التاريخ والتراجم . وكتبه الثلاثة الباقية في هذا الفن تشهد بمقدرته وهي : الحلة السيرة والتكملة لكتاب الصلة ، والمعجم في أصحاب أبي علي الصديقي⁽⁷²⁾ .

إنّ ابن الأثير كان عالما مؤلفا ، ومدرّسا قديرا ، وشاعرا عظيما . ولهذا السبب يمكننا أن نقرّر أنه شارك مشاركة فعّالة ومباشرة في النهضة التي انبثقت في تونس منذ العقد الثالث من القرن 13/7 . فكثرت كانت متداولة بين الناس قبل مقتله وبعده . وشعره أيضا كان مرويّا في كامل المغرب العربي وكذلك الأندلس . إنّ الأوصاف التي نُعت بها عالمنا في القسم الأول من هذا البحث لا تدع أي شك في مكانته . أضف إلى تلك الدروس التي كان يلقاها أمام طلبته في بحاية ثم في تونس ، فقد سجّلها هؤلاء الطلبة في مؤلفاتهم ورحلاتهم وخلدوها إلى اليوم . لقد كان ابن الأثير يدرّس بجوامع الزيتونة . وكانت كتبه من بعده تدرّس في الجوامع وحلقات العلم ، منها كما — يذكر العبدري — كتاب درر السمط في خبر النسيب⁽⁷³⁾ . ومن تلاميذ ابن الأثير سواء في بحاية أو في تونس ابن رُشيد . وقد أثنى هذا الطالب على أستاذه في رحلته ، وكذلك درس عليه أبو عبد الله التّجاني قريب صاحب الرحلة وأجازه أيضا⁽⁷⁴⁾ .

كان لابن الأثير تأثير ملموس في محيطه حيث كانت له ثقافة علمية باهرة ، عليها قامت شخصيته العلمية والأدبية الفذة . وقد طبع عصره بنشاطات علمية ومؤلفات قيمة

(70) دائرة المعارف الإسلامية الطّبعة الجديدة : 66/ 3 .

(71) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 654 .

(72) حسين مؤنس : الحلة السيرة ص 48 — 57 .

(73) العبدري : الرحلة . ص 126 .

(74) شجرة التّورج 1 . ص 196 .

سواء في العلوم أو في الأدب أو في الشعر أو في التاريخ والتراجم أو في غيرها . وامتنازت كتبه بالدقة والإتقان بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وهو (واحد من أعلام مؤرخي العلم في الأندلس ومرجع من المراجع التي لا يستغنى عنها مؤرخ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين خاصة) (75) .

لقد كان ابن الأثير (مؤرخا فحلا واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، ومادة التراجم لديه متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنية بكل ما ينفع المؤرخ) (76) . ويضيف حسين مؤنس بعد هذا الحكم قوله : (ولا أذكر أنني قرأت لغير ابن الأثير في الأندلس شيئا يدل على سعة العلم على هذه الصورة . فهو متمكن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بني العباس أو خلفاء الفاطميين أو أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقد لا يمر بخطأ في تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه . وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدل على أنه بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي) (77) .

أما تأثيره في المجال الشعري في تونس فإنه متأكد وفصيلته السيئة التي ألقاها بين يدي أبي زكرياء الحفصي كانت ذائعة الصيت في تونس وفي معظم العالم الإسلامي

ويكفي أن نشير هنا إلى تأثيرات ابن الأثير في الشعر بمثال واحد أورده محمد مخلوف ذكر فيه أن قصيدة ابن الأثير السينة المشهورة كانت محل نقاش وتحليل ونقد من طرف الأدباء والنقاد ، وعارضها بعض الشعراء . ودافع عنها أبو إسحاق التحاني بكتاب ألفه خصيصا لهذا الغرض وهو كتاب موازنة النوافد ومبارزة الناقد في الانتصار لابن الأثير (78) . وبصفة عامة يعتبر ابن الأثير (أكبر مصنف لمعالم الرجال أنجبته الأندلس) (79) .

(75) حسين مؤنس : الحلقة السيرة ص 51 .

(76) المصدر السابق ص 53 .

(77) المصدر السابق ص 53 .

(78) شجرة النور ج 1 ص 195 .

(79) حسين مؤنس : الحلقة السيرة . ص 53 .

ومما لا شك فيه أن هذه القيمة العلمية التي يتمتع بها في نظر العلماء والطلبة في السابق ، والمستشرقين وغيرهم اليوم كانت نتيجة لبوغه ونتاجه الفكري ، فقد كان (يمتاز بملكة نقدية صحيحة قوية ، إلى جانب عاطفة جياشة تذكرنا بفحول الشعراء العرب القدامى ، وأسلوبهم في الحياة والإحساس وهو شيء نادر بين معاصريه...) (80) .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة هجرية : اثنتان وأربعون منها في الأندلس والباقي في تونس ولم يسعد لا في هذه ولا في تلك ، كما يقول حسين مؤنس (... فأما في الأندلس فقد عاش مروّع السرب يحوم فوقه شبح الموت في كل حين ... ثم فقد وضه وخرج بما حملت يده إلى المغرب (تونس) حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلّعه إلى الوظائف والجاه . فلم يسعد في وطنه الحديد ولا هداً بأنه وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة) (81) .

من الظريف في دنيا التأليف، كتاب :

• عبد العزيز العروي : شاهد عصره : للأستاذ محمد التركي (بالفرنسية. نشر دار التركي للنشر) جمع فيه المؤلف — الذي تعرّف على العروي عن كتب — وثائق عديدة من تونس وفرنسا أهمّها مقالاته الصحفية وأسماؤه الأدبية، إضافة إلى أقوال من عمل معه في الحقل الأدبي ومن عاشره من أفراد أسرته وأصدقائه. فجاء الكتاب مرآة تعكس حياة المترجم له منذ صباه إلى حين وفاته بنفس الدقة التي كان هو يصوّر بها المجتمع التونسي بكلّ شرائحه في الثلاثينيات وما بعدها.

(80) الطّبّاع : كتاب الحلة السّراء ص 112 .

(81) المصدر السابق ص 46 .

الدار التونسية للنشر

من أعرق دور النشر وأهمها على مستوى المغرب العربي أنشئت في 3 جوان 1966 .

مقرها : 36 نهج باب الخضراء . تونس — الهاتف : 344.565 — الحساب الجاري البريدي : 77229 ، الدفتر التجاري : 33510 .
من أهدافها الأساسية : نشر التراث الوطني والقومي ، والانتاج الفكري والأدبي تشجيعا للطاقات المبدعة الجديدة.

أصدرت أكثر من 700 عنوان في ميادين شتى :

I — التراث الأندلسي :

- 1 — ديوان المعتمد بن عباد : جمع وتحقيق . د. رضا السويسي .
- 2 — خريدة القصر وخريدة العصر لأبي عبد الله الإصفهاني . تحقيق آذرتاش آذرنوش . تنقيح وإضافات للأساتذة : محمد المرزوقي ، ومحمد العروسي المطوي ، والجيلاني بن الحاج يحيى (جزء I ، II : شعراء المغرب والأندلس) .
- 3 — قرطبة الإسلامية : د. محمد عبد الوهاب غلاف .
- 4 — ابن سيدة المرسي : حياته وآثاره : د. كابانيلاس ، تعريب : د. حسن الوراكلي .
- 5 — الرحلة الأندلسية : علي بن سالم الورداني . تحقيق : الأستاذ عبد الجبار الشريف .

II — الموسوعات :

- 1 — تفسير التحرير والتنوير للشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور (30 جزءا في 15 مجلدا) .
- 2 — ترجمة معاني القرآن الكريم في جزءين : الأستاذ الصادق مازيغ .
- 3 — الأعمال الكاملة لأبي القاسم الشابي (أغاني الحياة ، الخيال الشعري عند العرب ، مذكرات الشابي ، رسائل الشابي) ، (مجلدان) .
- 4 — المقدمة لابن خلدون : تقديم د. جمعة شيخة (في جزءين) .
- 5 — إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضياف (8 أجزاء) .

III — السلاسل : كما تقوم الدار بنشر سلاسل من الكتب : كسلسلة الكتب شبه المدرسية باللغة الفرنسية ، وسلسلة المكتبة الفلسفية وسلسلة علامات ، وسلسلة الكتاب الجامعي ، وسلسلة علم الاجتماع العربي ، وسلسلة إبداعات.

القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار⁽¹⁾

بقلم : د. جمعة شيخة
كلية الآداب — متوبة — تونس

تقديم الديوان .

رغم ما تعرّض له التراث الأندلسي من محن وكوارث أدّت إلى إتلاف جزء كبير منه ، فإن الدارسين لم يألوا جهدا في البحث عما بقي منه ، سواء في المكتبات العامة أو الخاصة ، لتحقيقه ونشره في مرحلة أولى ، ودرسه وتقييمه في مرحلة ثانية .

وهذا المجهود لا شك أن نقاد الأدب عامة ، والشعر منه بصفة خاصة ، في حاجة أكيدة إليه ، لأنه لا يمكن لهم إبداء أي حكم يتسم بالدقة والشمول معا إلا إذا توفرت لديهم النصوص ، وهي دواوين الشعراء .

ولقد توفّر للمهتمين بالشعر الأندلسي بعض هذه الدواوين . فمئذ سنوات تمّ تحقيق مجموعة لا بأس بها نذكر منها :

— ديوان يحيى بن حكم الغزّال ت 864/250 (تحقيق محمد رضوان الذاية ط 1 دمشق 1982) .

— ديوان ابن درّاج القسطلّي ت 1029/421 (تحقيق د. محمود علي مكّي ط 2 بيروت 1389) .

— ديوان ابن شهيد ت 1035/426 (تحقيق شارل بلا بيروت 1963) .

(1) طبع بنونس 1985 بالدار التونسية للنشر . تحقيق الأستاذ عبد السلام الهّراس في 496 صفحة .

- ديوان أبي إسحاق الإليري ت 1067/460 (تحقيق محمد رضوان الداية ط بيروت 1976) .
- ديوان المعتضد بن عباد ت 1069/461 (تحقيق رضا السويسي . فصلة من مجلة التربية بطرابلس) .
- ديوان ابن زيدون ت 1071/463 (تحقيق محمد سيد كيلاني، ط 3 مصر 1965) .
- ديوان المعتمد ت 1095/488 (تحقيق د. رضا السويسي ط تونس 1975) .
- ديوان ابن اللبانة ت 1013/507 (تحقيق محمد مجيد السعيد. ط البصرة 1977) : جمع لشعره .
- ديوان الأعمى التطيلي ت 1130/525 (تحقيق إحسان عباس ، ط البصرة 1977) .
- ديوان ابن الرقاق ت 1135/529 (تحقيق عفيفة محمود ديراني ، ط بيروت) .
- ديوان ابن خفاجة ت 1139/533 (ط بيروت 1961) .
- ديوان ابن قزمان ت 1160/555 (تحقيق ف. كورينطي ، ط مدريد 1980) .
- ديوان الرصافي البلسني ت 1176/572 (تحقيق إحسان عباس ، ط 2 بيروت 1983) .
- ديوان ابن سهل الإسرائيلي ت 1251/649 (تحقيق محمد قوبعة . ط تونس 1985) .
- ديوان حازم القرطاجني ت 1285/684 (تحقيق عثمان الكعاك ط بيروت 1964) .
- ديوان ابن الحباب ت 1347/749 (تحقيق السيدة خيسوس روبرا . ط غرناطة 1982) .
- ديوان ابن خاتمة ت 1368/770 (تحقيق محمد رضوان الداية ، ط دمشق 1972) .
- ديوان ابن الخطيب ت 1375/776 (تحقيق محمد الشريف قاهر . ط الجزائر 1973) .
- ديوان يوسف الثالث ت 1417/820 (تحقيق عبد الله كنون ، ط القاهرة 1965) .
- ديوان ابن فركون ق 15/9 (تحقيق محمد ابن شريفة ط المغرب 1987) (2) .
- (2) وظهر ونحن بصدد القيام بهذا البحث ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي ق 15/9 . (تحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي ط . تونس 1988) .

وانضاف إلى هذه المجموعة القيمة من الأعمال خلال سنة 1985 ثلاثة دواوين :
إثنان أعيد تحقيقهما وهما ديوان ابن سهل وديوان المعتمد (وفيه قسم مخصص لشعر
أبيه المعتضد بن عباد) . والثالث ديوان حقق لأول مرة وقام بتحقيقه الدكتور عبد السلام
الهرّاس أستاذ الأدب الأندلسي بكلية الآداب جامعة الملك سيدي محمد بن عبد
الله — فاس — المغرب : وهو ديوان ابن الأبار .

ولا شك أن الأستاذ الهرّاس بعمله هذا — وقد انتظرناه طويلا — سدة ثغرة لا يستهان
بها في تاريخ الشعر الأندلسي . فصاحب الديوان هو إحدى الشخصيات المرموقة خلال
القرن 13/7 على المستويين السياسي والأدبي : مارس السياسة في أحلك فترة من فترات
تاريخ شرقي الأندلس، كما مارسها في أصعب بلاط وأخطرها بإفريقية . وخرج من
المرحلة الأولى وقد سلب وطنه ، وأخرج من الثانية وقد أزهقت روحه⁽³⁾ . أمّا من
الناحية الفكرية والأدبية ، فقد وصلنا من آثار ابن الأبار — رغم أن جلّ مؤلفاته أحرقت
معه عند مقتله — ما يدل على أننا أمام رجل قدير ذي ثقافة موسوعية ، طرق مجالات
من المعرفة شتى فلم يخفق له قلم ، وكتب في مواضيع متعددة فلم يكب له جواد .
ولم يمنعه نشاطه السياسي المتنوع ، ولا شواغله الفكرية المتعددة من أن يكون أحد
كبار شعراء المغرب والأندلس في القرن 13/7 . ولعلّ ديوانه هذا الذي أصبح في متناول
الأيدي خير دليل على ذلك .

جاء هذا الديوان في 496 صفحة منسّمة على النحو التالي :

1 — المقدمة (ص ص 5—30) أشار فيها الأستاذ الهرّاس أن تحقيقه لديوان
ابن الأبار يمثل القسم الثاني من رسالة جامعية تقدّم بها لنيل شهادة الدكتوراه الدولية
من كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد سنة 1966 . أمّا القسم الأول من بحثه —
ولم ينشر إلى حد علمنا — فهو المتعلّق بدراسة الديوان وحياة صاحبه وشاعريته . وبما
أنّ المحقّق درس حياة الشاعر وشعره في هذا القسم الأول من الأطروحة ، فلم يرد
تكراره في هذه المقدمة ، واقتصر على التعريف بابن الأبار تعريفا موجزا . كما قام
بتقديم النسخة الوحيدة التي اعتمدها في التحقيق والمحفوظة في الخزنة الملكية
بالمغرب تحت رقم 4602 .

2 — النصّ المحقّق (ص ص 33 — 469) ويشتمل على :
أ — محتوى النسخة السابقة . وجاءت القصائد فيها مرتّبة على الحروف

(3) قتل ابن الأبار بنونس يوم الثلاثاء 20 محرم 658 الموافق 1260/1/6 .

الهجائية حسب الترتيب المغربي الأندلسي⁽⁴⁾ باستثناء الحروف الأربعة التالية : خ — ز — ط — ظ .

ب — ملحق 1 : وفيه ما جمعه المحقق من شعر ابن الأبار في مصادر مختلفة مطبوعة ومخطوطة، ولم يرد ذكره في الديوان .

ج — ملحق 2 : وفيه قصيدتان وجددهما المحقق في ورقتين ملصقتين بالديوان ورجع أنهما لابن الأبار .

3 — فهارس (ص ص 473 — 496) للقوافي ، والقصائد حسب الأغراض ، والقصائد حسب البحور .

ونحن نشاطر الدكتور الهّراس في (أن الإقدام على التحقيق على نسخة واحدة مغامرة محفوفة بالمخاطر والمزلق خصوصا وهي حافلة بالتصحيف والخروم)⁽⁵⁾ . ولكن نعتقد أن المحقق خرج موفقا من هذه المغامرة . فقد قدّم لدارسي الأدب الأندلسي نصا سليما في جملته ، فيه من التعاليق اللغوية والتاريخية ما يجعل قراءته مفيدة ، ولم لا ممتعة ؟ .

لكن كلّ هذا لا يمنع من أن نبدى بعض الملاحظات عنت لنا بعد اطلاعنا على هذا العمل الجيد : يبدو أن الأستاذ الهّراس كتب مقدّمة الديوان منذ سنة 1969 ، ولم ير موجبا للرجوع إليها عند طبعه . وهذا ما جعلنا نجد في هذه المقدّمة أشياء تجاوزتها الأحداث كما يقال ، فبعض الكتب التي ذكرها المحقق مخطوطة . قد حقق وطبع كرحلة ابن رشيد (تحقيق الأستاذ محمد الحبيب بلخوجة) ، والذيل والتكملة (تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة) . والإحاطة (تحقيق الدكتور عبد الله عنان) . وسبك المقال (تحقيق الأستاذ عبد الواحد الزغلامي)⁽⁶⁾ .

ويبدو كذلك أن المحقق كتب المقدّمة بسرعة مما جعله يرجح بعض الآراء بطريقة غير منهجية ففي ص 23 يقول : (إن نسخ هذا الديوان وقع حوالي سقوط الأندلس).

(4) الترتيب الهجائي المغربي والأندلسي هو كالاتي : أ — ب — ت — ث — ج — ح — خ — د — ذ — ر — ز — ط — ك — ل — م — ن — ص — ض — ع — غ — ف — ق — س — ش — هـ — و — ي .

(5) الديوان ص 24 .

(6) قد يكون الأستاذ الهّراس استعمل هذه المصادر مخطوطة سنة 1969 . لكن بما أننا في سنة 1985 يحب مراجعة ما فلناه في سنة 1969 وخاصة بمناسبة طبع الأثر المحقق .

لكن ما هو الدليل على ذلك ؟ وفي ص 13 نجد (وامتدت به (ابن الأبار) الإقامة في بحاية بالتحقيق (يقصد بالضبط) سبع سنوات من سنة 650 — 657 ، وإن كنا نظن أنها أكثر قليلاً) لكن ما هي الحجة في هذا الترجيح ؟ إن البحث العلمي لا يمكن أن يطمئن إلى الحدس والتخمين ولا يقوم إلا على الحجة والدليل . ومن نتائج هذا التسرع :

— إيراد المحقق بعض أسماء المؤلفين دون ذكر عناوين كتبهم . ففي ص 29 يذكر من بين عناوين الكتب : (عبد المجيد) والحقيقة أن هذا هو اسم المؤلف وعنوان كتابه الذي لم يذكر هو (ابن الأبار) . والعكس يذكر اسم الكتاب دون ذكر لصاحبه فمن هو مؤلف كتاب (قبائل العرب) المذكور في ص 35 تعليق 29 ؟ ومن هو مؤلف (هبة الأيام في أخبار أبي تمام) ص 43 تعليق 34 ؟ وقد يذكر المصدر لكن بدون ذكر للصفحة (انظر ص 418 تعليق 5) .

— ذكره لبعض المعلومات هي في حاجة إلى مزيد التدقيق . فأبو الحسين (وتارة أبو الحسن) عيسى ابن لب ... ابن دسيم هو زوج ابنة (ابن الأبار) ص 15 . وتارة هو زوج ابنته أو أخته ص 16 . فإن كانت المصادر هي التي اختلفت في ذلك فما على الباحث إلا أن يشير إلى هذا الاختلاف . كما أن ما ذكره في التعليق 7 ص 418 من احتمال ، هو بعيد جداً عن روح القصيد ، فلو دقق المحقق لرأى أن كلمة (مصرية) لا يمكن أن تعوضها كلمة (مغربية) أو (حضرية) .

— عدم ضبطه لمصادره بالطريقة المنهجية المتمثلة في ذكر المؤلف والمحقق ومكان الطبع وزمانه (انظر كيف جاءت قائمة المصادر في ص 29) .

— إهماله لترقيم أبيات القصائد ، ولعل هذا الإهمال جرّه إلى إهمال أكبر هو عدم وضعه لفهرس الأماكن والأعلام⁽⁷⁾ . والأستاذ الهراس لئن لم يقم بالترقيم والفهرسة للأعلام والأماكن ، فقد حاول أن يشير في تعاليق له ، رمز لها بشكل نجمة ، إلى الظروف التي حقت بقول القصيدة أو المناسبة التي قيلت فيها . لكن يجب أن تكون هذه التعاليق دقيقة وكاملة . فعلى سبيل المثال نجد في ص 55 ابن زيد . من هو

(7) قد يرى بعضهم أن فهرس الأعلام والأماكن في ديوان شعر عديم الجدوى . وهذا خطأ محض لأن الأحداث التاريخية والمظاهر الحضارية توجد مبثوثة خلال الأبيات مما يجعل ترقيمتها ووضع فهرس من هذا النوع محتملاً .

أبن زيد هذا ؟ يكتفي المحقق بإرجاعنا إلى المصادر لمعرفة وهذا غير عملي بالتصبة إلى القارئ . وابن زيد هذا (خطاً مطبعي) هو أبو زيد عبد الرحمان الموحدي حاكم بلنسية أطرده منها أبو جميل زيان ابن أبي الحملات في صفر 626/جانفي 1229 . فلجأ إلى أراغون وتمسح . وكان ابن الأتار قد خرج معه ثم رجع⁽⁸⁾ وفي ص 197 تعليق 27 و 29 وفي ص 427 تعليق 21 نجد : ابن إسحاق : هو ابن غانية . لكن من هو منهما علي أو يحيى ؟ أو من بقي من إخوتهما في الجزائر الشرقية ؟ المقصود بطبيعة الحال في القصيدة هو يحيى بن غانية الذي بقي بعد مقتل أخيه علي ثائراً صامداً في وجه الدولة الموحدية ثم الحفصية حوالي نصف قرن . وفي ص 80 نجد المحقق يعلق على القصيدة 25 بقوله : (أنشأها بمناسبة بيعه بعض مدن الأندلس والمغرب لأبي زكريا الحفصي ، وذلك حوالي 641 هـ/1243 لأن إشبيلية (حمص بايعت هذه السنة) . وهذا تعليق مقتضب وغير دقيق . فالأولى أن نذكر هذه المدن — خاصة وقد عددها الشاعر في القصيدة — بأسمائها ، ونعرف بالظروف التي كانت تمر بها كل واحدة منها حتى رأيت من الضروري الدخول في طاعة الحفصيين ولو اسمياً . وفي ص 417 يقول المحقق في تعليقه على القصيد 201 : أنشأها (يمدح أبا زكريا وولي عهده ولعله أبو يحيى في طالع سنة جديدة ولعلها سنة 640 هـ/1242 أو 641 هـ/1243 والبحث المنهجي لا يمكن أن يقبل مثل هذه التعليقات التقريبية غير الدقيقة .

والأستاذ الهراس لئن اعتمد على نسخة واحدة وفي ذلك ما فيه من المشقة والجهد ، فإن كثيراً من شعر ابن الأتار نجده مبثوثاً في عدة مصادر مطبوعة . وهذا من شأنه أن يسهل نسباً على الباحث استخراج نصّ مقروء . وهنا كان من المستحسن أن يقوم المحقق بعملية تخريج للأبيات — وذلك بالمقارنة بين المصادر — في بدلية تعليقه على كل قصيدة حتى يتمكن الدارسون من معرفة ما أضافه الديوان من جديد⁽⁹⁾ .

والأستاذ الهراس قام بشرح الكلمات الصعبة ، لكنه أغفل كثيراً منها ، بعضها يبدو أصعب مما شرح . ففي ص 137 قصيدة 59 بيت 4 يشرح كلمة رداح ويترك كلمة

(8) ذكر المحقق هذا في المقدمة عند ترجمته لا بن الأتار . لكن يجب ذكره هنا في هذا المكان المناسب لإعانة القارئ على فهم القصيدة .

(9) قام المحقق بالإشارة إلى ذلك داخل القصيد ، ولكنه كان يذكر فقط المصادر دون مقارنة بينها ودون تحديد للأبيات كقوله ص 59 في تعليقه على القصيدة 13 (وردت بعض الأبيات في المغرب 312/2 . والقدر 192 وفي الزايات 82) .

ر أد . وفي ص 141 بيت 1 لا يشرح كلمة حدثان وبيت 7 كلمة إعطاع إلخ ...
بل إن أبياتنا كثيرة في حاجة إلى التعليق لعمسرها على الفهم . ومن أولى بشرحها من
المحقق ؟

وقام المحقق بشكل الشعر ، وأغفل شكل بعض الكلمات نرى أن شكلها واجب
نظرا إلى أن الصعوبة تكمن فيها . وقد نجد بعض الهنات في الشكل . ففي ص 133 ،
القصيدة 58 ، البيت 10 نرى أن كلمتي (وجدانها المنشود) يجب أن تقرأ منصوبة
لا مرفوعة لأنها مفعول به لأسمعت . وفي ص 421 ، البيت 6 يجب أن تقرأ يزخر
بفتح العين لا بضمها . وفي ص 417 البيت 3 : الظلال هي التي تلاعب المياه .
لذلك نرى أن يُقرأ الصدر هكذا : (إذا لاعبت المياه ظلاله) .

وفي ص 137 قصيدة 59. بيت 5 يجب أن نكتبه هكذا :
وَتَقَطَّعَتْ مَا يَتَنَبَّأُ الْأَشْيَابُ قَالَ أَقْلَامُ حُسْرَى وَالرِّيحُ زَوَاكِدُ
حَتَّى يَسْتَقِيمَ الْوِزْنُ فِي الصَّدْرِ وَالْعِجْرُ⁽¹⁰⁾ . وفي ص 141 ، البيت 7 يجب أن
نعوض الهمزة القطعية في (المريّة) بهمزة وصلية للوزن كذلك .

لكن كلّ هذه الملاحظات الجزئية لا يمكن بحال أن تنقص من قيمة عمل الدكتور
الهّراس⁽¹¹⁾ فبحيرته العميقة بمناهج التحقيق ومعرفته الشاملة بعصر الشاعر ، وضع بين
أيدينا ديوانا على غاية كبيرة من الأهمية . فهو زيادة على أنه يكشف عن بعض جوانب
من حياة الشاعر الشخصية ويدققها ، يعطينا صورة عن القرن السابع والخطر والخطر
في نفس الوقت : ففيه انفصمت عرى الوحدة التي أقامها بنو عبد المؤمن ، وفيه انتقل
— ولو إلى حين — مركز الثقل السياسي من المغرب الأقصى إلى إفريقيا . وديوان
ابن الأبار يعكس بصورة واضحة الدور الذي لعبه هذا المركز الجديد في محاولة منه
لاستقطاب كامل القوى السياسية على الساحة المغربية والأندلسية وصهرها في بوتقة
الدولة الحفصية بتونس . فكيف بدا كلّ ذلك من خلال هذا الأثر الشعري ؟

إن الناظر في ديوان ابن الأبار يمكن أن ينظر فيه من زاويتين : فإن كان ناقدًا أو
أسلوبيًا كانت غايته منه القيمة الجمالية فيه ، وإن كان مؤرخًا للأدب أو دارسًا للتفكير
فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقية .

(10) جاء البيت في الديوان هكذا :

وَتَقَطَّعَتْ مَا يَتَنَبَّأُ الْأَشْيَابُ قَالَ لَأَمْ حُسْرَى وَالرِّيحُ زَوَاكِدُ

(11) ذكر المحقق بتواضعه المعهود منه أن صعوبات كثيرة اعترضته وأن هناك مشاكل لا يمكن
حلّها إلا بالعثور على نسخة أخرى من الديوان ص 27 .

ولقد نظرنا في ديوان ابن الأبار من الزاوية الثانية أي بحثنا عن قيمته الوثائقية ، فبدا لنا أن ديوانه — كحياته — يمكن أن نلاحظ فيه قسمين أو مرحلتين :

1 — المرحلة الأولى : تمثل الفترة التي قضاها الشاعر في شرقي الأندلس من مولده سنة 595 هـ/1198 م إلى انتقاله إلى العدو الإفريقية سنة 636 هـ/1238 م .

2 — المرحلة الثانية تمثل الفترة التي قضاها في إفريقية وتمتد من هجرته إلى بجاية سنة 636 هـ/1238 م إلى مقتله سنة 658 هـ/1260 م .

وفي كلتا المرحلتين عاش ابن الأبار أحداثا جساما تركت بصمات واضحة في شعره . وقد حاولنا أن نتتبع هذه الأحداث من خلال ما نظمه ابن الأبار من شعر ، فكان ما وصلنا إليه تارة مدعما لما جاء في المصادر التاريخية واضحا ، وحينما مدققا لما جاء بها عامما وطورا ثالثا مضيفا أشياء قد لا يهتم بها المؤرخون عادة في القرون الوسطى ولكنها بالنسبة إلينا اليوم على جانب كبير من الجدوى . وسنبدا بالمرحلة الأولى أي الفترة الأندلسية من حياة ابن الأبار وننتهي بالمرحلة الثانية أي الفترة الإفريقية منها .

العدو الأندلسية في ديوان ابن الأبار

1 — فتنة ييران (12)

قام بها أهل هذه القلعة ضد السيد أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي بلنسية . ولكن سرعان ما أذعن هذه القلعة لابنه أبي يحيى وأعلنت طاعتها سنة 1225/622 . وذكر ابن الأبار في قصيد مدح فيه أبا زيد ما كان ينتظر القلعة من تدمير وتخريب لو أصرت على المقاومة . وهو في مدحه لا يخفي ابتهاجه بهذه النتيجة التي أدت إلى فوز الأمير بطاعة القلعة ونيل القلعة عفو الأمير . [البسيط] (13).

1- لِلَّهِ قَلْعَةُ يِيرَانَ وَعِزُّهَا عَلَى الْأَغَاصِيرِ فِي مَاضِي الْأَغَاصِيرِ
2- عَثَّ وَذَائَتْ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى قَرَقَا مِنْ سَيِّدٍ قَدْ هَوَتْ مِنْ أَرْفَعِ السُّورِ

(12) حصن من أعمال دانية (ابن سعيد : المغرب 2/419) .

(13) د/ص 442 (د = ديوان ابن الأبار) .

- 3- وَأَذْغَنْتُ وَهِيَ الشُّمَاءُ ذُرُوتُهَا
4- وَلَسُو أَصْرْتُ عَلَى الْإِعْرَاضِ ثَانِيَةً
5- مَدْتُ إِلَيْكَ أَيْ زَيْدٍ بِطَاعَتِهَا
6- وَأَكْدْتُ فِي الرُّضَى وَالصُّنْحِ رَغَبَتَهَا
7- فَحَدَّثْتُ جُودَكَ بِالْعُمَى بِنَا سَأَلْتُ
عَلَى جَبَاحِ لَهَا مِنْ قَبْلِ مَذْكُورٍ
لَأَصْحَتْ بَيْنَ تَحْرِيبٍ وَتَذْيِيرٍ
بَدَا مَخَافَةَ صَوْلِ مَنَّا مَشْهُورٍ
كَمَا تَقْدُمُ تَأْيِيدُ التَّقَادِيرِ
مِنْ الْأَمَانِ لَهَا طَلَقُ الْأَسَارِيرِ

2 - معركة أنيشة :

وقعت هذه المعركة يوم الخميس 20 من ذي الحجة 634/14 أوت 1237 بين جيش بلنسية بقوده الأمير زيان بن مردنيش وجيش أراغوني في محاولة من المسلمين الاستيلاء على حصن أنيشة الذي اتخذته التصاري قاعدة للانطلاق والإغارة على نواحي إقليم بلنسية . وانتهت المعركة بهزيمة فادحة للمسلمين وكانت بمثابة انهيار الجدار الأندلسي بعد انهيار الجدار الموحد في معركة العقاب . واهتم ابن الأثير بهذه المعركة من خلال رثائه (14) لشقيقه أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي ، وقد سقط صريعا على أرض الميدان . وفي الديوان نجد تحديدا للمعركة من حيث المكان والزمان . قال ابن الأثير [طويل] (15) .

- 25- سَقَى اللّهُ أَشْلَاءَ بَسْفَحِ أَنْيْشَةٍ سَوَافِحَ تَرْجِيْهِهَا ثِقَالَ الْعَمَائِمِ
24- أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الْحَمِيرِ جَفَاطُهُمْ وَكَرَّهُهُمْ فِي الْمَازِيِ الْمُتَلَاْجِمِ

وقال الشاعر يصف قتلى المسلمين في هذه المعركة ، وفي وصفه لهم إكبار وإجلال يخفي في ثناياه كثيرا من الحسرة والألم : [طويل] (16) :

- 1- أَلْبَا بِأَشْلَاءِ الْعُلَى وَالْمَكَارِمِ
2- وَعَوَجَا عَلَيْهَا مَارْبَا وَمَفَازَةً
3- تُحْيِي وَجُوهَهَا فِي الْجَنَانِ وَجِيهَةً
4- وَأَجْسَادَ إِيْمَانٍ كَسَاهَا تَجِيعُهَا
17- تَعْلَقَلَّ فِيهَا كُلُّ أَسْمَرٍ ذَابِلٍ
تُقَدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَسَا وَالصَّوَارِمِ
مَصَارِعُ غُصَّتْ بِالطَّلَى وَالْجَمَاجِمِ
بِمَا لَقِيَتْ حُمُرًا وَجُورَةَ الْمَلَاْجِمِ
مَجَاسِدَ مِنْ تَسْجِ الطُّبَى وَاللَّهَازِمِ
وَجَدَلٌ مِنْهَا كُلُّ أَيْضَ نَاعِمِ

(14) خصص لرثائه قصيدة بـ 101 بيت .

(15) د/ص 277 .

(16) د/ص 275 - 276 - 277 .

- 21- فَعَامِلُ رُمَحٍ دُقْ فِي صَدْرِ غَامِلٍ وَقَائِمُ سَيْفٍ قَسْرُ فِي رَأْسِ قَائِمٍ
22- وَيَارُبُّ صَوَامِ الْهَوَاجِرِ وَاصِلٍ هُنَالِكَ مَصْرُومُ الْخَيَاةِ بِصَارِمٍ

وهؤلاء القتلى ، لمن فرقت السن بينهم ، فقد جمع بينهم بذل النفس جهادا واحسابا ، قال الشاعر [الطويل] (17) :

- 20- أَصِيْبُوا ، وَكَانُوا فِي الْعِبَادَةِ أَسْوَةً شُبَّانِيَا وَشَيْبَا بِالْعَوَاشِي الْعَوَاشِمِ

والعزاء الوحيد الذي قد يهون ما في نفوس المسلمين من وجد على إخوانهم ، هو ما ينتظر هؤلاء الشهداء من جزاء عند ربهم (18) .

- 7- نَسَافُوا كُؤُوسَ الْمَوْتِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى فَمَالَتْ بِهِمْ مَيْلَ الْغُصُونِ التَّوَاعِمِ
6- هُمُ الْقَوْمُ رَاحُوا لِلشَّهَادَةِ وَاعْتَدُوا وَمَالَهُمْ فِي قُوزِهِمْ مِنْ مُقَاوِمِ

3 - اللجوء إلى التصارى :

لما قرّر المأمون الموحدي الانتقال من إشبيلية إلى مراكش سنة 1229/626 م ، انحصر الصراع في الأندلس في مرحلة أولى بين ابن هود من جهة وولاء الموحدين من جهة أخرى . وازدادت الأمور تعقّنا عندما نجم ناثر آخر من شرقي الأندلس وهو أبو جميل زيان بن أبي الحملات بن مردنيش ، وقام بطرد والي بلنسية من الموحدين وهو أبو زيد فاضطرّ هذا الأخير ، وقد انهارت السلطنة الموحدية أو كادت بالأندلس ، إلى الالتحاق بالتصارى وكان معه كاتبه ابن الأبار . ويبدو أنّ هذا الوالي وحاشيته لم يتمكنوا ، وقد أجبروا على الخروج من ديارهم ، أن يصطحبوا معهم كلّ أهلهم وذويهم . فكان ذلك ممّا زاد في ألم المحنة ووطأة الغربة . قال الشاعر [البيط] (19) :

- 1- الْحُمْدُ لِلَّهِ لَا أَفْلَ وَلَا وَلَدُ وَلَا قَرَارَ وَلَا صَرَّ وَلَا جَلَدُ
2- كَانَ الزَّمَانُ نَا سَبْلَنَا إِلَى أُمْدٍ فَعَادَ خَرْبَنَا نَا لَمَّا انْقَضَى الْأَمْدُ

(17) د.ص 277 .

(18) د.ص 276 .

(19) د.ص 178 .

وما إن وصل ابن الأبار إلى مملكة أراغون مع سيده حتى ندم ، وبدأ حنينه إلى الأهل والوطن يُنغصّ عليه حياته في بلاد النصارى قال [الوافر] (20) :

- 1- إِلَى الْإِلَفِّينِ مِنْ أَهْلِي وَدَارِ تَأْوِينِي أَشْيَا قِي وَأَذْكَارِي
- 2- وَحَنْ الْقَسْبِ أَغْشَارًا إِلَيْهَا حِينِ الزَّالِمَاتِ مِنَ الْعِشَارِ

وقوي هذا الحنين في نفس الشاعر واشتدّ ، وبات ابن الأبار يشعر بغربة جسدية وهو البعيد عن الوطن والأهل ، وروحية وهو المسلم بين النصارى ، حتى أنّ إقامته في تلك الربوع أصبحت بمثابة الأسر والسجن له . قال [الكامل] (21) :

- 1- غَلَبَتْ عَلَيَّ يُعْذِكُكُمْ أَشْجَائِي وَجَفَا الْكَرَى مِنْ يُعْذِكُكُمْ أَخْفَائِي
- 5- أُسْرٌ وَفَسْرٌ لَا قَرَارَ عَلَيْهِمَا وَتَقَرُّبٌ عَنْ أَسْرَتِي وَمَكَائِي
- 4- لَوْ أَنَّ تَهْلَاكَ تَحْمِلَ بَعْضَ مَا حَمَلْتُهُ خَسِرْتُ ذَرَى تَهْلَاكِ

ولمّا قرّر ابن الأبار مغادرة مملكة أراغون والانتقال إلى أرض الإسلام لم يتّجه مباشرة إلى بلنسية كما تُوهم بذلك المصادر التاريخية ، وإنّما اتّجه إلى شاطبة وبها أبو الحسين يحيى الخزرجي . وكان يحكم هذه المدينة باسم ابن هود ، كما كان في عداً مع حاكم بلنسية ابن مردنيش الذي افتكّ منه مدينة دانية .

ويبدو من خلال ديوان ابن الأبار أنّ والي شاطبة هو الذي شجّع ابن الأبار على الانتقال من بلاد أراغون إلى شاطبة . قال الشاعر [الوافر] (22) :

- 14- أَمَا أَنَّ اللَّيَالِي غَالِيَاتٍ وَلَوْ يُعْزَى بِتَضْرِي الْفَرْقَدَانِ
- 15- إِذَا لَمْ أَلْقَهَا بِعَلَى ابْنِ عَيْسَى وَحَسْبِي مِنْ حُسَامٍ أَوْ سِنَانِ
- 16- فَلَسْتُ مِنَ الْإِبَابِ عَلَى يَقِينٍ وَلَسْتُ مِنَ الدُّهَابِ عَلَى أَمَانِ
- 17- فَإِنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ يَسْأَلُ مِنْهَا مَسْأَلُ الدُّغْرِ فِي قَلْبِ الْجَبَانِ
- 18- لِيُنْهِيَهَا مَتَى تَهْدَتْ لِخُرْبِي وَيَأْخُذْ لِي الْأَمَانَ مِنَ الزَّمَانِ
- 19- وَعَلِمْتُ أَنَا الْحُسَيْنِ عَنَاهُ أَمْرِي فَأَنْسِي أَمْرَ خِدْمَتِهِ عَنَائِي
- 38- وَمِنْ سَلَكِ رَقَى سُوْدُدُهُ لِيُنْجِلِي فَأَجْنَى رَاحَتِي شَمَّ الْأَمَانِي
- 39- وَرَأْسَ جَنَاحِي الْمَقْصُوصِ ظَلَمًا وَأَسَانِي الْأَجْبَةِ وَالْمَغَانِي

(20) د/ص 199.

(21) د/ص 327.

(22) د/ص 324 - 325.

ويبدو أنَّ الشاعر تعرّض إلى السلب وهو في طريقه إلى شاطبة . وهذا أمر ليس بالغريب في منطقة شرقي الأندلس وفي مثل تلك الظروف العصية التي اختلط فيها الحابل بالتابل . قال الشاعر يصف حاله وهو كالأسير في بلاط التصارى ، ويندب حظه وهو سلب في طريقه إلى شاطبة [الكامل] (23) :

- 7- وَكَفَّاكَ أَنَّ الرُّومَ كَانَتْ جِيرَتِي مِنْ جَوْرِ دَهْرِي وَاسْتَحَالَةَ حَالِي
8- كُنْتُ الطَّلِيْقَ هُنَاكَ لَكِنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ شِدَّةِ الْحَسَرَاتِ فِي أَغْلَالِ
9- أَبْكِي عَلَى اسْتِفْصَالِ مَنْ خَلَقْتُهُ وَأَطْيَلُ فِي الْأَشْكَارِ وَالْآصَالِ
10- حَتَّى إِذَا فَارَقْتُ أَرْضَهُمُ الْبُيْ كَانَتْ عَقَالًا نَائِيًا كَعْقَالِي
11- وَدَعَانِي الشُّوقُ الْمُذِيبَ جَوَانِحِي لِمَنَازِلِي فَأَجِثْتُهُ وَجَلَّالِي
12- لِأَقْبَى بِي الْجَدُّ الْعُثُورُ عَصَابَةً ذَهَبَتْ بِمَا لِي كَنِي يَسُوءُ مَا لِي
13- فَاسْتَأْنَفْتُ نَفْسِي بِحُكْمِ شَقَائِهَا خَوْضًا لِأَهْوَالِ عَلَى أَهْوَالِ

ويبدو أنَّ ابن الأبار ترك شاطبة بعد وفاة الخرجي في شعبان 1237/634 وقصد بلنسية . وعُليه لينال حظوة لدى ابن مردنيش أن يتنصّل من مخدميه أبي زيد الموحدى وأبي الحسين الخرجي وأن يُشيد بالدعوة العباسية التي انضوى تحت رايته السّوداء ابن مردنيش . قال يخاطبه [الطويل] (24) :

- 1- تُضَاضِلُ عَنِ دِينِ الْهُدَى وَتُدَافِعُ كَأَنَّكَ فِي الْهَيْجَاءِ أُبُوكَ (مُدَافِعُ)
20- يَسُرُّ نَبِيَّ الْعَبَّاسِ خَلْعُكَ مَنْ عَدَا لِدَعْوَتِهِمْ مِنْ قَبْلِهَا وَهُوَ خَالِعُ
35- لِرَأْيِهِ السُّودَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ قِيَامَ بِنَضْرِ الْحَقِّ أَبْيَضُ نَاصِعُ
39- أَمِيرُ الْعُلَى أَرْجُو وَمِثْلُكَ سَامِعُ أَمِيرُ الْعُلَى أَدْعُو وَمِثْلُكَ سَامِعُ

وتعرّض ابن الأبار سواء في شاطبة أو بلنسية إلى اللوم ، إذ رأى بعضهم في خروجه إلى أرض الرّوم منقصة ، فقال يردّ عليهم مبينا أنَّ خروجه هو ضرب من الوفاء لمخدومه ، وأنّ ذلك لم يمسّ في شيء دينه ومعتقده . وذهب في الدّفاع عن نفسه إلى أنّه في خروجه إلى أرض الرّوم يشبه الصحابة من قريش الذين هاجروا إلى الحبشة .

(23) د/ص 250.

(24) د/ص 359 ، 1 - 360.

وابن الأبار يبلغ في قياسه لأن هؤلاء الصحابة هاجروا من أجل عقيدتهم مضطرين بينما التجأ هو من أرض الإسلام إلى أرض الكفر باختياره . قال ابن الأبار [البيوط] (25) :

- 1- قَالُوا : الْخُرُوجُ لِأَرْضِ الرُّومِ مُنْقَصَةٌ قُلْتُ : كَلَّا وَلَكِنْ صَادَهَا بَاءُ
- 2- إِذَا خَرَجْتُ وَفَاءٌ ثُمَّ عُذْتُ تُقَى أَتَيْتُ بِفِعْلِي عُذَاتِي وَالْأَجَاءُ
- 3- وَكَانَ لِي فِي قُرَيْشٍ أَسْوَةٌ وَكَفَى مَعَ النَّجَاشِيِّ تَرْضَاهَا الْأَبَاءُ

4 — سقوط بلنسية :

لقد فتحت هزيمة أنيشة الطريق أمام خايمي الأول ملك أراجون ليحقق أمنية طالما راودته ، وهي الاستيلاء على عاصمة شرقي الأندلس بلنسية . وكانت هذه المدينة ، بعد أن سقطت كل الحصون التي كانت بمثابة الدرع الواقى لها ، قد أصبحت تُعجّ بالآلاف المتساكنين من أهلها ومن قر تحت ضغط الزحف التصرائني من أرباضها وقراها .

وبدأ خايمي الأول حصار بلنسية في 5 رمضان 21/635 1138 أبريل بعد أن وصلت إليه الحشود التصرائنية من جهات متعددة براً وبحراً .

لقد أثرت معركة أنيشة وما سبقها من أحداث في معنويات سكان بلنسية فلما وقع حصارها ثم سقوطها لم يكن ذلك — في نظر ابن الأبار — ناتجاً عن قوة خارقة للعدو فقط ، وإنما كان كذلك نتيجة لانتهيار معنويات أهلها أدى إلى شبه فراغ عسكري أشار إليه الشاعر [البيوط] (26) :

- 22- خَلَّالَهُ الْجَوُّ فَأَمْسَدَتْ يَسَدَاهُ إِلَى إِذْكَ مَالَمْ تَطَأْ رِجْلَاهُ مُخْتَلِسًا
- 23- وَأَكْثَرَ الرُّغْمِ بِالتَّلَيْسِ مُنْفَرِدًا وَلَوْ رَأَى زَايَةَ التَّوْجِيهِدِ مَسَائِلَسًا

لقد أدرك التصاري نقطة الضعف هذه ، وهم يحاصرون بلنسية ، فأمعنوا على مرأى ومسمع من أهلها في إتلاف ما تأتقوا سنين طويلة في إقامته من حدائق ورياض خارجها . وعمدوا إلى الآلات المخربة بصوبونها على ما تفتن البلنسيون مدة في إشادته من معال

(25) د/ص 55.

(26) د/ص 397.

عُمُرَانِيَّةٌ دَاخِلُهَا . قَالَ ابْنُ الْأَثَارِ يَصِفُ بَدَايَةَ هَذَا الْحَصَارِ وَمَا لَحِقَ الْمَدِينَةَ الْمُحَاصَرَةَ
مِنْ أَضْرَارِ [البسيط] (27) :

- 14- وَأَرْبَعًا ثَمَنَتْ أَيْدِي الرِّبَيعِ لَهَا مَا شِئْتَ مِنْ خَلْعٍ مُوشِيَةٍ وَكُنِي
15- كَانَتْ خَذَائِقُ لِلْأَخْدَاقِ مُؤَيَّنَةً فَصُوحُ السُّطُرِ مِنْ أَذْوَاحِهَا وَعَسَا
16- وَخَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنْظَرٍ عَجِيبٍ يَسْتَجِلِسُ الرُّكْبُ أَوْ يَسْتَرْكِبُ الْجُلُسَا
17- سَرَّعَانَ مَا غَاثَ جَيْشُ الْكُفْرِ وَآخَرَبَا غَيْثَ الذُّبَى فِي مَغَابِهَا الَّتِي كَسَبَا
18- وَاتَّزُّرَتْهَا مِمَّا تُحِيفُهَا تُخِيفُ الْأَسَدَ الْقَارِي لِمَا اقْتَرَسَا
19- فَأَيْسَ غَيْشٍ جَنَيْتَاهُ بِهَا خَضِرَا وَأَيْسَ غُصْنٍ جَلْبَتَاهُ بِهَا سَلَا
20- مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغَ أَيْحَ لَهَا مَا نَامَ عَنْ هَضْبِهَا جَيْنَا وَلَا نَعْمَا
21- وَرَجَّ أَرْجَاءَهَا لِمَا أَخَاطَ بِهَا فَعَادَرَ الشَّمَّ مِنْ أَعْلَامِهَا حُكْمَا
10- وَصَيَّرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَابِثَاتُ بِهَا يَسْتَوْجِشُ الطُّرُفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أُنْسَا

ولم يجد البلنسيون ، وقد ضيق النصارى عليهم الحصار براً وبحراً ، من وسيلة
للخلاص إلا الاستنجاد . واتجهت الأنظار في تلك الآونة إلى الدولة الحفصية بقونس ،
بعد أن خبا كل أمل في دولة الموحدين بمراكش . ووصلت سفارة من أمير بلنسية
أبي زيّان إلى أبي زكريّا الحفصي يقودها ابن الأثار . فبلغ هذا الكاتب الأندلسي بيعة
شرقي الأندلس إلى الأمير الحفصي وأنشده سبنيته المشهورة بحثه فيها على إدراك بلنسية
وقد أخذ بمخنفها العدو . وكان أهم وتر عرف عليه ابن الأثار لحن الاستغاثه ، الوتر
الذي بني . فهو على يقين من أن الدولة الحفصية الفتية تنوف إلى أن تحل محل الدولة
الموحدية المحتضرة في دورها الدفاعي عن الإسلام والمسلمين . فيها قد حانت الفرصة
لها لتبرهن على أنها قادرة ، عن جدارة ، على القيام بهذا الدور . فالإسلام في الأندلس
بمبادئه ومعالمه أصبح مهدداً . [البسيط] (28) :

- 12- يَا لَلْمَسَاجِدِ غَاذَتْ لِلْعَدَى بَيْعًا وَلِلنَّذَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا
13- لَهْفِي غَلْبَهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَأَيْتِنَهَا مَذَارِسًا لِلْمَغَانِي أَصْبَحَتْ دُرْسَا

(27) د/ص 7 - 396.

(28) المَقْرِي : ن / 4 / 457 - د/ص 396 . (ن = نفع الطَّب) .

وقد تأثر الأمير أبو زكريا لفحص ابن الأبار ، وبادر بتجهيز بعض قطع من الأسطول الحفصي . وشحنها بالسلاح والأطعمة والكسب والأموال وخرجت في اتجاه بلنسية . قال ابن الأبار وكله أمل في كسر شوكة العدو [الوافر] (29) :

- 1- ظهيراك التوكّل والتمضاء فغنى الكفر أن له انقضاء
34- هنيئا عام إقبال جديد يئس طلوعه غم الهناء
35- وإعداد لغزو الشرك تركو يئس المئونة والجزاء
41- فليثلب وثن واتضاع وللتوجيه أيد وارتضاء

لكن هذه الإعانة لم تصل إلى المدينة نظرا إلى مناعة الحصار المضروب حولها من كل الجهات وانتهى بها الأمر إلى أن أفرغت حمولتها في ثغر دانية بعيدا عن أرض المعركة .

ولم تستطع بلنسية ، بعد حوالي 7 أشهر من الحصار ، الاستمرار في المقاومة وقد نظمت أو تكاد مواردها الغذائية ، فبدأت المفاوضات مع ملك أراجون لتسليم المدينة صلحا على أن يؤمن أهلها في أنفسهم . وبعد أن ضبط نص وثيقة الاستسلام دخل خايمي الأول بلنسية دخول الفاتحين متوجا بأكاليل الغار في 27 صفر 636/9 أكتوبر 1238 .

وهذه النكبة في هولها وشدتها كريح عاتية عصفت بكل نفس فتركتها ترسل الآهات توجعا وتفجعا . قال ابن الأبار [السيط] (30) :

- 3- كزغزع الريح صك الدوخ عاصفها فلم يدغ من حنى فيها ولا غصن
14- وأها وأها يمرت الصبر بينهما موت المحامد يئس البخل والجبن

(29) د/ص 46 ، 9 - 48 .

(30) د/ص 1 - 320 .

لقد تسلط الأعداء، بتغلبهم، على مقدساتها فدتسوها، وبربريتهم، على معالمها الحضارية فخرّبوها، وبوحشيتهم، على بهجة الحياة فتعصوها. قال الشاعر [الكامل] (31):

- 20- بِأَيِّ مَدَارِسُ كَالطَّلُولِ دَوَارِسُ تَسَحَّتْ نَوَاقِيسُ الصَّلَيبِ نِدَاءَهَا
21- وَمَصَانِعُ كَسَفِ الضَّلَالِ صَبَاحَهَا فَبِخَالِهِ الرَّائِي إِلَيْهِ مَسَاءَهَا
22- رَاخَتْ بِهَا الْوَرَقَاءُ تُسْمِعُ شَذْوَهَا وَعَدَتْ تُرْجِعُ نَوْحَهَا وَبُكَاءَهَا
26- أَمَّا الْمُلُوجُ فَقَدْ أَحَالُوا خَالَهَا فَمَنِ الْمُطِيقُ عِلَاجَهَا وَشِفَاءَهَا
27- أَهْوَى إِلَيْهَا بِالْمَكَارِهِ جَارِحُ لِلْكَفْرِ كَرَّةً مَاءَهَا وَهَوَاءَهَا

والشاعر، لئن ألح على وصف فسوة التصارى في حصارهم للمدينة، فقد أشار إلى تأهبهم للقتال واستعدادهم ونوره بشجاعتهم وتفاينهم في المعركة. ولاح باللائمة على قومه. فقد أخطؤوا التقدير ونهاونوا، وكفروا بالنعمة وبطروا. قال ابن الأبار في قصيدة مطلعها [البسيط] (32):

- 1- وَطَنٌ عَلَى الدَّائِبِينَ: الدَّمْعُ وَالشُّحْنُ يَا تَادِبَ الدَّاهِيَيْنِ: الْأَهْلُ وَالْوَطَنُ
ثم أضاف واصفا التصارى لائما قومه:

- 10- زُرْقًا أَسْتَبَّهَ مِنْ جَنْسِ أُغْيَبِهِمْ مُشْتَقَّةً مِنْ قِتَالِ الْقِرْصِ وَالسُّنَنِ
11- قَدْ أَلَسُوا خَيْلَهُمْ أَمْثَالَ مَا أَدْرَعُوا وَاسْتَقْبَلُونَا حُصُونًا فِي ذَرَى حُصَى
12- هُمْ أَخْرَجُونَا مِنَ الْأُوطَانِ عَنْ حَقِيقِ وَزَخْرُحُونَا عَنِ الْجِيرَانِ مِنْ ضَعْفِ
13- فَكَمْ لَقِينَا عَلَى الْأَمْصَارِ مِنْ قَتْدِ وَكَمْ تَرَكْنَا لَدَى الْكُفَّارِ مِنْ قَتْدِ
17- أَيْحَ لِلرُّومِ مَا وَفَى مَرَامِيَهُمْ فِيهَا يُؤْنَا بِطُولِ الْقَبَنِ وَالْقَبَسِ

(31) د/ص 5 - 34

(32) د/ص 1 - 320

وبلنسية عند هذا الشاعر جنة الخلد . ومن غرائب الأمور أن أصبحت الجنة — وهي مأوى المؤمنين — مرتعا لأهل النار من الضالين [الكامل] (33) :

23— عَجَبًا لِأَهْلِ النَّارِ حَلُّوا جَنَّةَ مِنْهَا ثُمَّ عَلَيْهِمْ أَقْيَاءُهَا

24— أُمِلْتُ لَهُمْ ، فَتَعَجَّلُوا مَا أُمِلُوا أَيَّامُهُمْ ، لَا سَوْغًا إِلَّا مَلَأَهَا

وكما خرج منها الإيمان ورحل ، ودخلها الكفر وثوى ، أصبح معروفها منكرا وقولها زورا وتقواها زيفا [الرميل] (34):

14— يَا لَسَاخَاتِ نَوَاهِسِ الْعِدَى قَبْذَا الْمَغْرُوفِ مِنْهَا مُنْكَرًا

15— رَاحَ مَنْ آمَنَ عَنْهَا رَاحِلًا وَعَظَا يَخْتَلُهَا مَنْ كَفَرَ

16— فَفَسَّرَ الشَّرْكَ عَلَيْهَا فَمَهُ لَيْتَهُ الْقِسْمَ فِيهَا الْخَجَرَا

وأصبحت المدينة في أعماق نفس الشاعر موطن المتناقضات ، فهي محل الماء ومصدر العطش ومثوي الحب والكره ، ومكان الأُنس والوحشة [الطويل] (35) :

1— بَلَنَسِيَّةٌ يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ وَالْحَنَى سَقَيْتِ وَإِنْ أَشْقَيْتِ صَوَّبَ الرَّوَاجِسِ

2— أَجِبْ وَأَقْلَسِي مِنْكَ خَالًا وَمَاضِيًا بِمُوجِشَةٍ مَوْتًا بِعَهْدِ الْأَوَاسِ

3— وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الدَّيَّارَ أَوَاهِلَ وَأُنْذِبُهَا نَذْبَ الطُّلُولِ السَّدَوَاسِ

ويغلب اليأس على النفس ، وهي غارقة في بحر أحزانها ، فلم تعد ترى إلا حقيقة واحدة مرة ولكن لا مفر من الإصداع بها : وهي أَنَّ مَا ضَاعَ مِنَ الْمَكَاسِبِ بِسُقُوطِ بَلَنَسِيَّةٍ يَصْعَبُ اسْتِرْجَاعُهُ . قال ابن الأَثير [كامل] (36) :

16— إِيْهِ بَلَنَسِيَّةٌ وَفِي ذِكْرَاكِ مَا يُنْزِي الشُّوُونَ دِمَاءَهَا لِأَمَاءَهَا

17— كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى اخْتِلَالِ مَعَاهِدِ شُبِّ الْأَعَاجِمِ دُونَهَا فَيَجَاءَهَا

(33) د/ص 5 — 34

(34) د/ص 186 .

(35) د/ص 400 .

(36) د/ص 34 .

ويضطر الشاعر إلى الرحيل نهائياً عن بلنسية بعد سقوطها وليس له من أهل إلا ما سيجده لدى حاكم تونس الحفصي من أمن وإكرام ويُعد بهما أو شعر وهو يمدح أنه سيحيوه بهما ، لو استقر بكنفه وحل بجواره . قال الشاعر يصف البحر الذي ركبته مع عائلته [الطويل] (37) :

- 33- أَلَا حَيْدًا فَلْكَ مَوَاجِرُ زَاخَمَتْ غَوَارِبَ طَامٍ لَا يُنْهَنُ طَامِخٍ
34- جَرَتْ فَوْقَ مَوْجٍ كَالْجِبَالِ تَنَازَحَتْ فَكَيْفَ نَجَتْ مِنْ تَوَجُّهِهَا الْمُتَنَازِحِ

ويعاني الشاعر في هذه الرحلة ألم الفراق لوطن محبوب ومشقة السفر في بحر مخيف مع عائلة عديد أفرادها شديد عبثها . [الطويل] (38) :

- 27- صَمًا لِلْمَعَالِي مِنْهُ (39) عَائِلٌ صَبِيَّةٌ حَشَائِيَاهُمْ طَيِّ السَّحَنَاءِ وَالْجَوَانِحِ
28- يُصَابِرُ ضَرَاءَ النَّسَوَائِبِ وَالنَّسَوَى وَتَطْوِي عَلَيْهَا الْكَشْعَ خَيْفَةً كَاشِحِ
29- قَوَارِيرُ (40) لَمْ يَرُبَا بِهَا الْبَحْرُ سَابِقًا وَلَا ذَاذَ غَنَاهَا الْبَرُّ حَمْلَ الْفَوَادِحِ
30- تَكَادَ عَلَيْهَا النَّفْسُ تَذْهَبُ حَسْرَةً إِذَا لَمَحَتْهَا الْعَيْنُ وَسَطَ الضَّحَاضِحِ (41)

ويغلب شعور الأتوة على ابن الأبار فينسى قليلا وطنه ويتركز شعوره على أبنائه وما يحيط بهم من أخطار [الطويل] (42) :

- 37- يَجِسُّ حَنَانِي رَقَّةً لِأَجْنِيَّةٍ ثَوْتُ فِي بَطُونِ الْمُنَشَّاتِ السَّوَابِحِ
38- وَتَطْوِي عَلَى نَارِ التَّلْهِبِ أَضْلَعِي وَحَامِي الْجَوَى مِنْ حَائِمَاتِ الْجَوَانِحِ
39- مُتَاحٌ مِنَ الْأَقْدَارِ مَرْقٌ شَمَلَهَا بِكَسْحٍ مُغِيرٍ أَوْ إغَارَةٍ كَاسِحِ

(37) د/ص 125.

(38) د/ص 5 — 124

(39) الضمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء

(40) بناته

(41) البحر

(42) د/ص 125.

ويستقرّ الشاعر بإفريقية ويعيش من قريب أجواء البلاط الحفصي ، ويعاوده الحنين إلى وطنه البعيد ويحاول إخفاء مشاعره فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا [الخفيف] (43) :

- 3- زَامَ أَنْ يُخْفِيَ الْغَرَامَ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ إِسْدَاءِ حَايِهِ بُدَاً
6- يَا سَقَى اللَّهِ لِلرُّصَافَةِ غَهْدًا كَنَسِيمِ الصَّبَا يَرْقُ وَيَنْدَى
9- لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرْجِعُ الدَّهْرُ غَيْثًا يَشْهَدُ الطَّيِّبُ أَنَّهُ كَانَ شَهْدًا
14- وَالثَّرِيَّا بِحَايِبِ الْبَذْرِ تُخَكِّي رَاخَةً أَوْ مَسَاتٍ لِقَلْطِمٍ غَدَاً

ويحلّ الشاعر خاصة إلى الرصافة ببغليّة وهو المكان الذي قضى فيه سنين شبابه . لكن أتى الوصول إليه والعدوّ به مقيم ورايض [الكامل] (44) :

- 1- مَا لِلْهَوَى إِلَّا الرُّصَافَةَ مَارَبُ بَعْدَ الْغَدِيرِ فَكَيْفَ يَصْنُفِرُ مَشْرَبُ ؟
44- وَأَخَفُ مَا حُمِلْتُ مِنْ عِبَاءِ الْهَوَى أَنْ أَسْتَرِيحَ إِلَى مَطَامِعِ تَشْعِبُ
45- يَا مَنْزِلًا كَانَ الْخِفَاطُ يُجْلُهُ وَالْجُودُ بِالضِّيقَانِ فِيهِ يُرْحَبُ
46- أَهْوَى حُلُولِكَ ثُمَّ يَسْلُبْنِي الْهَوَى أَنْ أَعْلُوَ بِحَايِسُكَ مُطْلَبُ
47- أَصْبَحْتُ فِيكَ مُعَذَّلًا وَمُعَذَّبًا وَكَذَا الْمُحِبُّ مُعَذَّلٌ وَمُعَذَّبُ (45)

ويخلق هذا التمزّق النفسي حالة مرضيّة لدى الشاعر . فهو عاجز عن النسيان وغير قادر على الرجوع [الوافر] (46) :

- 1- إِلَى أَوْطَانِهِ حَنَّ الْعَبِيدُ قَطَّلَ كَأَنَّهُ غُصْنٌ يَمِيدُ
2- وَمَسْقَطُ رَأْيِهِ ذَكَرَ اشْتِيَاقًا قَذَابَ فُؤَادِهِ وَهُوَ الْحَدِيدُ
3- وَلَسَوْدَامَ السُّلُوكُ أَبَتْ عَلَيْهِ مَعَاهِدُ . غَهْدَهَا الْمَاضِي حَمِيدُ

(43) د/ص 175 .

(44) د/ص 59 ، 3 - 62

(45) د/ص 66

(46) د/ص 177

وأشد ما يؤلم الشاعر هو ضياع الدين بضياع الوطن . لقد كان لهذا الدين في بلنسية وغيرها من أرض الأندلس من يحميها وينصرها كالحاجب القوي المنصور بن أبي عامر . لكن ما إن ذهب منصور الإسلام حتى زحف سفاح التصاري . قال [الكامل]⁽⁴⁷⁾ :

7- قَدْ أَسْلِمَ الْإِسْلَامُ فِيهِ إِلَى الْعَدَى فَاسَاءَ بَرْخٌ لَا يَتَّاحُ بَرَاخُهُ

8- لَمَّا حَجَّبَ فِي الثَّوَى مَنْصُورُهُ أَلْحَى عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ سَفَاخُهُ

ولم يبق للشاعر وقد غلب اليأس وأطبق القنوط إلا البكاء على وطن ضاع إلى الأبد [الوافر]⁽⁴⁸⁾ :

7- يَنْشُ عَنْ أَهْلِي تَرْوِجِي وَيَغْلِيْزِي أَلْسِي وَطَنِي تَرْوِجِي

8- فَكَمْ أَبْكِي الذِّبَارَ وَسَاكِينَهَا بِطَرْفِ مُنْعَبِدٍ وَدَمٍ مُتَوَرِّجٍ

5 - سقوط إشبيلية :

لقد أصبح الموقف في غربي الأندلس على درجة كبيرة من الخطورة في بداية العقد الرابع من القرن 13/7 بعد سقوط كامل شرقي الأندلس بيد أراجون . فملك قشتالة سيعمل على أن يظهر بأنه لا يقل حماساً عن ملك أراجون في حركة الاسترجاع المسيحية . ولهذا ما فتئ يتطلع بنظره إلى إشبيلية عاصمة الموحدين بالأندلس بعد أن استولى على قرطبة عاصمة الخلافة الأموية بها .

وكان الوضع الداخلي بإشبيلية عاملاً مشجعاً لهذا الملك التصراني على تحقيق ما تصبو إليه نفسه ، نتيجة للصراعات الداخلية المتتالية بها . وكان سكان إشبيلية على يقين أن دورهم في حركة الاسترجاع التصراني سيأتي ، وكانوا مقتنعين بأن مدينتهم لا تستطيع أن تقف بمفردها لمواجهة الخطر التصراني ، ولهذا وقع الاستجداد بالدولة

(47) د/ص 131.

(48) د/ص 365.

الموحديّة بعد الرجوع إلى طاعتها سنة 1237/635 . ولما رأوا ضعف هذه الدولة انضوا تحت لواء الدولة الحفصية آملين أن تصلهم التّجدة من لدنها .

ولقد تسبّب وصول الوالي الحفصي الذي أرسله أبو زكريا إلى إشبيلية في فتنة أدّت إلى مقتل ابن الجدّ حاكم المدينة ، فاتّخذ فرديناند الثالث ملك قشتالة ذلك ذريعة لغزو المدينة . وبدأ في أوائل 1246/644 بالهجوم على قواعدها الأمامية ، ثم عاد إليها في سنة 1247/645 وحاصرها براً وبحراً . وفي يوم الإثنين 5 شعبان 646/23 نوفمبر 1248 وقع الاتفاق على تسليم المدينة على أن يغادرها أهلها في ظرف شهر .

ووصلت هذه الأنباء المؤلمة إلى البلاط الحفصي ، لقد افكتّت المدينة وهي خاضعة — ولو إسمياً — إلى الحفصيين . فهل يعتبر هذا من باب الاعتداء عليهم ؟

إن قصيدة مدحية في ديوان ابن الأبار توحى بأنّ حكام تونس أصبحوا على يقين بوجوب العبور إلى الأندلس للقيام بواجب الجهاد . فالأندلس تعيش في ظروف شبيهة بما عاشته مع ملوك الطوائف قبيل الزلاّقة . وتعيش في مناخ عسكري شبيه بما كانت عليه قبيل عبور عبد المؤمن بن علي إليها . فالفرصة سانحة إذا لإعادة (أرك) ثانية وأخذ الثأر من (العقاب) والظهور بمظهر المنتقد للأندلس كما ظهر يوسف بن تاشفين بطل معركة الزلاّقة والمنصور الموحدي بطل معركة الأرك . قال ابن الأبار [المديد] (49) :

- | | |
|--|---|
| 1- أَذِنْتُ أَرْضُ الْعَدَى بِإِفْتِاحِ | هَلْ وَرَاءَ اللَّيْلِ غَيْرُ الصُّبْحِ |
| 5- إِنَّ لِلتَّوَجِيدِ عَزْماً صَاحِبِهَا | يُوسِعُ التَّلَاسِيتُ كَثْرَ الْخِتِاحِ |
| 6- وَيُسَاقِي الصُّفْرَ خُمْرَ الْمَنَاقِبِ | بِالصُّعَادِ السُّمْرِ أَوْ بِالصُّفْحِ |
| 7- وَعِدْتُ أَنْدَلُسَ مِنْهُ يَوْمٍ | هِيَ لِاسْتِقْبَالِهِ فِيهِ ارْتِيَاحِ |
| 8- كُلُّ أَرْمٍ قَبْلَهُ وَابْتِهَامِ | لَا تُفِرُّ رَاجٍ بَعْدَهُ وَاتِّصَاحِ |
| 9- إِنْ يَكُنْ عَيْداً لِنَحْرٍ وَذَبَحِ | كَيْفَ شَاءَتْ فَلْأَعَادِي أَضَاحِ |
| 10- بِالْفَسَادِ اغْتَمَدُوا كُلُّ صُنْعِ | وَعَلَى الْهَسَادِ مَعَادُ الصَّلَاحِ |
| 11- أَحْمَى حَمَصٍ أَبَاحُوا جَهَارَا | وَجَمَاهَا لَمْ يَكُنْ بِالْمِصَاحِ |
| 12- لَا وَيَخِي الْمُرْتَضَى . لَأَهْنَاهُمْ | بِأَيْمِ الْقَرْحِ وَرُذِّ الْقَرَّاحِ |
| 13- إِنْما يُرْقُبُ مِيقَاتِ قَتَحِ | هُوَ آتٍ فِي ضَمَانِ التَّجَاحِ |

إن العوامل المشجعة على العبور كثيرة وأهمها استتباب الأمن داخلياً ، وبه يكون المنفذ قد جمع بين الشرعية الزمنية بانتتمائه إلى عدي بن كعب جد عمر بن الخطاب ، والشرعية الآتية بقضائه على جميع الثورات والفتن . ولم يبق له إلا أن يحقق المجد عن طريق الجهاد في الأندلس . قال الشاعر [المديد] (50) :

32- هَذِهِ الْعُرْبُ اسْتَكَاثَتْ وَكَثَاثَتْ فِي الثَّعَاصِي مَثَلًا وَالْجَمَاحِ

36- ذَوْلَةٌ حَفْصِيَّةٌ فِي اقْتِبَالٍ وَعَلَى مَهْدِيَّةٍ فِي طَمَاحِ

37- مُتَتَهَاةً فِي عَدِيٍّ بَيْنِ كَعْبٍ وَذُرَاهَا فِي الْبُيُوتِ الصُّرَاحِ

ويشير الشاعر في ديوانه أن الأسطول الحفصي عبر فعلاً مضيق جبل طارق في محاولة لإنجاد أهل الأندلس عامة وأهل حمص خاصة . فهل تم فعلاً ذلك ؟ قال [المديد] (51) :

18- دَغَ اسَالِيبُ السَّيْبِ وَخُذَ فِي اسَاطِيرِ الْأَسَاطِيلِ

19- أُنْحَوَاتُ الْخَيْلِ سَابِكَةً ذَاتُ تَزْيِينٍ وَتَزْيِيلِ

22- لَا تَزَالُ الْعُجُمُ تُعْجِمُهَا طَيِّئُ تَعْجِيزٍ وَتَعْجِيلِ

24- خَلَقْتُ مُخْتَلَفَةً بِهِمْ شَرُّ تَخْلِيلٍ وَتَخْلِيلِ

25- وَسَلَّتْ بِخَيْرِ الْمَجَازِ بِمَا طَرِبَتْ كَالْثَّيْبِ لِلنَّيْلِ

26- عَزَمَهَا وَالسُّرُومُ بِالْعُدُوى تَبَنَّنَ تَجْدِيدًا وَتَجْدِيلِ

33- مَا أَلَوُ الْقُرْآنُ أَنْ صَدَّقُوا عَزَمَهُمْ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلِ

34- بِالْجَوَارِي الْمُنْشَاتِ لَهُمْ جَرِي تَبْيِيحٍ وَتَبْيِيلِ

39- خَالَقْتُ بِخَيْ خَلِيفَتُهُ حُسْنُ تَأْيِيحٍ وَتَأْيِيلِ

وبقي الشاعر يحنّ إلى إشبيلية بعد سقوطها ، كما بقي يحنّ إلى بلنسية مسقط رأسه دون قدرة على الرجوع إليهما كالطائر المقصوص الجناح لا قدرة له على الطيران . قال [الطويل] (52) :

20- يُسَائِلُ عَنْ تَجْدِيدِ صَبَاها مُعَاشِرَ وَأَسْأَلُ عَنْ حِمَصِ الثَّعَامِي وَأَسْتَفْصِي

21- وَلَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الْجَنَاحِ لَطَارَ بِهَا إِلَيْهَا وَلَكِنْ حَصَهُ النَّيْنُ بِالْقَصُ

(50) د/ص 121

(51) د/ص 4 - 233

(52) د/ص 331

6 — علاقته بأمراء الأندلس :

لا شك أن ابن الأتار ربط علاقات ودّ وصداقة مع كثير من الأمراء والوزراء بالأندلس فزيادة على من خدمهم بقلمه من حكام بلنسية وشاطبة ، كانت له مراسلات مع بعضهم الآخر . ومن هؤلاء هناك :

أ — أبو علي عمر بن أبي موسى والي جيان : وقد راسل الشاعر وهو بإفريقية عندما كان واليا على بجاية أو المهدية⁽⁵³⁾ . ومن هذه المراسلات ما كتبه مع تمر أهداه إلى ابن الأتار [الطويل]⁽⁵⁴⁾ :

1— أَتُنْكَ تَحْلِيَقَاتِ بِحُسْنِ الْخَلَائِقِ بِهَا غُنِيَّةٌ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْخَدَائِقِ
فأجابه ابن الأتار [الطويل]⁽⁵⁵⁾ :

1— أَمْوَلَايَ حَقُّ الْعَبْدِ تَقْرِيرُ عُذْرِهِ إِذَا هُوَ لَمْ يَلَقِ الْمُحْفُوقِ بِلَايِقِ
6— كَانَ الَّذِي تُهْدِيهِ مِنْ تَمَرٍهَا اغْتَدَى بِرِيقَةِ مَوْسُوقٍ وَرُقْسَةٍ وَامِيقِ
7— مَنَنْتَ بِهَا مَثْوَرَةً وَشَفَعْتَهَا بِمَنْظُومَةٍ كَالْعَبْدِ فِي تَحْرِيرِ عَاتِقِ
فرد أبو علي متيها بقطعة ابن الأتار هذه [الطويل]⁽⁵⁶⁾ :

1— أَتُتْ فَحَبَا مِنْ نَوْرِهَا نُورُ شَارِقِ وَلَا حَتَّ فَلَمْ يُلْمَخْ وَمِبيضُ لِسَارِقِ
2— وَجَاءَتْ مُوشَاةٌ مِنْ أَقْلَامِكَ الَّتِي بِرِيقَتِهَا رَأَتْ صِفَاخَ الْمَهَارِقِ
فأجابه ابن الأتار مشيدا بشعر أبي علي [طويل]⁽⁵⁷⁾ :

1— لِمَنْ كَلِمٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُتَسَابِقِ لَهَا فَضْلٌ مَوْصُوفَاتِهَا نِيسَارِقِ
4— يَجِيئُ بِهَا بَخَرٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّدَى حَبَا كُلِّ أَفْقٍ مِنْ حُلَاةٍ بِفَائِقِ

(53) تولى أبو علي هذا ولاية بجاية للدولة الحفصية ثم انتقل منها إلى المهدية في رجب 1240/638 (الحلة : 282/2) .

(54) المصدر السابق ص 285 .

(55) د/ص 4 — 453 .

(56) الحلة : 287 ص 2/2 .

(57) د/ص 454 .

ب — سعيد بن الحكم حاكم منورقة (58) : من الصعب القول إن ابن الأبار اتصل بهذا الأمير وهو بجزيته . والراجح أن الشاعر راسله وهو مقيم بإفريقية لما سمعه عن بلاطه الذي أصبح ملاذا لأدباء العصر وعلمائه بعد سقوط ميورقة ومنطقة شرقي الأندلس بيد أراغون . ونجد في ديوان ابن الأبار ثلاث مقطوعات مدحية في هذا الأمير الذي استطاع بحنكته أن يحتفظ بحكم هذه الجزيرة حوالي نصف قرن إلى أن توفي سنة 1272/680 . قال ابن الأبار مؤكدا على خصال ثحلى بها سعيد بن الحكم ، قل وجودها في ذلك الزمن [الخفيف] (59) :

- 1- سَبْدُ أَيْدِي رَيْسٍ يَيْسٍ فِي سَارِيهِ صِفَاتُ الصَّبَاحِ
- 2- قَمَرٌ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي تَجَلَّى وَتَحَلَّى بِالسُّودِ الْوَضَاحِ
- 3- سَلَّمَ الْبَحْرُ فِي السَّمَاحَةِ مِنْهُ لِحَوَادِ سَمُوهُ بَحْرُ السَّمَاحِ

وهي خصال سياسية بالدرجة الأولى مكنته من تجنب الغزو التصрани . وكان ذلك في تناول أيديهم [معجزو الرجز] (60) :

- 1- إِنْ سَعِيدٌ بَنَ الْحَكَمِ صَبُو الْعُلَى تَجَلَّى الْكُسْرَمِ
- 2- رَيْسَانَةٌ بِمِثْلِهِا يُفَاخِسُ السَّيْفُ الْقَلَمِ
- 3- وَسُودَدَ مَجْمُوعَةً فِيهِ مَحَاسِنُ الشَّيْئَمِ

ولئن كان ابن الأبار معجبا بخصال هذا الأمير ، فلا شك أنه كان ينتظر أن يصله منه بعض هباته ، خاصة وقد عاش في إفريقية — عندما كان مغضوبا عليه — فترات صعبة . قال مؤكدا على كرم سعيد بن الحكم [الوافر] (61) :

- 1- كَأَنَّ عُلَاكَ أَفْلَاكَ وَفُلَكَ بِأَرْزَاقِ الْبُرَيْسَةِ جَارِيَاتِ
- 2- كَأَنَّ هَبَاتَهَا مِنْ غَيْرِ وَغَدٍ تَنَائِجُ مَا لَهَا مِنْ مُقَدَّمَاتِ
- 3- وَفَتَاهَا اهْتَزَّ جَيْشُكَ تَحَوَّ جَيْشِ فَأَنْتَ سِنَائِسُهُ وَهُوَ الْقَنَاءُ

(58) هي إحدى الحزير الثلاثة من الجزائر الشرقية وهي : ميورقة ومنورقة ويابسة .

(59) د/ص 129 .

(60) د/ص 459 .

(61) المطرب ص 179 .

ويبدو أن هذا الأمير — وهو الأديب — بحبيب أحيانا ابن الأبار شعراء، فقال صاحب
الحلة رداً على إحدى مقطوعاته مؤكداً على حماية سعيد بن حكم لحزيرة منورقة بتأمين
العباد وفك الرقاب . قال [الكامل] (62) :

- 1- بَلِّغْ الْجَزِيرَةَ (63) أَتَيْتَ ثَوْبَهَا سَحَبٌ ثَالَ بِسَفْيِهَا ثَوْبَهَا
- 4- أَلَيْتَ أَبَا عَفْمَانِهَا (64) ذَا سِيرَةٍ غَمْرِيَّةٍ ثَوْبِهِ مَا يُولِيهَا
- 8- فَكُ الرِّقَابِ صَنَائِعُ مَا قَامَ لَمْ يَنْفَكْ يَأْبِيهَا كَمَا يُولِيهَا

7 — التحريض على الجهاد بالأندلس :

لقد أصبحت مشاعر ابن الأبار وأحاسيسه بعد سقوط بلنسية أو لا ثم إشبيلية ثانية مركزة في
وطنه السلب وأهله المشردين . وأدرك الشاعر ، وقد ساء مزاجه ، أن حكام العدو الإفريقية
قد تخلّوا عن هذا الوطن أو كادوا . لذا عليه واجب مقدس هو إذكاء جذوة الحمية في نفوس
هؤلاء الحكام لعلهم يقومون بما يفرضه عليهم واجب الأخوة والدين والجوار .

والشاعر نفسه وهو يحرض البلاط الحفصي على نجدة الأندلس ، بين يأس من التشيجة وأمل
فيها . قال وهو في الحالة الأولى مخاطباً أبا زكريا الحفصي [السيط] (65) :

- 1- أَذْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا إِنْ السَّيْلُ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا
- 2- وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
- 3- وَخَاشِ مِمَّا تُغَايِبُهُ خُشَايَتُهَا فَطَالَ مَا ذَاقَتِ الْبُلُوَى صَبَاحَ مَسَا
- 4- يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَرَزَا لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَسْعَا
- 7- تَقَاسَمَ السُّرُومُ لَا تَأْتِ مَقَاسِمُهُمْ إِلَّا، عَقَائِلُهَا الْمَحْجُوبَةُ الْأُسَا

(62) د/ص 462 .

(63) جزيرة منورقة .

(64) كنية سعيد بن حكم .

(65) د/ص 395 .

وفي الحالة الثانية قد يقوى الأمل في نفسه إلى درجة أنه يعتقد أن أهل الأندلس سيأتي يوم يأخذون فيه بثأرهم من التصاري بإعانة الحفصيّ . قال [الزمل] (66) :

- 16- إِنْ يَكُنْ طَاغِيَةُ الرُّومِ بَغَى فَظُلْمِي الْهَنْدِ لَهُ بِالْمَرْصِدِ
18- غَرَّهُ الْبُعْدُ وَعَنْ قُرْبِ بَرَى جِزْيَةُ الْكُفْرِ تُؤَدَّى عَنْ يَسِدِ
19- سَوْفَ تُغْشَاهُ الْجَوَارِي مَلُومًا مَلَا كَالْأَسَدِ ذَاتِ اللَّبِيدِ

ومن العناصر الأساسية في التحريض لدى ابن الأبار هو التأكيد على الحالة المزرية التي أصبح عليها أهل الأندلس وانعقاد أملهم الوحيد في أبي زكرياء وفي نجدة ومروءته . قال [الطويل] (67) :

- 19- وَيَا لِرِضَى أَرْضِ الْحَزْبَةِ بِالْذِي تَبِمَّهَا بُنْهَى لَهَا الْفُورُ بِالْأَقْطَا
20- فَأَنْدَلَسٌ قَدْ بَشَّرَتْ بِلِقَائِهِ تَرَقُّبٌ مِنْ تَلْقَائِهِ الْفُلْكَ وَالسُّفَا
21- لِنَصْرَتِهِ مَا أَشْرَفَتْ رَأْسِيَّاتُهَا وَمَا صَيَّرَتْ عَلَمًا يَقِينًا بِهَا الظُّنَا
22- لَعَلَّ يَلَادَا خَالَ بِالرُّومِ حُسْنُهَا يُعِيدُ عَلَيْهَا غَزْوَهُ الظَّافِرُ الْحُسْنَا
23- فَيَرْثِيهِ الْعَادِي بِهَا الْمَاءَ سَلْسَلًا وَيَغْتَبِسُ الصَّاحِي التَّيْسِمَ بِهَا لَذْنَا
24- وَعَانَ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ دِيَارُهَا بِمَا مُنِيتْ مِنْهُمْ قَدِيمًا وَمَا تُنْسَى
25- تُؤْمَلُ بِحَيِّ الْمُرْتَضَى لِحَيَاتِهَا وَتُرْجَوُ بِلِقَائِهِ الْإِقَالَةَ وَالْمَسَا

والأندلس ، في نهاية الأمر ، جزء من الدولة الحفصية بعد وصول بيعتها إليه . ويكفي المسدوح أن يأذن لبعض القبائل المتاصرة له من دباب وعوف حتى يغيروا واقع المعركة ويردّوا كيد العدو في نحره . قال ابن الأبار [الكامل] (68) :

- 4- هِيَ دَارُكَ الْقُصُوتَى أَوْثُ لِإِيَالِهِ صَبِثَتْ لَهَا مَعَ نَصْرِهَا إِيَوَاءُهَا
13- طَافَتْ بِطَائِفَةِ الْهُدَى أَمَالُهَا تُرْجَوُ بِحَيِّ الْمُرْتَضَى إِحْيَاءُهَا
30- مَوْلَايَ هَاكَ مُعَادَةُ أَنْبَاءُهَا (69)

(66) د/ص 152

(67) د/ص 298

(68) د/ص 33 - 34 - 35 - 36

(69) أي أن ما ذكره هنا كان قد قاله في قصيدته السبيّة .

- 35- ثَالِثُهُ لَوَدِدْتُ لَهَا (ذُبَابُهَا) لَطَوْتُ عَلَيْهَا أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا
 36- وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ (غَزُفَهَا) لِقَاتَهَا لاسْتَقْبَلْتُ بِالْمُقَرَّبَاتِ عَفَاءَهَا
 47- هَذِي رَسَائِلُهَا تُتَاجِسِي بِالْأُتَى وَقَفْتُ عَلَيْهَا رَيْثَهَا وَنَحَاءَهَا

وبلاد الأندلس تعودت من الممدوح هذه التجددة وتلك المروءة . فكم مرة نادته
 ولبي نداءها وحبها بالكثير من عنده [الطويل] (70) :

- 25- وَمِنْ قَبْلِ مَا اسْتَشْفَيْتُكَ أَنْدَلُسٌ فَلَمْ تُجِدْ جُودَكَ الْفَيَاضَ غَيْظًا وَلَا بُرْصًا (71)

والشاعر وهو يحرض على نصرة الأندلس وإنقاذها من براثن العدو يشير إلى اصطدام
 الأسطول الحفصي بالأساطيل التصراية . ولكن يغلب على الظن أن ما ذكره الشاعر
 من انتصارات لهذا الأسطول هو من باب ما يأمله ويرقبه لا من باب ما تم فأبهجه
 وأسعده . قال [الطويل] (72) :

- 42- مَتَرَابِحُهُ عَمُ الْأَعَادِي غَدُوَهَا بَوَارًا ، وَأَسْمَى السَّعْيِ مَا اتَّظَمَ الْبَرَّ
 43- سَمَتْ لِأَسَاطِيلِ النَّصَارَى قَهْقَرُوا لِقَصُوبِهَا مُسْتَقْبِلِينَ بِهَا الْفُجْرَا
 45- وَرَأَيْتُ لُيُوثَ الرُّومِ قُتْعًا كَوَاسِرَا فَمَا وَجَسُوا نَصْرًا وَلَا عُدِمُوا هَضْرَا
 46- أَرَأَيْتَ عَلَى الدُّمَائِ حُمُرَ دِمَائِهِمْ فَرَأَيْتَ شَقِيقًا فِي الْبَيْتِ فَجَحَ مُحْمَرَا

وهذا الأسطول بما حققه من انتصارات أخاف العدو ، فأرسل الوفود تطلب هدنة
 وسلمًا مع صاحبه ، فهل تم ذلك فعلا ؟ أو أن الشاعر يريد رفع معنويات ممدوحه
 بعد أن أرسل أسطوله لإعانة بالنسبة المحاصرة . قال ابن الأثير [الطويل] (73) :

- 60- وَهَذِي مُلُوكُ الرُّومِ تُشْخِصُ رُسُلَهَا بِسِلْمِكَ تُبْغِي لِلْمَلَأَمَةِ سُلْمَا
 61- بِطَاغِيَةِ الْكُفَّارِ أُبْرَحَ ذُلَّةً تُجَسُّمُهُ مِنْ حَمَلِهَا مَا تُخْشَمَا
 64- تُصَوِّرُ تُجَاهِمِزُ الْأَسَاطِيلُ نَحْوَهُ فَخَيْعَلُ بِالْمَنْجَاةِ مِنْهَا وَهَلَمَمَا

(70) د/ص 347 .

(71) البرص : الماء يسيل قليلا .

(72) د/ص 8 — 207 .

(73) د/ص 3 — 272 .

- 65 - وَأَفْصَحَ يَتْبَنِي خَاطِبًا فِي خِطَابِهِ وَمَا الْفُكْ ، لَوْلَا السِّيفُ أَغْجَمَ طِمْطِمًا
66 - فَهِيَ هُوَ إِنْ لَمْ يَخْطَ مِنْكَ بِذِمَّةٍ تَعْلَقُهُ ظَفَرُ الْمَنَابِإِ مُذْمَنًا
68 - سَيَّارِي بِرَأْسِ الْكَافِرِ الْكَافِرِ الَّذِي يَطْمُ عَلَيْهِ الْمُنَشَّاتُ إِذَا طَمَا

8 - بيعة مدن الأندلس لأبي زكريا :

هناك ثلاث عوامل رئيسية أدخلت الاضطراب والفوضى إلى الأندلس في التصف الأول من القرن 13/7 وخاصة بعد هزيمة العقاب :

1 - قرار المأمون الموحدي الانتقال من إشبيلية إلى مراكش وترك الأندلس لمصيرها .

2 - تناحر زعماء الأندلس فيما بينهم تارة ، وبينهم وبين من بقي من ولادة الموحدين أحياناً .

3 - التكالب النصراني بعد أن لاح جلياً الفراغ العسكري بضعف الدولة الموحدية ، وتناحر ثوار الأندلس .

وفي هذا الظرف العصيب ، كان كلٌّ نائر يحقق بعض الانتصارات يحاول أن يوطد نفوذه بإيجاد السند الشرعي له . فكانوا يعلنون ولاءهم الشكلي إلى إحدى الدول الآتية : الدولة العباسية البعيدة أو الدولة الموحدية المنهارة أو الدولة الحفصية الفتية . ولا شك أن هذه الأخيرة كانت أقدر من غيرها ، في نظر الأندلسيين ، على القيام بدور الحامي والمنقذ لبلادهم . لهذا كثيرا ما لجأت إليها بعض المدن الكبرى الأندلسية وأعلنت الانضواء تحت لوائها .

ويبدو أن شرقي الأندلس كان أسبق الجهات بالأندلس للدخول في طاعة الحفصيين آملا من ذلك خلاصا على أيديهم وقد تكالب نصارى أراغون عليه .

وعاش الشاعر هذه الفترة وترأس الوفد الذي أم حاضرة الحفصيين حاملا البيعة وطالبا التجدد . قال ابن الأبار معتبرا أن بلنسية عاصمة شرقي الأندلس هي جزء من بلاد الحفصيين [البسيط] (74) :

- 30 - هَذِي رَسَائِلُهَا تُدْعَوُكَ عَنْ كَتِّبِ وَأَنْتَ أَفْضَلُ مُرْجُو لِمَنْ يَسْبَا
60 - يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا غَلِيَاءُ تُوسِعُ أَغْدَاءَ الْهُدَى نَغْبَا

62- ضَهَرُ بِلَادِكَ مِنْهُمْ إِنْهُمْ نَجَسٌ وَلَا طَهَارَةَ مَا لَمْ تُغْسِلِ النَّجَسَا
63- وَالصَّرَّ غَبِيْدَا بِأَفْصَى شَرْفِهَا شَرَفَتْ غَيُّوْنُهُنَّ أَدْمُعَاتُهُنَّ زَكَا وَخَسَا

وخلال هذه الفترة بعث ابن الرِّمِّي بعد قتله لابن هود حاكم الأندلس سنة 1237/635 ببيعته لأبي زكرياء . فقال ابن الأَثَار [الطَوِيل] (75) :

1- أَوَائِلُ فَتَحِ مَا لَهْنُ أَوَاخِرُ نَرَامَتْ بِهَا جُزْدٌ وَفُلْكَ مَوَاخِرُ
9- نَعُوْدُ بِحَيِّ الْمُرْتَضَى ذَرَكَ الْمُنَى وَلَا هُزْرٌ خَطَطِي وَلَا سُلٌ بَاتِرُ
47- ذَبِيْنَا مَرِيْنَا لِلْمَرِيَّةِ أَنْ أُوْتِ إِلَي مَظْهَرٍ تَخْطُ عَنْهُ الْمَظَاهِرُ

وفي سنة 1242/640 وقع حدثان كبيران : الأول وفاة الخليفة الموَحَّدي الرَّشيد . والثاني فتح أبي زكريا الحفصي لللمسان عنوة من يد صاحبها بغمراسن ، وبذلك أصبح الأمير الحفصي أقوى رجل بإفريقية ، وهابه أعداؤه في الدَّاخل والخارج ، وجاءته بيعة عديد المدن من العدوتين الإفريقية والأندلسية . قال ابن الأَثَار مشيرا إلى ذلك [السريع] (76) :

1- ثَلَاثَةٌ حَيَّتْكَ فِي الْأَرَبِيِّينَ نَصَرٌ وَتَمَكِّيْنٌ وَفَتْحٌ مُبِينٌ
2- أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي دَوَّلَتْهُ يُمَسِّنُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

ووجد ابن الأَثَار في تلك المناسبات مجالا لدغدغة شعور العظمة لدى الأمير أبي زكريا الحفصي ، ولتحريضه على القيام بفريضة الجهاد بالأندلس . وكثيرا ما كان الشاعر يكرّر ذكر بيعة تلك المدن في كلّ مرّة يمدح فيها أبا زكريا . وقد يشير في القصيدة الواحدة إلى بيعة عدّة مدن من العدوتين . قال في بيعة شريس وجزيرة طريف ومكناسة وقصر ابن عبد الكريم سنة 1242/640 [الطويل] (77) :

27- وَيَا شَرِيْسَ وَالْجَزِيْرَةَ يَا لَهَا وَمَكْنَسَةَ وَالْقَصْرَ عَرٌّ فَلَا وَهْصَا
28- وَلَا قَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بَرْدَهَا وَمَا بَرَحْتَ أَثْنَاءَ شَقَوْنَهَا زَهْصَا (78)

(75) د/ص 12 - 211 ، ص 214 .

(76) د/ص 300 .

(77) د/ص 340 .

(78) الرَّهْص : شدة العسر .

وفي نفس هذه السنة جاءت بيعه سبعة والمرتبة . وكانت هذه المدينة الأندلسية قد آل أمرها إلى ابن الأحمر إذ استولى عليها سنة 1237/635 من يد صاحبها ابن الرمي . قال ابن الأثير [الطويل] (79) :

- 10- فبالأمنس ألقث بالمفاعة سنة فأورثها عدا من الأمن سينا
11- وخطت بك اليوم المربة رخلها فأقطها رعدا من العيش أهيا

وأعاد الشاعر الإشارة إلى هذه البيعة المزدوجة في سنة 1248/646 بمناسبة عيد الفطر مادحا أبا زكريا [الوافر] (80) :

- 30- لشرق والغرب استباق نخوة كل قبيل دغابيه لباه
31- وبسار سنة والمربة مخير أن سوف تحوي الخافين بساه
38- وبعيد فطر للفتوح مغب كاليوم أعقب صبحه بضحا

ولكثره المدن التي بايعت أبا زكريا في سنة 1242/640 سناه ابن الأثير عام الجماعة [البسيط] (81) :

- 37- سلطانة خرق العادات فائلفت على المرشيد أغيار وأنداد
38- لا مربة أن إقطاع المربة في أعقاب سنة للإجماع ميعاد
39- أين أماتت به مراكش ودعت لعاذت قصدها مصر وبغداد
40- عام الجماعة ما اغتاصت ولا نعلت فيما يقرر جبان وبغداد

وفي سنة 1243/641 (82) جاءت بيعة إشبيلية بعد خلعها لطاعة الموحدين وكانت عاصمتهم بالأندلس . قال ابن الأثير [الطويل] (83) :

- 1- لأندلس البشري وحضرتها (جمنص) فقد كسيت للأمن فضفاضة القنصر
2- وقد نصرت غودا كبدية على العدى فذاقوا المنيا الحمر بالحس والحصر

(79) د/ص 8 - 367 .

(80) د/ص 408 - 410 .

(81) د/ص 141 .

(82) د/ص 343 .

(83) هذه البيعة الأولى ثم رجعت إلى الدعوة الموحدية . وفي سنة 1245/643 عادت إلى بيعة الحفصيين .

- 4- أَلَمْ يَخْلَعُوا زَهْدًا وَجِرْصًا عَلَى الْهَدَى وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يُعْضَدَ الزَّهْدُ بِالْجِرْصِ
5- عَيْيَ بْنَ إِدْرِيسَ بْنِ يَغْقُوبَ وَاتَّقَمُوا (84) لِيَحْتَنِي بَيْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ (85)

وَتَدْعُمُ هَذَا الْإِتِّفَافَ حَوْلَ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ مِنْ عَاصِمَةِ الْأَنْدَلُسِ فَطَرِبَ
لَهَا ابْنُ الْأَبَّارِ وَأَخَذَ فِي تَعْدَادِ جَمَلَةٍ مِنَ الْمَدَنِ الَّتِي وَصَلَتْ بِبَيْعَتِهَا إِلَى حَاضِرَةِ الْحَفْصِيِّينَ
[الطويل] (86) :

- 7- لَقَدْ رَاقَبْتُ عَامَ الْجَمَاعَةِ بَرْهَةً فَلَمْ يَغْدُمَا إِفْرَارُ غَيْبِ الْمُرَاقِبِ
11- أَلَا هَذِهِ جِمُصٌ تُسَابِبُ طَاعَةَ سَجَلَمَاسَةٍ فِي رَفْعِهَا لِلْمُنَاصِبِ (87)
12- وَمَا خَالَفْتُ غَرْنَاطَةَ رَأْيٍ رِيَّةٍ (88) لِقِشْمَلِ أُنُورِ الْهَدَى كُلِّ جَانِبِ
13- وَجِيَّانَ لَمْ تُسْرَخْ كَثِيلِبُ وَطَنْجَةِ مُبَارِيَّةِ هُوجِ الصَّبَا وَالْجَنَابِ
14- لِيَسْتَعِدَّ بِالرُّضْوَانِ يَبْعَاطُهَا النَّبِي كَفَى شَاهِدٌ مِنْهُ تَأْمُلُ غَائِبِ

وَتَجَدَّدَتْ بَيْعَةُ إِشْبِيلِيَّةِ لِلْحَفْصِيِّينَ سَنَةِ 1245/643 ، فَقَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ مَهْنَةً وَمُبَشَّرًا
هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِالْأَمْنِ وَالسَّعَادَةِ تَحْتَ لُؤَاءِ مَخْدُومِهِ الْحَفْصِيِّ [الكامل] (89) :

- 25- لِلَّهِ جِمُصٌ وَفُوزُهَا بِسَعَادَةٍ هَدَتْ الْخَزِيرَةَ (90) تَحَوَّهَا وَشَرِيئًا
27- أُمْتُ إِسْمَاعِيلَ الْعَذْلُ خَالِغَةٌ بِهِ مَنْ أَعْمَلَ التَّأْرِيثَ وَالتَّخْرِيشَ
28- وَإِلَيْهِ خَفْتُ وَالرَّجَاحَةُ فِي الْهَوَى أَنْ يَجْعَلَ الْآرِي لَهُ وَيَطْبِشَ
30- وَيُخِيلَهُ اعْتَصَمْتُ عَلَى حُبِّ لَهُ مُنْخَاشَةً لَا تُتَبَيَّنِي تَهْشِوِيئًا

وَيَرَى الشَّاعِرُ أَنَّ مَرَائِشَ تَوْيْدِ إِشْبِيلِيَّةِ فِي بَيْعَتِهَا لِأَبِي يَحْيَى . فَهَلْ أَنَّ الشَّاعِرَ يِبَالِغُ

(84) السَّعِيدُ الْمُوَحَّدِيُّ .

(85) أَبُو زَكَرِيَّا الْحَفْصِيُّ .

(86) د/ص 1 — 80 .

(87) الْمَقْصُودُ هُوَ السَّعِيدُ الْمُوَحَّدِيُّ .

(88) فِي الْمَعْرِفِ : 423/1 : مَالِقَةٌ .

(89) د/ص 5 — 404 .

(90) الْمَقْصُودُ جَزِيرَةُ طَرِيفِ .

لأنّ مراكش لم تعترف مطلقا بالحفصيين أو أنّه أراد أن يشير إلى بعض الاتجاهات بها
مؤيدة للحفصيين ؟ قال [الطويل] (91) :

20- وَلَيْسَتْ لَهُ مَرَاكُشُ بِفَرَارَةٍ وَأَنْتَى وَمَسَا زَالَتْ مُظَاهِرَةٌ جَنْصَا
26- لِحِنْصَ مِنَ الْبَشْرِ مُجِبِلًا قَدَاخَهَا بِهَيْئِهَا تُسْعَى لِمَخْصِرِ الْهَدَى مَخْصَا

العدوة الإفريقية في ديوان ابن الأتبار

1 - ابن الأتبار بإفريقية :

لقد قرّر ابن الأتبار بعد أن سقط وطنه في 17 صفر 636/29 سبتمبر 1238 الانتقال إلى
العدوة الإفريقية . وقد شجّعه على ذلك ما وجده لدى أبي زكريّا الحفصي من حفاوة وتقدير
عندما جاء موفدا من قبل مخدومه ابن مردنيش أمير بلنسية قبل سقوطها . ويبدو أنّ ابن الأتبار
اختار طريق البحر رأسا من بلنسية إلى بجاية . وهذا نفهمه من مطلع قصيدتين قالهما في مدح
الولد الأكبر لأبي زكريّا وهو أبو يحيى أمير بجاية . قال في الأولى مادحا وموجيا بالطريق الذي
سلكه للوصول إلى العدوة الإفريقية [الكامل] (92) :

1- نُسُورُ الْهَذَابَةِ مَا أَضَاءَ وَلَا حَسَا فَقَصَبِ السُّفِينِ وَنُشْرِ الْمَلَأَحْسَا
2- وَسَنَى الْإِمَارَةَ مَا تَطَّلَعَ فِي الدُّجَى مِنْ قَبْلِ اسْتِفَارِ الصَّبَاحِ صَبَاحَا
3- فَأَغْفِلْ بِأُبْحُرِهَا جَوَارِيكَ الْتَبَى حَازَتْ إِلَى الْقُوزِ الرِّيَاحِ رِيَاخَا
9- وَاصْدُفْ عَنِ الْبَحْرِ الَّذِي الْفَيْتُهُ ثَمَدًا، لِيُخْرِ تَوَالِيهَا، ضَحَضَاخَا

وفي الثانية اتضح لنا فعلا أنه سلك طريق البحر عندما وصف أخطاره حقيقة لا
مجازا [الزّمل] (93) :

1- عَبَّرَ الْبَحْرَ يَسُومُ الْأُبْحُرَا آمِنَسَا فِي وَرْدِهِ أَنْ يَصْدُرَا
2- وَامْتَطَى اللَّجَّةَ خَضْرَاءَ بِمَا أَلْفَ الْعَيْشِ لَذِيهِمْ أَحْضَرَا

(91) د/ص 340 .

(92) د/ص 113

(93) د/ص 185

3- نَحَاضُ صَدْرَ الْهَوْلِ جَهْمًا غَابِسًا يَنْتَجِجُهُمْ ضَاغِكًا مُسْتَنْشِيرًا
4- وَسَمًا لِلْعَايَةِ الْقُصْوَى غَلَسِي خَطِيرًا أُخَرَّرَ عَنْهُ الْأَنْخَطَرَا

وإذا ثبت فعلا أن ابن الأتبار قال مدحيته الثانية في الأمير أبي يحيى في أواخر سنة 1238/636 أو بداية 1238/637 . فإن هناك أمرا يثير انتباهنا في هذه القصيدة ، ذلك أن ابن الأتبار يخاطب الممدوح بولاية العهد قائلا [الرمل] (94) :

69- يَا وَلِيَّ الْعَهْدِ فِيمَا طَالَ مَا نَسَافَسَ الدِّينَارُ فِيهَا الْمَنِيرَا
70- هَاكَ مَا خَبَرْتُهُ مِنْ مَدَحٍ جِئْتُ عَنْ تَقْصِيرِهَا مُعْتَذِرَا
71- وَهِيَ الْإِمْرَةُ أُغْيَا وَصَفَهَا نُظِمَ الْحَمْدُ لَهَا أَوْ يُثَرَا

والإعلان رسميًا عن تعيين أبي يحيى لولاية العهد لم يتم إلا في سنة 1240/638 كما ذكر المؤرخون . فما هي الراوية الصحيحة يا ترى ؟ هل أن الناس اعتادوا — وابن الأتبار منهم — أن يروا الحاكم يسند ولاية العهد لابنه الأكبر ، فيخاطبونه بذلك ولو لم يقع الإعلان عنه بصفة رسمية ؟ أو أن ذلك سياسة من أبي زكريا في حذره وهو يخطو رويدا رويدا نحو الاستقلال نهائيا بإفريقية عن الدولة الأم ؟

2 — نكبة ابن الأتبار الأولى :

لم يقم ابن الأتبار إلا بضعة أشهر ببجاية ، انتقل إثرها إلى تونس ، وأحسن أبو زكريا استقباله وقدر مواهبه وعهد إليه بالكتابة في ديوانه . ثم أسند إليه كتابة الإنشاء والعلامة في سنة 1240/638 بعد وفاة ابن الجلاء البجائي . وكان ابن الأتبار يكتب العلامة السلطانية بالخط المغربي . وكان أبو زكريا يؤثر أن تكتب بالخط المشرقي . لهذا السبب عهد بكتابتها إلى أحمد بن إبراهيم الغساني ، وطلب من ابن الأتبار أن يقتصر على إنشاء الرسائل وكتابتها وأن يدع مكان العلامة فيها للخطاط الجديد ، فغضب ابن الأتبار واعتبر أن في ذلك مسًا بكرامته واستمر في كتابة العلامة بخطه المغربي فتوتب في ذلك وروجع فاستشاط غضبا ورمى بالقلم من يده وأشد :

أَطْلُبُ الْعِسرَ فِي لَطْيِ وَذِرِ الذُّلِّ لَ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

ووصل الخبر إلى السلطان فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته . وفي هذه المدة التي قضاهما ابن الأبار تحت الإقامة الجبرية ألف كتاب (إعتاب الكتاب) .

هذا ما جاء مختصرا في كتب التاريخ من أسباب في نكبة الشاعر الأولى . ولقد لمح ابن الأبار في مقدمة كتابه الإعتاب إلى ذلك، فاعترف بأنه (جاء شيئا إذا) (95) وفي خاتمته يشير — والمقصود هو ذاته — إلى خطورة اللسان على الإنسان (96) فيما يتعرض له من نكبات .

وفي نفس هذه الخاتمة يذكر ابن الأبار أن السلطان عفا عنه (97) ، ولكن ما راعه إلا وأبو بكر يا يخيره في الرحيل بين التشريق والتغريب (98) . وسقط في يد الشاعر وبدأ يستعد للسفر ويبيع أديابيه بأبخس الأثمان (99) ، فكانت حالته مع أسرته في هذه الفترة شبيهة بما قاساه لما سقط وطنه بنسبة في يد التتار واضطر للرحيل عنه (100) . ومع ذلك لم يأس الشاعر من الحصول على عفو السلطان فكتب إليه يستعطفه ويُقر بذنبه نادما ثائبا [الكامل] (101) :

- 4- نَدِمِي ، عَلَى مَا نَدِمْتِي ، ذَائِمٌ وَعَلَامَةُ الْأَوَابِ أَنْ يَتَذَمَّرَ
- 5- يَا طَوْلَ يُوسَى مُسْلَا بِجَرِيرَةٍ إِنْ لَمْ تُجَرِّنِي بِالتَّجَاوُزِ مُنِعَمَا
- 7- فَأَحَقُّ مِنْ ثُولِي الْإِقَالَةِ عَائِرٌ لَمْ يَسْتَجِبْ عَلَى الْهَدْيِ قَطُّ الْعَمَى
- 8- أَقْصَاهُ عَنْكَ تَرْلَفٌ بِخُطْبَةٍ خَالِ الصَّوَابِ جَلَّالَهَا وَتَوَهَّما
- 9- وَلَقَدْ تَحَفَّظَ فِي الْمَقَالَةِ جُهْدَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يَلَمْسِ الْحَدِيثُ وَتَمَيَّما
- 10- قَدْ عَلِمْتُهُ تَجَنَّبَ الْجَهْلَ الْعَلَى يَكْفِيهِ أَنْ قَوْمَتُهُ فَتَقَوَّما

(95) الإعتاب ص 46 .

(96) الإعتاب ص 354 .

(97) الإعتاب ص 354 .

(98) الإعتاب ص 355 .

(99) الإعتاب ص 355 .

(100) الإعتاب ص 356 .

(101) د/ص 5 — 274 .

وللتعجيل بعنو السلطان قبل تنفيذ قرار التقي ، استشفع بالأمير أبي عبد الله محمد ، وتطارح عليه حتى يتدخل لصالحه لدى والده ، وأنشده [مجزوء البسيط] (102):

- 1- مَوْلَايَ دَامَتْ لَكَ السُّعُودُ أَخْطَأْتُ أَخْطَأْتُ لَا أُغْوِدُ
- 2- مَا لِي بِرَاحٍ وَلَا أُنْتَسِرَاحٍ مَوْتِي فِي أَرْضِكُمْ خَلْوِدُ
- 3- كُنْ لِي شَفِيعًا إِلَى إِمَامٍ لَيْسَ غَلِي فُضِّلَهُ مَرِيَدُ
- 4- غَاذَتْهُ الْعَفْوَ وَالْمَوَالِي تَغْفِرُوا إِذَا أَخْطَأَ الْعَبِيدُ

وفي شهر رمضان كما جاء في خاتمة كتاب الإعتاب دون ذكر للسنة (103) بدأ في الألق ما أعاد الاطمئنان التسيبي لنفسه ، فبشّر عائلته وأسرع بمخاطبة المولى أبي زكريا حتى يتراجع في قراره الأول . قال [السريع] (104) :

- 10- أَذْنَبَ لَكِنْ ثَابَ مِنْ قَسُورِهِ وَفِي قُبُولِ الثُّوبِ زَفْعُ الْخَنَاحِ
- 11- حَسْبِي شَفِيعًا لَكَ فِي هَفْوَتِي حُبٌّ وَنُصْرَةٌ وَتُسْلِيَاءُ صَرَاحِ
- 12- بَرَّخَ بِي الثُّوْقُ إِلَى خَضْرَاءِ (105) لَيْسَ لِمَنْ وَفَّقَ عَنْهَا نِسْرَاحِ
- 13- وَهَمْتُ فِيهَا بِاتِّصَابٍ فَلَسَمْتُ تَتِمُّرَ لِي الْأَقْدَارُ غَيْرَ اتِّصْرَاحِ (106)

وفعلا عفا السلطان عن الشاعر قبل حلول العيد ولعلّه عيد الفطر فعبر عن فرحته الكبرى بقوله [مخلع البسيط] (107) :

- 1- قَابِلْتُ تُعْمَالَكَ بِالسُّجُودِ لِلَّهِ مِنْ عَطْفَةٍ وَجُودِ
- 3- قَدْ وَصَلَ الْأَمْنُ وَالْأَمَانِي بَعْدَ الْمُخَافَةِ وَالصُّدُودِ

(102) الإعتاب ص 257

(103) تشير المصادر إلى أن ابن الأبار لم يمكث طويلا في كتابة العلامة والإنشاء وغضب عليه أبو زكرياء ، ثم هو من جهة أخرى يذكر الأمير أبا يحيى ويضيف (ولي العهد)، وقد تولى هذا الأمير ولاية العهد في رجب 1240/638 . فمن المرجح أن يكون ابن الأبار نكب في المرة الأولى في أواخر الثلاثينات من القرن 7 هـ/ 13 م .

(104) الإعتاب ص 9 — 258 .

(105) حفرة بمعنى مجلس .

(106) أخطأ المحقق عندما ذكر أن الشاعر قال هذه القصيدة وهو في بجاية . وكما يفهم من خاتمة الكتاب في هذه المحنة فإن السلطان عفا عنه قبل أن يرحل . والقصيدة موجودة في خاتمة الإعتاب .

(107) د/ص 169 — 170 .

- 10- صَفَحَتْ عَمْدًا عَنِ الْخَطَايَا وَتِلْكَ مِنْ عَادَةِ الْقَوِيدِ
14- مَا غُرَّةُ الْعِيدِ أَجْتَلِيهَا بِسَوْمِ رِضَاكَ الْأَغْرُ عَيْدِي

ولم ينس الشاعر أن يشيد بشفاعه الأمير أبي عبد الله لدى والده فقال يخاطبه
[الوافر] (108) :

- 1- أَيْهَا بُشْرَايَ قَدْ وَضَعَ الْقَبُولُ وَصَحَّ مِنَ الرُّضَى أَمْسَلْ وَسُؤْلُ
2- وَشَفَّعْ تَجَلَّهْ الْأَرْكَى إِمَامَ لِمَنْ صُرِمَتْ وَسَائِلُهُ وَسُؤْلُ
3- فَمَا لِسَوَاهُمَا فِي الصُّنْحِ عَنِّي يَدٌ عَلَيَا وَلَا مَنْ جَزَيْلُ
4- أَقَالِيَنِي الْخَلِيفَةُ مِنْ عَثَارِي فَمَاذَا فِي إِقَالِيهِ أَقْسُولُ
8- أَذُوبُ إِذَا أَحْبَبَ غَنَهُ شَوْفَا إِلَيْهِ فَكَيْفَ لَوْ أَرَفَ الرَّجِيلُ

لقد نجح الأمير في مسعاه وانقذ الشاعر من حياة الضياع والتشرد ، فقال ابن الأبار
[الطويل] (109) :

- 1- أَجَارَ مِنَ الْخُطْبِ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فَقُنْتُ بِمَا أَوْلَاهُ أَتْنِي وَأُحْمَدُ
7- وَمَنْ يَكُ قُرْعًا لِلْإِمَامَةِ وَالْهَدَى فَإِنَّ جَنَاهُ الْغَضُّ مَجْدٌ وَسُؤْدُ
8- رَأَيْتَنِي مَرْدُودَ الشَّرَائِعِ كُلَّمَا تَقَرَّرْتُ بِالْإِخْلَاصِ أَقْصَى وَأَبْعَدُ
9- نَصِيْبِي مِنَ الْآدَابِ جَرَفَتْهَا التِّي شَقِيْتُ بِهَا جَارًا لِمَنْ بَاتَ يُسْقَدُ
10- وَلِلْحَظِّ لَحْظٌ كُلُّ دُونِي خَائِفَا كَأَنِّي وَإِيَّاهُ شُعَاعٌ وَأَرْمَدُ
11- فَجَمَعَ مِنْ شَمْلِي ، وَشَمْلِي مُفَرَّقُ وَرَقَّةٌ مِنْ شِرْبِي وَشِرْبِي مُصَرَّدُ
12- تَشَفَّنْتُ فِيهَا لِلْإِمَامِ بِتَجْلِيهِ وَبِغَمِّ شَفِيعِ الْمُذْنِبِينَ مُحَمَّدُ

3 - ثورة بني غانية :

تعتبر ثورة بني غانية القادمين من الجزائر الشرقية (جزر البليار) السبب المباشر لقيام الدولة الحفصية . فلولا هذه الثورة لما عهد الناصر الموحد لأبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص بولاية إفريقية ، باعتباره حاكما شبه مستقل ليتمكن من مواصلة تتبع ابن غانية . وقد اغتنم أبناؤه ، وخاصة أبا زكريا فرصة ضعف الدولة الموحدية واستمرار خطر بني غانية للاستقلال نهائيا بإفريقية .

(108) الإعتاب ص 1 - 260

(109) د/ص 171 - 172 .

وقد مرّت ثورة بني غانية بمرحلتين :

1 — المرحلة الأولى وترغمها على بن إسحاق الآتي من ميورقة . وبدأها باحتلال بحاية يوم 6 شعبان 13/580 نوفمبر 1184 وتستمرّ ثورته إلى موته جريحا إثر معركة الحمة في سنة 1188/584 .

2 — المرحلة الثانية وترغمها يحيى بن غانية بعد موت أخيه علي وسيبقى هذا التأثير حوالي نصف قرن يناسب العداء كلاً من الموحّدين والحفصيين . وتمكن في 7 ربيع الثاني 14/600 ديسمبر 1203 من الاستيلاء على مدينة تونس . ولم تنته هذه الثورة إلا بموت يحيى بن غانية في 1237/633 قرب مليانة . وكان لأبي زكريا الحفصي مؤسس الدولة الحفصية الفضل الأكبر في القضاء على هذه الثورة .

لقد بقي صدى هذه الثورة يرنّ في أصداء إفريقية والمغرب الأوسط طيلة فترة حكم أبي زكريا . ولهذا قلّما تخلو القصائد المدحية التي دبحها ابن الأبار في هذا الأمير وأبيه زكريا ومحمّد⁽¹¹⁰⁾ من الإشارة إلى فشل بني غانية وخاصة فشل بطل المرحلة الثانية من هذه الثورة وهو يحيى بن غانية .

لقد ذهب — في نظر ابن الأبار — جهود هذا الشاعر ومساعيه أذراع الرياح كما ضاعت جهود من سبقه من عائلته وخاصة علي بن إسحاق أخاه . قال الشاعر [الوافر]⁽¹¹¹⁾ :

42- فَمَا أَغْنَى ابْنَ غَانِيَةَ فَيْلًا وَمَا أَجْدَى ذُووَهُ بُسُوَ غَلِي
43- وَأُخْكَامُ اللَّيَالِي جَارِيَاتٍ عَلَى الْمُنْحُوبِ⁽¹¹²⁾ قَلْبًا وَالْجَرِي
44- فَإِنْ كُنَّا لَهُ الْهَيْجَاءُ شِرْبًا فَقَدْ ذَاذَلَهُ أَطْرَافُ الْعَصِي
45- وَإِنْ كُنِيَ الشَّقَاوَةُ أُنْسَاءَهُ فَلَسَمُ بِكَ لِلْعَفَاذَةِ بِالْأُنْسِي

(110) ذكر الشاعر بني غانية مرّات متعدّدة في ديوانه وخاصة في خمس مناسبات : 4 منها بمناسبة مدح ولي العهد أبي يحيى زكريا أي أنها قيلت ما بين 1240/638 و 1248/646 وقصيدة مدح بها ولي العهد محمّد أي سنة 1248/646 . وتذكر الشاعر دائماً بني غانية بمناسبة مدح ولي العهد الأول أو الثاني يمكن تفسيره من الناحية النفسية : إن ولاية العهد هي رمز لاستمرارية الدولة وابن غانية رمز لانقطاعها فكلمّا ذكر الرّمز الأول خطر بباله الرّمز الثاني .

(111) د/ص 8 — 427

(112) الحبان .

وثورة ابن غانية هي ضرب من الفساد في الأرض ، وفي القضاء عليها من طرف
أبي زكرياء راحة للبلاد وللعباد [الكامل] (113) :

24- أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَنَاؤُهُ لَا ذَاكَ مَخْسُوسُ الْوُجُودِ وَلَا ذَا

25- آذَى آذَى وَأَدَّ فَسَادُهُ وَعَيْنُ فسادُهُ فَكَفَى السَّوْرَى مَا آدَ مِنْهُ وَآذَى

26- وَيَحَاهُ وَهُوَ يُبْزُقُ أَقْرَانَ الْوَعَى فَمَحَاهُ سَبَّاقًا لَهُ بَلْدًا

ولكن الممدوح الحفصي استطاع أن يقضي عليه ويسحق أتباعه . قال ابن الأثير
بعد أن عدّد القبائل القائمة التي استطاع أبا زكريا أن يخضعها لسلطانه [الوافر] (114):

70- وَفِي سَخَقِ ابْنِ إِسْحَاقَ اغْتِيَارَ وَمَا أَقْضَى إِلَيْهِ مِنَ الثُّبُورِ

71- مَحَاهُ (115) وَكَانَ ذَا ذَهَبٍ طَوِيلٍ بِأَيْتَرٍ مِنْ صَوَارِمِهِ قَصِيرٍ

72- وَإِنْ هُوَ لَمْ يَسَايِرْهُ ضِرَائِبَا فَخِيفَتْهُ طَوْنُهُ إِلَى النُّشُورِ

73- وَكَمْ غَنِيٍّ الْوَعَى وَلَهُ زَيْرٌ قُبْدَلٌ بِالزَّرِيمِ مِنَ الزَّرِيمِ

74- وَطَارَ إِلَى غَمَارِ الْمَوْتِ صَفَرًا فَحُطَّ إِلَى الْبُعَاثِ عَنِ الصُّفُورِ

75- سَيُوفٌ يَسِي أَيْ حَفْصٌ تَفْتَهُ وَقَادَتْهُ إِلَى سُوءِ الْمَصِيرِ (116)

76- وَلَوْلَاهَا لَسَعَرَهَا خُرُوبًا كَمَا اضْطَرَمَّتْ عَلَيْهِ لَطَى السَّيْرِ

لقد أصبح هذا الشاعر وقومه أثرا بعد عين [البيضا] (117) :

33- أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ اسْتَوْلَوْا إِلَى أَمَدٍ فَاسْتَأْصَلَتْهُمْ عَوَالِيهِ بِمَا صَالُوا

34- آلتَ قَوَائِمَ مَغَانِي آلِ غَانِيَةٍ بِهِ وَعَالَتْهُمْ لِلدَّهْرِ أَغْشَوَالُ

وعبرة لمن يعتبر [الكامل] (118) :

3- فَسَمَّ الْجَبَابِرَةَ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا وَتَسَنَّنُوا صَرَخَ الشَّقَاقِ مُتَرَدًّا

4- أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَنَاؤُهُ لَا مُلْجِدٌ إِلَّا وَأَصْبَحَ مُلْجِدًا

(113) د/ص 183

(114) د/ص 197

(115) الضمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء .

(116) الأبيات لا تخلو من تلميح إلى قوة هذا الشاعر وبأسه وما عاناه الحفصيون في مقاومته وإخضاعه .

(117) د/ص 245

(118) د/ص 167

4 — ثورة أبي عبد الرحمن يعقوب الهرغي (119) :

إن نكبة الهرغي حاكم طرابلس مرتبطة بشدة الارتباط بنكبة صاحب الأشغال بتونس ، وهو محمد بن محمد الجوهري . لقد كان هذا الأخير في عداوة شديدة مع رئيس الدولة أبي علي بن التلعثم والوزير أبي عبد الله ابن الحسين والوزير أبي يحيى بن أبي الحسن بن جامع . فأوغروا صدر الأمير أبي زكريا عليه . فأمر بالقبض عليه وتعذيبه ليستخرج منه الأموال ، فتجلد ولم يظهر من الأموال شيئا . ثم وجد بعد ذلك في سجنه ميتا قد خنق نفسه بعمامة في شوال سنة 1241/639 .

وكانت بين الجوهري ويعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي حاكم طرابلس صداقة متينة فاستوحش مما فعله أبو زكريا بصديقه . فلما استقدمه السلطان إلى تونس تلكأ وفكر في الاستبداد بالأمر ، لكن أهل البلد تفتنوا فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعه وأعلموا أبا زكريا ، فأمر بقتلهم وبعث رؤوسهم إلى تونس فنصبت بسورها ونصبت الأشلاء بأسوار طرابلس . فقال ابن الأبار يصف رؤوس القتلى متشفيا [الكامل] (120) :

- 1- وَعِصَابَةٌ قَطَعَتْ رُؤُوسَهُمُ الطُّغْيَى قَطَعَفَ النَّبَاتُ أَزَاهِرَ السُّنْبَانِ
 - 2- غَدَرُوا وَمَا شَعُرُوا بِأَنْ وَرَاءَهُمْ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا عَلَى الْهَيْهَاتِ
 - 3- فَاَنْظُرْ إِلَى هَامَاتِهِمْ مُسَوَّدَةً كَاللَّيْلِ غَيْرَ بَوَارِقِ الْأَسْنَانِ
 - 4- لَأَحْتُ مِنَ السُّورِ الْمُعِيفِ بِصَفْحَةٍ بِبِضَاءِ كَالشَّمَامَاتِ وَالْخِجْلَانِ
- وفي صدى هذه الثورة عالقًا بذهن الشاعر ، فلما وقف يمدح أبا زكريا وولي عهده أبا يحيى بمناسبة فتح تلمسان سنة 1242/640 لَمَحَ إلى ما آل إليه مصير من عصى وغوى بطرابلس . قال [الطويل] (121) :

- 58- كَيْفَ يَفْهَرُ الْعَرْبُ وَالْعُجْمُ بِأَسْهُ وَلَا عَجَبُ أَنْ يَفْصَلَ الْأَجْدَلُ (122) الصَّعْوَا (123)
- 68- فَبَلَدُ تِلْمَسَانَ وَمَلْيَانَةَ إِلَى طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى (124)
- 69- بِلَادَ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةُ سُعُودَهُ كُؤُوسَ مَنَائِيهَا جَزَاءَ عَلَى الطُّغُوسَى

(119) هذا القارئ يعتبر من كبار شيوخ الموحدين .

(120) د/ص 293 .

(121) د/ص 422 و ص 423 .

(122) الأجدل : الصغر .

(123) الصَّعْوَا : صغار العصفار .

(124) الرَّغْوَى : التوبة .

5 - فتح تلمسان :

خصّ الشاعر فتح تلمسان بقصيدة كاملة (ق. رقم 2 ص 41) وأشار إلى هذا الحدث الكبير بالنسبة إلى الدولة الحفصية في مدحه لأبي زكرياء⁽¹²⁵⁾ في القصائد التالية ق 48 ص 383 وق 176 ص 379 وق 201 ص 417 .

وقد علّل جلّ المؤرخين وعلى رأسهم ابن خلدون فتح أبي زكريا تلمسان بخوف الأمير الحفصي من تحالف ثلاثي ضده بين السعيد الخليفة الموحد (1242/640 — 1248/646) وأبي يحيى بغراسن صاحب تلمسان والأمير المريني أبي يحيى بن عبد الحق . وقد تمّ فعلاً التحالف بين الأول والثاني فأسرع أبو زكريا بالهجوم على تلمسان لإفساد هذا التحالف ونجح في ذلك نجاحاً كاملاً .

أما ابن الأبار فيرى في الهجوم على تلمسان ضرب من نصرة الدين والغضب لله . وهذا هو السبب الذي تروّجه الخاصة لإقناع العامة ، ولتبرّر به هذه الحروب الداخلية . قال الشاعر [السيط]⁽¹²⁶⁾ :

- 7- غَضِبْتُ لِلَّهِ تَنْتَرَعِي فَرَايَضَهُ فَجِئْتُ تَرْمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ يُخْطِئُهُ⁽¹²⁷⁾
8- وَقُمْتُ لِلدِّينِ أَفْصَاحًا بِنَصْرَتِهِ فَاسْتَحْفَرْتُ⁽¹²⁸⁾ عِنْدَهَا الدُّنْيَا تَهْتِكُهُ
9- قَدْ كَانَ مُتَتَهِّكًا جِسْمُ الْهَلْدَى مَرَضًا وَأَنْتَ رُوحٌ لَهُ مَا زِلْتَ تُبْرِئُهُ

ولا تشير المصادر التاريخية إلى أنّ أبا زكريا خرج بجيشين إلى تلمسان برّي وبحري ، بينما يشير ابن الأبار إلى ذلك بقوله⁽¹²⁹⁾ :

- 10- لِلَّهِ جَبِشْتُكَ وَالْأَسْطُولُ قَدْ ضَمِنَا لِلْمُقْتَدِي بِالْهَلْدَى سَيَرًا يَهْدُنُهُ
12- هَذَا عَلَى أَغْبَرِ الْبَيْدَاءِ يَسْجُرُهُ⁽¹³⁰⁾ وَذَلِكَ فِي أَخْضَرِ الدَّامَاءِ يَمْلُؤُهُ

(125) د/ص 41 .

(126) د/ص 41 .

(127) الضمير يعود على العدو .

(128) استحفرت : أسرعت .

(129) د/ص 42 .

(130) يسجره : يملؤه .

لقد غادر أبو زكرياء تونس في شوال 639/أفريل — ماي 1242 ووصل إلى تلمسان في نهاية محرم 640/جويلية 1242 وحاصرها وأخذها عنوة في شهر ربيع الأول 1242/640 . وأثناء الحصار تمكّن يغمراسن بشجاعته الفائقة أن يفتحم الجيش المحاصر ويشقّ لنفسه ولفرسانه وعائلته طريقا ويفرّ إلى الجبل . فقال ابن الأبار [السيط] (131) :

16— دَثَّ عَمَرَاتِ الْمَوْتِ مِنْ يَغْمَرَّاسِينَ فَأَجْفَلَ كَالْخُرْقَاءِ يَغْتَسِفُ الْخُرْقَا (132)
17— وَمِنْ خُبَيْهِ (133) يَوْمَ الْهَبَاجِ سَلِيقَةً نَسَلُّهُ مِنْ يَمْنِ آسَادِهِ سَلَقَا

ولئن لم تضبط المصادر التاريخية إلّا السنة والشهر اللذين تمّ فيهما الفتح ، فقد ذكر ابن الأبار اليوم والساعة (134) :

15— أَتْنَهُمْ جُنُودُ اللَّهِ تَضْمُدُ ضَمْدَهُمْ فَحَقَّ عَلَيْهِمْ صَبْحَةُ السَّبْتِ مَا حَقَّهَا
وقال (135) :

59— يُفَاحِرُ فِيهِ السَّبْتُ يَوْمَ غُرُوبِهِ وَمَا كَانَ إِلَّا مِنْ نَتَائِجِهَا حَقَّهَا

ولم يبق أبو زكرياء في تلمسان إلّا 17 ليلة (136) ، إذ رأى أنّ من الحكمة أن يعفو عن يغمراسن ويعيده إلى حكم تلمسان باسمه ليكون الدرع الواقى لمملكته من خطر الموحّدين والمرينيين معا . قال ابن الأبار (137) :

18— رَمَاهُ فَأَضْمَاهُ بِأَفْحَافِ رَأْسِهِ إِمَامٌ هُدَى لَقَى الضَّلَالَةَ مَا لَقَى
19— وَأَعْذَمَهُ الْمُلْكُ الَّذِي اغْتَادَ غَضَبُهُ فَرَاغَعَ نَحْتَ الذَّلَّةِ الْمُلْكُ وَالرُّقَا

(131) د/ص 381

(132) الخرق : الأرض الواسعة .

(133) ما اعتبره الشاعر حينما اعتبرته المصادر التاريخية شجاعة وبأسا ونوّهت بهما .

(134) د/ص 381 .

(135) د/ص 384 .

(136) العبر : 607/6 .

(137) د/ص 381 .

وكان على يغمراس — حسب الشاعر — أن يستند على الركن الأشم وهو أبو زكريا الحفصي لا على الحائط المتداعي وهو السعيد الموحدي ، فشتان ما بين الجوارح الكاسرة والطيور الصغيرة الضعيفة . وهنا ينكشف السبب المباشر والحقيقي لهذه الحملة ، لا مذكوره من أسباب دينية واهية . قال ابن الأثير [البيضا] (138) :

45- أوى (139) إلى أضعف الأركان مستنيداً وأيسر من كاسرات الطير يؤيؤه (140)

لقد كانت فكرة الاستيلاء على سلا ومراكش تخامر ذهن أبي زكريا سواء قبل فتح تلمسان أو بعدها . فالدولة الموحدية في سنة 1242/640 كانت في حالة احتضار . ومن هنا فإن تحريض الشاعر للممدوح على مهاجمتها ليس من بنات أفكاره وإنما هو أمر متوقع من دولة قوية ناهضة أمام دولة منهارة آفلة . قال ابن الأثير (141) :

35- جاوز تلمسان فتحاً لا حقاً بسلاً يكف من كفر التغمسي ويكفؤه
36- وأنهذ لمراكش تستعد بها قلاً (142) ما كان مثلك ينسأه وينسؤه

وفتح تلمسان فعلاً هو تهديد لسلا ومراكش ، وهو إنذار في نفس الوقت لفاس وسبتة ولنصاري الأندلس قال الشاعر (143) :

34- وهل سكت فاس وسبتة بعده أم اضطكتا كالحافقيسي له خفقا
35- لقد بات أهلوها بليلة ما خضر وقد غصلت وضعا وما فترت طلقا
36- وهل أخذت روم الجزيرة جذرها من الفكة الكراء ثمخفهم مخفا

(138) د/ص 45 .

(139) يغمراس

(140) أساء المحقق فهم هذا البيت .

(141) د/ص 44 .

(142) الاستيلاء على عاصمة الدولة الموحدية وهي مراكش سيكون عملاً سهلاً دون حرب نظراً إلى ضعف هذه الدولة .

(143) د/ص 383 .

ويفتح تلمسان سيمتد ملك أبي زكرياء من تلمسان ومليانة غربا إلى طرابلس شرقا .
قال ابن الأبار (144) :

- 66- يُصْرَفُ صَرَفُ الدُّغْرِ فِي النَّاسِ حُكْمُهُ فَإِنْ عَصِمَ الْأَمْدَى لَقَدْ فَصَّمِ الْأَعْوَى
67- وَيُزَوَّى لَهُ شَرْقُ الْبِلَادِ وَغَرْبُهَا لِيُخْلَعَ مِنْهَا مُلْكُهُ كُلُّ مَا يُزَوَّى
68- فَتِلْكَ تِلْمَسَانُ وَمِلْيَانَةُ إِلَى طَرَابُلُسٍ زَوْعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى (145)

6 - بيعة مدن إفريقية لأبي زكريا

بدأ مسلسل الاعتراف بالسلطة الحفصية في بلاد المغرب والأندلس منذ أن برهن أبو زكريا على أنه رجل المواقف الصعبة . فقد استولى على بجاية وقسنطينة في سنة 1230/628 ثم قضى على ثورة ابن غانية في سنة 1234/631 وبدأ التفكير في غزو تلمسان . قال ابن الأبار [الطويل] (146) :

- 8- وَلَمَّا أَحْبَبْتُ النَّاصِرِيَّةَ نَاصِرًا وَجُبْتُ إِلَى الْبَطْخَاءِ بَيْدَاءَهَا رَافِعًا
9- دَعَاكَ تِلْمَسَانُ فَلَبَّيْتُ صَوْتَهَا مُجِيرًا وَتَابَ الْخَوَرُ يُوسِعُهَا غَضًا

وفعلا تم فتح تلمسان سنة 1242/640 فبوا هذا التفسير أبا زكريا مكانة مرموقة في أعين أتباعه ومناوئية ، داخل إفريقية وخارجها ، وأصبح مؤسس هذه الدولة الجديدة قوة ترتجى ورعبا يتنى . قال الشاعر [طويل] (147) :

- 9- دَعَاكَ تِلْمَسَانُ فَلَبَّيْتُ صَوْتَهَا مُجِيرًا وَتَابَ الْخَوَرُ يُوسِعُهَا غَضًا
15- أَبْهَتْ جَمَاهَا قَادِرًا وَحَمِيَّتَهُ فَعَادَزَتْ حُبَّ الْعَذْرِ فِي صَنْدَرِهَا بُغَضًا
16- وَخَلَّفَتْ جَيْشَ الرُّغْبِ فِي أَخْوَاتِهَا يُقْبِضُ عَلَيْهِنَّ الْمَضَاجِعُ مَنَقَضًا

وكان أبو زكريا قبل ذلك بسنة أي في سنة 1241/639 قد قضى على ثورة طرابلس وهي في المهد وقتل واليها عبد الرحمان الهرغي أحد كبار شيوخ الموحدين . وهكذا

(144) د/ص 423 .

(145) الرُّغْوَى : القوبة وحسن الرجوع :

يشير إلى فتح تلمسان سنة 1242/640 وإخماد ثورة الهرغي في طرابلس 1241/639 .

(146) د/ص 346

(147) د/ص 346

لم يمنعه بعد المسافة بين أطراف مملكته من أن يضرب شرقا وغربا . قال ابن الأثير [الطويل] (148) :

- 58 — كَفِيلٌ يَقْهَرُ الْعَرَبَ وَالْعُجَمَ بِأَسْهُ وَلَا عَجَبٌ أَنْ يَقْنِصَ الْأَجْدَلَ الصَّغْوَا
68 — فَبِلَكَ تِلْمَسَانِ وَمَلَيَانَةَ إِلَى طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدَّدَةً رَغَسَوَى
69 — بِلَادُ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةُ سُعُودَهُ كُزُوسَ الْمَنَابِيَا جَرَاءَ عَلَى الطُّغَوَى

وبالقوة خضعت إفريقية بأكملها للسلطة الحفصية وعادت رياضاً آمنة بعد أن كانت غياضاً ترتع فيها الوحوش الكاسرة من ثائرين وعصاة . قال الشاعر [الطويل] (149) :

- 6 — أَطَاعَتْكَ إِفْرِيقِيَّةٌ فَكَفَيْتَهَا عُصَاةَ عَلَسَى إِيْلَافَهَا إِيْتْلَافُوا مُضَا
7 — وَكَانَتْ غِيَاضًا بِالْعَدَى فَأَعْدَتْهَا رِيَاضًا يَسْرِفُ الثُّورُ أَثْنَاءَهَا غَضَا

وفتح تلمسان واستتب الأمن داخل إفريقية ، جعل مدن المغرب الأقصى تراجع سياستها مع الدولتين المتواجدتين على الساحة : وهما الدولة الموحدية الضعيفة والدولة الحفصية القوية : فبالنسبة إلى المدن التي مازالت خاضعة للدولة بني عبد المؤمن ، فقد كثر فيها الفساد . ولئن غض أبو زكريا الطرف عنها فما ذلك إلا من باب الحنان والرفق بالجاني لعله يرعوي عن غيه من تلقاء نفسه . قال ابن الأثير [البيسط] (150) :

- 48 — سَلَا عَنْ (سَلَا) مُذْ ظَلَّهَا الْعَارِضُ الَّذِي أَطَّلَ عَلَى مَسْرَاكُشٍ يَخْبِلُ الصَّغْفَا
49 — وَأَسْرَفَ أَهْلُوهَا مَعَاصِييَ أَوْ بَقَتْ فَمَا زَادَ أَنْ أَغْضَى حَنَائِي وَأَنْ أَبْقَى
50 — كَأَنَّ مَشِيْدَ السُّورِ شَاءَ أَنْهَدَادُهُ لِيُظْفَرَ بِالْأَشْفَقَى عَلَى يَدِهِ الْأُنْقَى
51 — وَإِلَّا فَكَيْفَ أَنْهَالَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا أَنْهَالَتِ الْكُتُبَانُ وَأَنْهَارَتِ الْأُنْفَا

وبالنسبة إلى المدن التي خرجت عن الطاعة الموحدية أو هي بصدد المحاولة ، فإن فتح تلمسان سيجعلها تعيش حالة مخاض من الخوف والحيرة والتردد . ولكن كل ذلك

(148) د/ص 423 — 422

(149) د/ص 345 — 346

(150) د/ص 383

يسرع بها لأخذ قرار البيعة لأبي زكريا الحفصي ، لهذا تساءل الشاعر عن وقع الفتح في نفس متساكنيها ومن جاورهم من روم الجزيرة الأندلسية قائلا [الطويل] (151) :

34- وَهَلْ سَكَنْتَ فَاسَ وَتَبَتَتْ بَعْدَهُ أَمْ اضْطَلَكُنَا كَالْخَافَتَيْنِ لَهُ حَقَقَا

35- لَقَدْ بَاتَ أَهْلُهَا بِبَلَّةٍ مَا حَظَرَ وَقَدْ عَضَلَتْ وَضَعَا وَمَا فَرَّتْ طَلَقَا

36- وَهَلْ أَخَذْتَ رُومَ الْجَزِيرَةِ جَذَرَهَا مِنْ الْفَتَاةِ الْكُفَرَاءِ تُمَحْقِقُهُمْ مُحَقَا

وقد بادرت بيعة مع حاكمها أبي علي بن خلاص سنة 1242/640 بإرسال يبعثها إلى أبي زكريا . فكانت يبعثها بمثابة العلامة الخضراء لبقية المدن المغربية لتحدو جذوها وتحمو منحاه . قال ابن الأثير [الطويل] (152) :

8- هَنِيئًا لِأَهْلِ الْعَدُوَّتَيْنِ إِذَا دُفِعَ بِإِخْلَاصِهِمْ فِي الْمُخْلِصِينَ الْأَطْيَافِ

9- أَطَاعُوا الْإِمَامَ الْمُرْتَضَى وَتَسَانَقُوا إِلَى مَتْنٍ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ لَا جِبِ

10- إِلَى مَذْهَبٍ سَبَّحَتْهُ قَاصِدٌ بِهِ عَذَلُوا عَنْ زَائِنَاتِ الْمَذَاهِبِ

وجاءت بيعة فاس معترفة بالخلافة الحفصية بعد أن راجعت نفسها وبدا لها طريق الهدى والصواب . قال الشاعر [الطويل] (153) :

27- وَأَجِدُ بِ (فَاسٍ) أَنْ تُرَاجِعَ رُشْدَهَا وَقَدْ رَحِضَتْ (مَرَاكُشَ) عَيْهَا رَحِضَا

31- فَحَيَّوْكَ مِنْهَا بِالْخِلَافَةِ حَيْثُ لَمْ يَدْعُ جَذْأَعْرَاقُ الْخِلَافِ لَهَا نَبْضَا

32- تَشْيَعُ الْأَمْصَارُ فِيكَ فَرَحَزَتْ عَذَائِكَ عَنْ أَعْلَى مَنَابِرِهَا رَمَضَا

وبعد مدن الشمال المغربي أتت بيعة مدن الساحل والوسط من رباط الفتح إلى قصر ابن عبد الكريم ومكناسة . قال ابن الأثير [الطويل] (154) :

26- يَفْتَحُ رِبَاطُ الْفَتْحِ ثَرْتِيسُ الْمُنَى وَيَحْطِي بِهَا مَنْ بَاتَ نَارَ الْوَعَى يَحْطِي

(151) د/ص 383

(152) د/ص 80 ، ص 81 . انظر كذلك د/ص 347 بيت 21 ، 22 ، 23 ، 24

(153) د/ص 348

(154) د/ص 348

وقال [الطويل] (155) :

27- وَيَا لَشَرِيشٍ وَالْجَزِيرَةَ يَالَهَا وَمَكْنَسَةً وَالْقَصْرَ عَزَّ فَلَا وَهْصَا

28- وَأَنْتَ رِيَّاشًا فَاسْتَحْشَتْ لِدَعْوَةٍ عَلَى رَبِّهَا أَنْ يَكْفِيَهَا الْحَسَّ وَالْحَصَا

ثم جاءت مدن أقصى الجنوب فكانت بيعة سجلماصة مع حاكمها عبد الله الهزرجي (156) قال ابن الأثير [البيضا] (157) :

1- فَوَاتِحُ الْفَتْحِ تُنْبِئُ عَنْ تَوَالِيهِ لَقَدْ تَمَهَّدَ مُلْكُ أَنْتَ وَإِلَيْهِ

4- أُمْتُ إِمَامِ الْهُدَى غُرًّا مُحَجَّلَةً كَأَنَّهَا فِي ثَبَارِهَا مَذَاكِيهِ

9- عَلَى خِلَافَتِهِ الْإِجْمَاعُ مُتَعَقِّدٌ فَحَاضِرُ الْخَلْقِ طَوْعًا بِمِثْلِ بَادِيهِ

12- بُشِّرِي سَجْلَمَاصَةَ أَغْطَتْ مَقَادِئَهَا بِدَنِي إِمَامٍ مُعَاطِبِهَا أَبَادِيهِ

7 - نكبة ابن الأثير الثانية :

نجد في ديوان ابن الأثير - زيادة على القصائد التي قالها في طلب العفو من أبي زكريا في محتته الأولى ، وضمن أغلبها كتابه إعتاب الكتاب - قصائد أخرى عديدة في طلب العفو من هذا السلطان نفسه . مما يدل على أنَّ الشاعر تعرَّض إلى غضب أبي زكريا مرة ثانية . وحسب المصادر التاريخية ، نفاه في هذه المرة إلى بجاية ، وبقي مدة طويلة استمرت إلى نهاية حكم المولى أبي زكريا سنة 1249/647 (158) .

ويبدو أنَّ السلطان لم يأمر ابن الأثير بالرحيل وإنما حرَّمه من الامتيازات التي كان أمثاله من الكتاب والشعراء يتمتعون بها فساءت حاله ماديا حتى أصبح الشاعر في حالة

(155) د/ص 340

(156) قتله في نفس السنة - أي سنة 1242/640 - الخليفة السعيد الموحدي واسترجع المدينة .

(157) د/ص 411

(158) ذهبنا إلى هذا التحديد نظرا إلى أنَّ جلَّ القصائد التي قالها الشاعر بطلب العفو من أبي زكريا ذكر فيها الأمير محمدا باعتباره وليا للعهد ومن المعلوم أنَّ هذا الأخير تولى عهد أبيه بعد وفاة أخيه يحيى سنة 1248/646 . زيادة على ذلك ذكر أبو المطرف ابن عميرة في إحدى رسائله (انظر ابن شريفة : أبو المطرف ص 148) أنَّ ابن الأثير كان سحاية سنة 1249/657 وما قلها .

من الضنك والفقر يُرئى لها ، فيتحدث عن أطفاله وجوعهم بطريقة تذكرنا بأطفال الحطينة وهو ملقى في غياهب سجن عمر بن الخطاب . قال [الطويل] (159) :

- 10- وَلَوْلَا أَطْفَالُ طَوَاهِمِ طَوَاهِمِ فَأَعْظَمُ مَا يَنْقَى جُلُودَ وَأَعْظَمُ
12- هُمْ أَشَدُّ مِنِّي قَلِيلِي الْيَلِ بِمَعْجَزَتِي غَنِيَّتِي وَيَوْمِي أُيُومِ
13- خَوَائِجُهُمْ تَذْكُرُ لِيَّيْنَا وَتَنْظُرِي وَأَعْيُنُهُمْ تُهْبِي لِحِمَا وَتُسْجِمُ
14- تَحَالُهُمْ فِي شَجْوِهِمْ وَأَنْتَابِهِمْ حَمَامًا عَلَى أَفَانِهِمَا تَنْزِلُ

ومع ذلك لم يتسرع الشاعر في الرحيل بل بقي يترقب عفوا من لدن السلطان [الطويل] (160) :

- 15- وَرَجَيْتُ أَيَّامِي وَرَجَيْتُ فُرْجَةَ وَلَمَّا نَسِرُ مُسَرِّي بِرَحْلِي وَمُنْجِمِ
16- كَفَائِي الرُّضَى وَالْأَذْنَ زَادَا لِي طَيْشِي حَمَائِي مَعْنَى حَيْثُ كُنْتُ وَمَعْنَى
17- وَكَمْ رُمْتُ فِي دَارِ الْخَلَاةِ- أُيْدْتُ- قَرَارًا فَأَغْيَا ، وَالْمَسَائِبِ أَسْنَى
18- وَكَمْ لَحْتُ مَعْدُودًا يُلَوِّحِي الصُّدَى وَبَحْرُ نَدَامَا مُزِيدُ الْمَوْجِ بِحُزْمِ
ولمَّا يس من ذلك اضطر إلى الرحيل [الطويل] (161) :

- 7- بِرَغْمِي أَرْمَعْتُ الْمَسِيرَ عَنِ الْعُلَى وَصَرَفُ اللَّيَالِي لِلْمُجِيبِ مَرْغَمِ
9- دَعَانِي لِتَرْجَالِي اضْطِرَارًا وَلَمْ يَزَلْ يُخَلِّلُ مَا أَضْحَى عَلَى الْمَرْءِ يَخْرُمِ
10- وَلَوْلَا أَطْفَالُ طَوَاهِمِ طَوَاهِمِ فَأَعْظَمُ مَا يَنْقَى جُلُودَ وَأَعْظَمُ

إن تقدم سن الشاعر واضطراره إلى الرحيل ثانية بعد أن اتخذ عاصمة الخلافة الحفصية وطنًا ثانيًا له ، ليحز في نفسه ويؤلمها ويجعله يتجرع مرارة خيبته وحرمانه علقما . قال [الوافر] (162) :

- 38- أَحْبَبْتُ إِلَى الْوَدَاعِ وَقَدْ دَعَانِي عَلَى كُلِّبٍ يَسْرُحِ وَأَشْيَاقِ
39- وَمَا دَارُ الْإِمَارَةِ بِأَلَيْسِي لِأَيْمِ لَبْنِيْنَهَا حَظِيلُ الْمَاقِي

(159) د/ص 259 .

(160) د/ص 259 .

(161) د/ص 258 .

(162) د/ص 391 .

- 40- وَقَدْ وَافَيْتَهَا عَبْدًا صَرَّاحًا فَكَيْفَ أُعْسِبُ مُلْكِي بِالْإِبْقَاءِ
41- لَقَدْ قَدَحَ الْعَزَاءُ فَلَمْ يُطْفِئْهُ رَجِيْلٌ مِمَّا أَرَاهُ بِالْمُطْلَاقِ
42- فَإِنْ رَأَيْتُ جِسْنًا فِي سَرَّاحٍ فَقَدْ فَارَقْتُ قَلْبًا فِي وَثَاقِ

وبصيص الأمل الذي يقي يستير به الشاعر في مدلهجات المصائب هو أنه منتقل من عاصمة السلطان إلى مدينة ولي العهد . وما حرم منه لدى الأول قد يستعيده لدى الثاني . وعسى أن يكره المرء ماله فيه تحقيق رغباته وأمانيه . قال [الطويل] (163) :

- 20- عَلَى أُنْبِيٍّ مِنْهَا إِلَيْهَا تَقْلِي لِيَفْرَجَ بَابٌ فِي التَّكْسِبِ مِنْهُمْ
21- أَلَيْسَ وَلِيِّ الْعَهْدِ قِبْلَتِي أَلَيْسَ أَوْجُهُ وَجْهِي تُخَوِّفَا وَأَيْمُنُ
22- عَسَى لَا تَقَالَ الْحَالِ نَادَتْني الْمَنَى فَلَا مَرْيَةَ أُنْبِيَّ مُنَادَى مُرَحَّمُ
5- وَإِنْ لَكُ بِالْثَّاصِرِ يَتَصَوَّرُ يَقُلُ خَمِيسَ الْبُؤْسِ وَهُوَ عَزْمَرَمُ

وفي بجاية يقضي الشاعر عدّة سنوات ، ويلتقي بصديقه أبي المطرف بن عميرة ، وترجم له الغبريني باعتباره أحد أعلام هذه المدينة . وبها يضع أو يكمل عدّة تصانيف ، ويرتقب من السلطان عفوا فلا يحصل عليه ، فيشكو ويتذمر لقد طال غضب السلطان فطال الانتظار وعيل الصبر . قال [الزمل] (164) :

- 1- أَسْرَفَ الدَّهْرُ فَهَلْ أَقْصَدَا مَا عَلَيْهِ لَوْ شَقِيَ بَرْخُ الصَّدَى
2- يَنْقُضِي يَوْمِي كَأَمْسِي خَيِّتُهُ أَلَدًا أَقْرَعُ بَابًا مُوَصَّدَا
3- طَالَ قَدْجِي لِأَمَانٍ أُخْلِفْتُ وَعَتَاءٌ قَدْحُ زُنَيْدٍ صَلَّدَا
8- لَا أَوْدُ الْعُمْسَرَ الْقَهَّاهُ إِذَا عَزَّ فِيهِ مَا يُقِيمُ الْأَوْدَا
9- حَسْبِي اللَّهُ لِيَشْتَقِيَ نُوبَ لَيْسَ يُخَصِّيهَا حِسَابُ أَبَدَا
10- قَدْ خَلَعْتُ الصَّبْرَ فِي أَثْنَائِهَا فَرُطَ جَهْدٍ وَلَيْسَتْ الْكَمَدَا
11- أُنَا جَارُ الْبَحْرِ إِلَّا أَنْ لِي مِنْهُ فِي حَالِ الْوُزُودِ الثَّمَدَا
13- وَعَلَى ذَلِكَ يَأْتِنِي فَلَا تُبْأَسِي إِنْ مَعَ الْيَوْمِ غَدَا
14- لِلْإِسَامِ الْمُرْتَضَى مِمَّا مَضَى خَلَفَ يُولِيكَ عَيْنًا رَغَدَا

(163) د/ص 9 — 258

(164) د/ص 60 — 159

ويدور أن الشاعر كان وهو بجاية مغضوب عليه يتقاضى مرتباً كل شهر وكان ضئيلاً لا يفي بالحاجة . قال [الكامل] (165):

- 9- هَلْ شَرَبْتُ مِنْ أُنْجَرٍ الْخَذَوِي سِوَى ثُمَّ يَفِيضُ لِرَأْسِ كُلِّ هِلَالٍ
20- إِنْ لَمْ تُقْذِني ضَبْعَةً أَوْ صَنْعَةً فَطَيَّاعُ أُحْوَالِي مِنَ الْأُحْوَالِ

ولقد فكر الشاعر وقد غلب عليه اليأس أن يعصي أوامر السلطان ويعود بدون إذن إلى تونس . قال شاكياً متذمراً [الكامل] (166) :

- 46- يَسَا لِلرُّمَّاسِ أَعْلَى بَرْمَانِيَّةِ أَصْبَحْتُ بِالْإِخْلَادِ فِيهَا أَقْبَعُ
47- لَا بُرَّةَ مِنْهَا يُسْتَفَادُ بِجِيلِيَّةِ فَأَلَى الرُّضَى بِالْحُكْمِ فِيهَا الْمَرْجِعُ
48- مِنْ أَيْنَ لِي صَبْرٌ عَلَى مَضَضِ النَّوَى سُدَّتْ إِلَيَّ الصَّبْرُ الطَّرِيقُ الْمُهَيَّعُ
49- نَسْؤُا التَّكْرُهُ أَنْ أُحِلَّ بِطَاعَةٍ لَسَعَيْتُ زَخْفاً أَسْتَقْبِلُهُ وَأُظْلَعُ
50- وَيَأْنُ وَكَبَلْتُ إِلَيَّ الْأَمِيرَ مُحَمَّدَ عَذَبَ الْأَمْرُ مِنَ الْفِرَاقِ الْأَقْطَعُ

إن ما يخفف عن الشاعر في كل مرة يشكو فيها ويتذمر هو وجوده بجوار ولي العهد في بجاية وأمله في غفو السلطان . لكن قد ينسى كل ذلك ويفقد السيطرة على أجزائه فيقول متفجعاً [الوافر] (167) :

- 1- أَيُّنَ وَاشْتِيَّاقَ وَارْتِيَّاعَ لَقَدْ حُمِلْتُ مَالاً يُسْتَطَاعُ
3- وَزَوَّعَنِي الْفِرَاقُ عَلَى اخْتِمَالِي وَمَنْ ذَا بِالْفَقْرِ لِي لَا بُرَاعُ
4- بَعَيْنِ اللَّهِ حِفْظِي دُونَ يَخِيئِي وَكَيْفِي مَا يُضَاعُ وَمَا يُذَاعُ
5- لَزِمْتُ الصَّبْرَ حَتَّى عَمِلَ صَبْرِي وَبَانَ الْعِزُّ إِذْ جَسَدَ الزَّمَاعُ

ويدور أن الشاعر مر بثلاث مراحل في الشكوى والاستعطاف وهو بجاية . ففي الفترة الأولى — ويدور أنه لم يتصل بعد بأمر بجاية وولي العهد — كان يستشفع بأبناء أبي زكريا دون تحديد . قال [الوافر] (168) :

- 26- أُمُؤْلَايَ وَمَسَاؤُلِيَّتِيهِ فَأَتَمِّنْهُ ، مِنْ النُّعْمِ الْجِسَامِ
27- وَسَوْغَنِي الشُّنُوعِ فِي الرُّضَى مِنْ نَيْبِكَ بِكُلِّ جَحْجَاحِ هُمَامِ

(165) د/ص 40 — 239 .

(166) د/ص 354 .

(167) د/ص 5 — 364 .

(168) د/ص 262 .

28- براني طول إقصاء غزائي وفي يفتناك برة للسلام

29- ولو أني لفت الجود منها عفت بالسري آثار الأوام

وفي مرحلة ثانية استشفع بولي العهد دون تعيين هل هو يحيى أو محمد ؟ قال
[البسيط] (169) :

73- علمي بآل أبي خنصر يعلمني مذائح ابن حنين آل جندالسا

74- وصدق حبي لا سلوان يكذبهُ فيهم وإن اتبع الهجران هجرانا

75- عسى وعمل ولي العهد ينفع لي فاستعبد من الثريب ما بآسا

وكانت المرحلة الثالثة في آخر أيام السلطان أبي زكريا ، فقد مات ولي العهد أبو يحيى فاغتم والده لوفاته واعتل ، وكان ذلك فرصة للشاعر ليصل إلى قلب أبي زكريا وقد نال منه الغم والمرض ، فينال رضاه . قال بعد أن هنأه بشفاؤه من مرضه
[الوافر] (170) :

18- أمولائي أنادي بمن نعيد ليظفري بي بإذنائي النذاء

19- ولو أن الهوى بالقصد واف لفسار إليك (بالقلب) الهواء

26- لعل غلاك توسعني يحيى قبولا . إنه نعم الجباء

وليسرع بنيل رضى السلطان تشفع بولي العهد الجديد محمد وهو الذي خلف أخاه يحيى في ولاية العهد وعلى إمارة بجاية . قال [الكامل] (171) :

11- ولئن غلتك من الضنى سمة فالمشرفي يزيه الفل

12- بشفائك الميئون مطلقه كصت على أغقابها العل

36- يا حادي الخلفاء مغيرة إن الأيسادي ما بها قبل

37- وعسى قبولك أن تجود به خلسا لخال شأنها العطل

38- أملي إلى عليك منقطع وتوسلي لرضاك مستطيل

(169) د/ص 311

(170) د/ص 51

(171) د/ص 2 - 241

39- أَكُلْ اخْتِيَارِي لِاخْتِيَارِكَ لِي وَعَلَى زِلِّي الْعَهْسِدِ أَتَكِلُ
40- حَسْبِي الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ سَنَدًا يَجْلَلُ لَهُ يُسْتَدْفَعُ الْجَلْسَلُ

وأخيرا يحصل الشاعر على عفو السلطان ، فكان يوم وصوله بالنسبة إليه عيداً ثالثاً يضاف إلى عيد الاضحى وعيد الفطر [الوافر] (172) :

45- قَدْ عَزَّرَ الْعِيدَيْنِ عِنْدِي ثَلَاثَ الْفَطْرِ وَالْأَضْحَى وَيَوْمَ رِضَاهُ

وقد عبّر الشاعر عن بهجته بهذا العفو في قصيدة أخرى فقال [الطويل] (173) :

3- وَزِدْتُ لِدَاهُ الْعُمْرَ غَيْرَ مُصَرَّدٍ وَنَلْتُ رِضَاهُ الْجَمَّ غَيْرَ مُصَرَّمٍ

8 - القبائل :

إن حديث ابن الأبار عن القبائل يندرج في نطاق علاقة هذه القبائل بالدولة الحفصية الفتية . ولم تكن هذه العلاقة حسنة في كثير من الأحيان لهذا نجد ابن الأبار — وهو الناطق الرسمي باسم السلطان الحفصي — إمّا متشفياً مما أصاب هذه القبائل أو مهتداً لها لما سيؤول إليه أمرها على يد الممدوح . قال متشفياً [الكامل] (174) :

19- وَإِقْبَالُكُمْ سَلَبَ الْقَبَائِلِ بَأَوْهَا (175) وَكُنَّا الْبُطُونُ الْهَوْنُ وَالْأَنْحَاذُ

وقال مهتداً [الزمل] (176) :

57- لَيْسَ يَرْجُو مَنْ عَصَى مُعْتَصِمًا مِنْ عَوَالِيهِ وَلَا مُعْتَصِرًا (177)

58- هَذِهِ الْأَحْيَاءُ قَدْ دَوَّخَهَا فَسَلِ الْبَيْضَ بِهَا وَالسُّمُرَا

60- غَادَرَ الْعُدُورُ وَمَنْ دَانَ بِهِ لِلْعَوَالِي وَالْعَوَافِي جَزَرَا

(172) د/ص 410 .

(173) د/ص 288 .

(174) د/ص 184 .

(175) البأو : الفخر والتكبر .

(176) د/ص 188 .

(177) الملجأ .

وهذه القبائل على ثلاثة أصناف :

— صنف أول :قبائل من أحلاف مناوية من الموحدين أو بني عبد الواد . ومن هذا الصنف نجد :

— قبيلة سفيان التي كانت مع السعيد عندما هجم على تلمسان وقتل سنة 1248/646 . قال ابن الأبار [البيط⁽¹⁷⁸⁾] :

49— سَافَتْ رِيَّاحُ الْمَتَايَا مِنْ سُوفِهِمْ سُفْيَانٌ فَأَنْهَزَمَتْ يَا وَيْحَ سُفْيَانَا

— وعرب المعقل وهم ممن تخلّوا عن السعيد في حصاره لتلمسان وكانوا مع الخلط السبب المباشر في انكساره ومقتله⁽¹⁷⁹⁾ . قال ابن الأبار [البيط⁽¹⁸⁰⁾] :

50— وَالْمُعْقِلُونَ لَوْلَا أَنَّهُمْ عَقَلُوا⁽¹⁸¹⁾ نَجَاءَهُمْ مَا نَجَوْا شَيْئًا وَشُبَّانَا

— وبنو سويد من بني مالك بن زغبة وكانوا أحلافًا لبني عبد الواد⁽¹⁸²⁾ مناوئين لأبي زكريا وخاصة عندما زحف على تلمسان سنة 1242/640 . قال ابن الأبار [وافر⁽¹⁸³⁾] :

65— وَابْتُ مُسَوِّدٌ لَيْسِي سُوَيْدٌ مُقَوِّدٌ بِالْجَرَائِرِ فِي جَرِيرِ⁽¹⁸⁴⁾

— صنف ثان :من القبائل يذكر الشاعر عداوتهم لبني حفص ولكنهم اضطروا في نهاية الأمر إلى الخضوع لهم كقبيلتي زغبة ورياح من بني هلال . وكانت الأولى مقيمة

(178) د/ص 309 .

(179) ابن خلدون : العبر : 535/6 .

(180) د/ص 309 .

(181) د/ص الشاعر يعتبر غدر عرب المعقل بالسعيد الموحدي هو ضرب من التعقل أنجاهم من الهلاك على يد ممدوحه أبي زكريا .

(182) ابن خلدون : العبر : 95/6 .

(183) د/ص 197 .

(184) د/ص جرير : زمام الناقة أو الحل .

وبرقة وقطن أخرون أوراس . قال الشاعر [الطويل] (190) :

22- بِحَسْبِكَ فِي مُسَوَّارَةٍ وَزَنَائِيَةٍ وَقَائِمُهَا نَهْهَا سُلَيْمٌ وَعَامِرُ

ولئن نوه الشاعر بهم ومجد بطولتهم وخاصة زناته فليظهر مدى قوة مدحهم وشجاعته على طريقة عترة في الفخر [الطويل] (191) :

- 9- عَصَاةَ أَطَاعَ اللَّهَ فِيهِمْ مُبِيرُهُمْ فَخَصَّهُمْ قَلْدًا وَعَتَّهُمْ دَقًّا
10- أَحَامِسُ ثَمِيهِمْ زَنَائِيَةٌ لِلْوَعَى وَحَقٌّ عَلَى الْأَغْصَانِ أَنْ تُشْبِهَ الْعِرْقَا
11- نَرَى بِهِمْ مِنْ قَامَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ رُذْنِيَّةَ ذُبْلًا وَهِنْدِيَّةَ ذُلًّا
12- وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ لَيْسَ تُعْدِيهِمُ الظُّبَى فَمَا مِنْهُمْ مَنْ لَأَنْ طَبَعَا وَلَا رَقَا
13- غَلَاظَ فِظَاطٍ مَا لِمُذْرَةٍ (192) عَذْرَةٌ لَدَيْهِمْ إِذَا هُمْ أَحْدَثُوا مَوْتَهُمْ عِشْقًا
14- وَأَخْرَقَ خَلْقَ اللَّهِ حَتَّى إِذَا رَدُّوا لِسْقَى الرَّدَى أَقْرَأَهُمْ يَهْرُوا جَذَقَا
15- أَتَتْهُمْ جُنُودُ اللَّهِ (193) تَصْمُدُ صَمْدَهُمْ فَحَقٌّ عَلَيْهِمْ صَبْحَةُ السَّيِّ (194) مَا حَقًّا

وبدأت هذه القبائل تغير مواقفها من الدولة الحفصية بعد فتح تلمسان . فقال الشاعر مبينا تخلي قبيلة زناته القوية عن الطرق التي كانت تستعملها ضد خصومها [وافر] (195) :

63- وَزَانَ زَنَائِيَةٍ أَنْ لَمْ يَشْفُهَا شِقَاقُ جَامِعٍ وَزَرَ إِلَى زُرُورٍ

ويبدو أن هذه القبيلة بالذات خضعت للحفصيين أو لحلفائهم بني عبد الواد ، وربطت مصالحها بمصلحة دولتهم . ولهذا نرى الشاعر ينوه بشأنهم قائلا [البيط] (196) :

51- لِلَّهِ صَيْدُ زَنَاتِيُونَ تُحْسِبُهُمْ أَسْدًا إِذَا أَفْتَسَرَسُوا الْأَقْرَانَ سِيدَانَا

(190) د/ص 212 .

(191) د/ص 1 - 380 .

(192) قبيلة من العرب عرفت بالحب الطاهر العفيف حتى أصبح يُعرف بها .

(193) جنود المدوح وهو أبو زكريا .

(194) يوم فتح تلمسان 1242/640 .

(195) د/ص 196 .

(196) د/ص 309 .

- 52- أَحْلَهُمْ رَبُّ الْأُمْلَاكِ جَاءَهُمْ فِي يَدَيْهِ الْقَائِمِ الْحَفِصِيُّ عَيْدَا (197)
53- صَالُوا صُفُورًا بِحِزَانٍ (198) جَثَّ قَرَقَا وَطَالَ مَا صُرِّصَتْ فِي الْحَرْبِ عِقْبَانَا

أما الصنف الثالث فهي قبائل يبدو أنها استمرت إلى حين على عداوتها للحفصيين كبنو سليم (199) وكانوا مع ابن غانية ضد الموحدين ثم الحفصيين وبنو الجبار (200) وهي قبيلة نازلة قرب بجاية . قال الشاعر متشفيًا فيهما لما بدد شملهما أبو زكريا [الوافر] (201) :

- 66- وَجِئْتُ مِنْ بَنِي الْجُبَارِ أَوْدَى عَلَى صُغُرٍ بِلَهْذِمِهِ الطَّرِيرِ
67- وَضَحَّى بِالْعُصَاةِ بَنِي سَلِيمٍ ضَحَّى بِؤُمٍ غُبُوسٍ قَطَطِيرِ

ومن هذا الصنف يذكر ابن الأثير قبيلة سدويكش المقيمة بين قسنطينة وبجاية (202) وأحد فروعها أولاد سَوَاقٍ (203) . قال وقد نال منهم الممدوح [الوافر] (204) :

- 32- أَعْنِ سُدُوكْشَ تَنْوُظْنَاهُ وَمِنْ غَادَاتِهِا فَرْيُ الْقَرْيِ
46- وَكَيْفَ رَجَا ابْنُ سَوَاقٍ نَجَاةً وَلَيْسَ لَنَا عَنْهُا بِالنَّجِيِّ

(197) إن خدمتهم للدولة الحفصية يؤتاهم رتب الملوك والأسياد . وأشار صاحب مقال (زنانة) في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية ج 10 ص 416 أن فرعا من زنانة أصابه الوباء في السهول حيث غدوا عبيدا للعرب الرحل .

(198) حِزَان : ذكور الأرناب .

(199) د/ص 196 تعنيق 25 — ابن خلدون : العبر : 71/6 — 596 .

(200) د/ص 196 تعنيق 24 — ابن خلدون ص 101 .

(201) د/ص 197 .

(202) ابن خلدون : العبر : 303/6 .

(203) ابن خلدون : العبر : 304/6 .

(204) د/ص 427 .

وكان الشاعر وهو يمدح الحفصيين يخيف القبائل العربية بما فعله الممدوح بالقبائل
البربرية قال [الطويل]⁽²⁰⁵⁾ :

- 22- بِحَسْبِكَ فِي هَوَازَةٍ وَزَنَائَةٍ وَقَائِعُ هَابَتِهَا سُلَيْمٌ وَعَامِرٌ
23- تُعَادُ إِلَى النَّحْرِ الْوَحْيُ قُدُومُهَا بِمَا عَظُمَتْ آثَارُهَا وَالْجَرَائِرُ
ويخيف جميعهم بتذكيرهم بوقائع الحفصي فيهم . قال [الطويل]⁽²⁰⁶⁾ :

- 47- لَهَا⁽²⁰⁷⁾ فِي سُلَيْمٍ مَالُهَا فِي زَنَائَةٍ وَهُوَازَةٍ مِنْ عُدَّةِ الْهَضْ⁽²⁰⁸⁾ وَالرُّفَصِ⁽²⁰⁹⁾
والشاعر في حالات اندفاعه التمجيدي لأبي زكريا يجمع مختلف القبائل والأجناس
في فرعها من الممدوح ، فلا ترى ألا وفودها وهي تقدم له فروض الطاعة والخضوع .
قال [الطويل]⁽²¹⁰⁾ :

- 5- لَكَ الْخَيْرُ هَذِي الْعُجْمُ وَالْعَرَبُ تَقْتَدِي بِهَا مُسْتَنَاتٌ أَوْ نُرُوحُ رَوَاجِلُ
6- تَمْلِكُهَا رُغْبٌ وَرُغْبٌ مُحَامِرٌ قَرُسُلٌ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى وَرَسَائِلُ
7- وَرَدَّ عَلَى رَغْمِ الْأُتُوفِ وَجُوهَهَا إِلَيْكَ أَسَاطِيلُ سَطَتْ وَجَحَافِلُ

9 — الدولة الموحدية :

إن موقف ابن الأثير من الدولة الموحدية هو موقف ملتزم للسياسة الحفصية. لهذا لا
يترك أية فرصة تمر — وهو يمدح سلاطين هذه الدولة الصاعدة وأمرائها — إلا ونال
من دولة عبد المؤمن الضعيفة المنحلة ، وذلك بالتشديد بأعمال أواخر خلفائها منذ
المأمون الموحد ، وبالتحريض عليها للتخلص منها .

(205) د/ص 212 .

(206) د/ص 334 .

(207) خيول الممدوح .

(208) العصر .

(209) الكسر .

(210) د/ص 236 .

ومن وجهة النظر هذه يرى ابن الأبار — بصفة عامة — أنَّ دولة الموحّدين هي دولة قد انتهى أمرها كما انتهى أمر بني أمية في المشرق مع آخر خلفائهم مروان الملقب بالحمار . وبني عبد المؤمن هم أنفسهم على يقين من هذه الحقيقة . قال [الطويل] (211) :

- 41— فَقَدْ أَبْصَرُوا أَلَّا خُلُودَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنْ أَصْبَحُوا عُمَى الْبَصَائِرِ كَالْخُلْدِ
42— وَبِالْغَرْبِ مِنْ أَغْقَابِهِمْ غَيْرُ غَيْرٍ ثَبَّتَنْ أَنْ تَرْدَى إِذَا خِيْتَهُ بُرْدِي
43— وَهَلْ مَلَكَتْ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَقْوَدًا أُمِيَّةٌ بَعْدَ مَرَوَانِيهَا الْخُصْبِ

والشاعر يتجنّب تسمية الدولة الموحّدية باسمها ، لأنّ الموحّدين الحقيقيين — في نظره — هم الذين حافظوا على دعوة المهدي وصحبه ، وهم الحفصيون . فتراه يستهين تارة بني يعقوب نسبة إلى حذمهم يعقوب المنصور الخليفة الموحد الرابع وبطل معركة الأرك الشهيرة . قال ابن الأبار [الكامل] (212) :

- 28— أَمَا بَنُو يَعْقُوبَ قَدْ أَوْدَى بِهِمْ مِنْ بَأْسِهِ الْإِرْهَابُ وَالْإِرْهَاقُ

وتارة يرجع نسبهم إلى قيس أي قيس عيلان من عرب قحطان . وهذا في نظر ابن خلدون منكر من القول وزور . قال الشاعر [الطويل] (213) :

- 36— أَدَارَ عَلَى قَيْسٍ وَأَمْلَأَ كَيْفَا الرَّدَى قَلَمُ يَكُ عَنْهُمْ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ رَدَى
37— وَتَا اللَّهُ مَا شَرُّ أَيْلَادٍ وَغَرَبِيَا لِسُلْطَانِهِ إِلَّا هَذَا بَا لِمُسْتَهْدِ

ووجد ابن الأبار في مواقف بعض خلفاء الموحّدين وسلوكهم مجالا للتشديد بهم والتنويه بيمدوحه أبي زكريّا . فقد رفض المأمون الموحد ، بعد رجوعه إلى مراكش من الأندلس سنة 1228/626 ، مذهب ابن تومرت «وأشاع التكبير على المهدي في العصمة وفي وضع العقائد والثناء للصلوات باللسان البربري وأسقط اسم الإمام في الخطبة والسكة وأعلن بلعنه» (214) واستغلّ أبو زكريّا هذا الانحراف عن الدعوة

(211) د/ص 165

(212) د/ص 388

(213) د/ص 164

(214) العبر ط . دي سلات 1847 ص 386

الموحديّة فقطع الخطبة للمأمون سنة 1228/626 وأسندها لمنافسه يحيى بن الناصر ثم أزال اسم الناصر من الخطبة 627/ نهاية فيفري 1229 . وأصبحت الخطبة باسم المهدي والخلفاء الراشدين . وباتت الدولة الحفصيّة تمثل الاستمراريّة الشرعيّة للدولة الموحديّة ، بل هي التي أنقذت الدّعوة المهدية من الانحراف وأقامت الحق بعد خمود . قال ابن الأثير [الزميل] (215) :

20- إِنَّمَا ذُوْلَةُ بَيْحَى رَحْمَةً لِلْبَرَّايَا وَحَيَاةٌ لِّلْهُدَى
23- تُشَرُّ الدَّعْوَةُ لِمَا هَمَدَتْ وَأَقَامَ الْحَقُّ لِمَا قَعَدَا

والمحاطة على دعوة المهدي من الزّيع والانحراف ، أو الاضمحلال والزوال هو هدف سام دعا إليه جد الحفصيين وهو أبو حفص أحد أتباع المهدي العشرة . ولم يكتف بذلك بل وصّى به أبناءه من بعده ، لذلك لا يمكن لمدّع أن يدّعي أنّ الحفصيين اتخذوا من الدّفاع عن مذهب المهدي ذريعة للوصول إلى السلطة . فهذا المذهب هو جزء من عقيدتهم ورثوه أبا عن جد . قال ابن الأثير [الطويل] (216) :

40- هِيَ الدَّعْوَةُ الْمَهْدِيَّةُ اسْتَخْلَصَتْ لَهَا نُهَى الْقَائِمِ الْهَادِي فَكَانَ لَهَا خِلَصًا
41- بِإِظْهَارِهَا وَصَّى أَبُو حَفْصٍ الرُّضَى نَبِيًّا قَوْفَى دُونَهُمْ مَا بِهِ وَصَّى

وهكذا ينفرد الحفصيون بالشرعيّة الموحديّة عوضا عن حكام مراكش ، فدولتهم هي دولة مهديّة عقيدة ومذهبا ، عمرية (نسبة إلى عمر بن الخطاب) نسا وسلوكا . قال الشاعر [الكامل] (217) :

35- وَإِبَالَةَ مَهْدِيَّةَ عُمَرِيَّةَ أُوذِيَ بِدَعْوَتِهَا الضَّلَالُ وَطَاخَا

وبمسكها بالدعوة المهدية في الأرض سيأتيها السند من السماء قال [البسيط] (218) :

17- بِمَظْهَرِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ مُتَّصِلٌ وَإِتْبَاعِ هُدَى الْمَهْدِيِّ مُتَّصِفٌ

(215) د/ص 160

(216) د/ص 342

(217) د/ص 115

(218) د/ص 374

وكان المأمون الموحدي عندما عزم على مغادرة الأندلس والرجوع إلى مراكش استعان بفرقة مرتزقة من الجيش التصрани رافقته في عبوره من العدو الأندلسية إلى العدو الإفريقية . واشترط عليه ملك قشتالة الذي أمده بهذه الفرقة أن يسمح للتصاري ببناء كيسة لهم بعاصمتهم مراكش .

ووجد الشاعر في هذه العلاقات مع التصاري الفرصة للتنديد بالمأمون الموحدي وبين جاء بعده من الخلفاء ونهجوا نهجه . وهو يأمل أن تكون المرحلة الثانية بعد استيلاء الممدوح على تلمسان ووصول بيعة فاس وسبته أن تأتيه بيعة الزوراء (بغداد) ، ولم يبق بعد ذلك إلا الدخول إلى مراكش منتصرا ، ناشرا فيها العدل والأمن ، ومطهرها من الكفر والرجس . قال [الطويل] (219) :

- 7- إِذَا الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى رَمَى بِقِيَادِهِ إِلَيْهِ فَمَاذَا يَصْنَعُ الْمَشْرِقُ الْأَذْنَى
- 8- كَأَنِّي - بِالزُّرَّاءِ تُخْطَبُ أَمْسُهُ وَقَدْ بَثَّ فِي مَرَائِشِ الْعَذَلِ وَالْأَمْنِ
- 9- وَزَحْزَحَ بِالْتَّوْجِيدِ عَنْ حَبَائِبِهَا غَضَائِبَ لِلتَّلْبِيسِ جَارُوا بِهَا سَكْنَى
- 10- كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مَغَانِيَا فَهَا هِيَ لِلْكَفَّارِ وَأَسْفَا مَغْنَى
- 11- يَمُزُّ عَلَى السُّنَنِ الْمَصَاقِعِ أَنَّهَا تَرَاطُنُ فِي أَقْدَانِهَا عَجْمًا لُكْنَا
- 12- هُمْ اتَّخَذُوا فِيهَا الْكُنَائِسَ ضِلَّةً وَهُمْ جَعَلُوا إِلَيْهِ فِيمَا افْتَرَوْهُ إِنَّا
- 13- وَكَمْ سَيِّدٌ مِنْهُمْ يُطَاعُ اخْتِكَامُهُ عَهْدَنَاهُ غَبْدًا لِلْعَبِيدِ بِهَا قُنَا
- 14- ضَمَّانٌ عَلَى سَيْفِ الْإِمَارَةِ بَرِيهِمْ وَإِرَاءُ قَسْوَمٍ يَتَنُّ أَظْهَرِهِمْ ضَمْنَا
- 15- وَأَمَا تِلْمِصَانٌ وَفَاسٌ وَسَبْتَةٌ فَبِئْسَ لِكُلِّ لَيْمُنَاهُ أَعْتَقَهَا تَنْتَنَى

وواصل الشاعر التأكيد على هذه النقطة في قصائده المدحية ، بعد أن تولى الخلافة السعيد الموحدي . وهو يرى أن هذا الخليفة بعيد كل البعد عن الإيمان بالله سواء أكان ذلك حسب العقيدة التصرائية أو العقيدة الإسلامية . قال ابن الأثير يهجو السعيد ملقباً إياه بالغراب لأنه كان أسود اللون [البيط] (220) :

- 5- مُسْتَبْصِرًا فِي عَمَى أُبْلَى الْأَذَانِ أَدَى مِمَّا اسْتَحْجَدُ تَوَاقِيسًا وَصُلْبَانَا
- 8- لَمْ يَثْنِ غَيًّا إِلَى رُشْدٍ أَعْتَشَهُ لَا بَلْ تَعَلَّقَى أَصْنَامًا وَأَوْثَانَا

(219) د/ص 296

(220) د/ص 6 - 305

- 9- أَذَالَ مِنْ عُلَمَاءِ الْوَحْشِيِّ يُجَزِّئُهُمْ بِحَبْرَةٍ (221) الشَّرَكَ أَحْبَارًا وَرَهْبَانًا
10- إِذَا هُمْ هَيَّئُوا (222) أَصْنَى لَهُمْ طَرَبًا بِحَالِ ذَلِكَ أَوْ تَارًا وَالْحَانَا
11- وَالْحَالُ شَاهِدَةٌ أَنْ لَيْسَ مُنْتَقِدًا حُكْمُ الْكُنَائِيْنَ إِنْجِيلًا وَقُرْآنًا
21- بَعْدًا لَهُ مِنْ غَرَابٍ قَائِدٍ رَحْمًا (223) مَلَأَ الْمَلَا تَعْدُ الدُّبَانُ غَدَوَانَا

والسعيد عند ابن الأبار بقسوته وسوء معاملته لرعيته قد فُحِ خَلَقًا وَخُلِقًا كَمَا فُحِ
سلوكا وسياسة عندما واصل الاستعانة بالتصاري ، قال الشاعر [البيضا] (224):

- 15- أَفَاضَ رَحْمَةً (225) فَانْقَضَ مَعْتَرِفًا (226) إِلَيْهِ مِنْ حَوْلِ فَطَ الْقَلْبِ (227) قَاسِيَهُ
19- بِالرُّومِ رَامَ انْتِصَارًا فِي مَذَاهِبِهِ أَلَيْسَ قَدْ رَأَى مِنْ تَغَامِيهِ

ويربط الشاعر ثانية وهو يمدح أبا زكريا بين سواد لون السعيد وسوء سياسته بتعاونه
مع الحامية القشتالية، ويقارن بينه وبين كبار المرتدين بعد انتقال الرسول إلى الرفيق
الأعلى . قال [الطويل] (228):

- 14- وَإِنْ عَدُوُّ الدِّينِ مِنْ ظَاهِرِ الْعَدَى لِيُخَذَّلَهُ فَاسْتَنْصَرَ الشَّرَكَ وَاسْتَشْفَضَنِي
15- يُعْبَادُ عَيْسَى هَاضِ أُمَّةَ أَحْمَدَ لِأَشْيَائِهَا بِحُسْنٍ وَأَغْنِيَهَا بِحُسْنٍ
17- ذَرَى الْأَسْوَدُ الْقَيْسِيَّ (229) أَنْ أَمَامَهُ رَذَى الْأَسْوَدُ الْقَيْسِيَّ (230) مُشِيهِهِ غَرَضًا

(221) الحبرة : ملاءة الرهبان .

(222) الإشارة إلى ترانيم الرهبان .

(223) الرخم ج رحمة : طائر على شكل الترس بخلفه منقح بسواد وبياض معروف بالغدير والحمق .

(224) د/ص 412

(225) الضمير يعود على أبي زكريا .

(226) الضمير يعود على الخلافة .

(227) فط القلب : السعيد .

(228) د/ص 339

(229) الأسود القيسي : السعيد .

(230) الأسود العسِّي : من زعماء المرتدين بعد وفاة النبي .

والسعيد بجيشه الوفير وحلفائه التصاري سوف لن يكون مصيره إلا كمصير غيره من الخائنين المغرورين . والحفصيون تعودوا مواجهة الكثرة بالقلة وانتصروا ، شأنهم في ذلك شأن المسلمين الأوائل . قال ابن الأثير [السيط] (231) :

- 41- أَصْبَا الْمُنَاصِبُ تَقْوِيْمُ يَرْبُصُهُ مِنْ فَوْزِهِ فَاعْتَدَى يَنَأَى وَيَنَادِ
- 42- وَالرُّومُ نَارَعُ أَمْرَ اللَّهِ يَا عَجَبًا! مَتَى تَسَوَّزَنَ إِبْغَاوَاءُ وَإِرْشَادُ؟
- 43- هَيْهَاتَ يَخْلُصُ وَالْأَقْدَارُ قَدْ وَضَعَتْ مِنْهَا لَهَا رُقُبَ كُتْرَ وَأَرْصَادُ
- 44- كَمْ عَائِدٍ مِثْلِهِ لَمْ يَخِيْبِهِ وَرَزَّ كَانَتْ لَهُ عُدَدٌ خَائِتُ وَأَعْدَادُ
- 45- لَا يُجِيبُ الْخَائِنَ الْمَغْرُورُ كَثْرَتُهُ فَطَالَ مَا هَرَمَ الْآلَافُ آخَادُ
- 46- أَتَبَاءُ صِبَايَةِ حَفْصِيَّةٍ كَرُمُوا أَرْوَمَةٌ وَيُسْرُ الْأَمْجَادِ أَمْجَادُ

إن ابن الأثير في حديثه عن الموحدين بصفة عامة والسعيد بصفة خاصة ، إنما يعبر عن وجهة نظر أبي زكريا فيه . فالسعيد مثل ، بشخصيته القوية ومحاولة استرجاع هبة الخلافة ، آخر محاولة للتهوض بالدولة الموحدية من كبوتها ، وبالتالي حسم أكبر خطر على الدولة الحفصية . لهذا لما قتل وهو يحاصر بغمراسن أمير تلمسان في قلعة تامر جدرت آخر صفر 1248/646 نزل الخبر بمقتله على نفوس الحفصيين بلسما شافيا : ووجد ابن الأثير المجال فسيحا للتشفي من خليفة كثيرا ما هجاه وسخر منه . قال متحدثا عن حملة السعيد على تلمسان وما آل به الأمر على أبواب القلعة الحصينة [السيط] (232) :

- 27- حَتَّى إِذَا الْعُطْبُ اسْتَحْيَى سَلَامَتُهُ أَقْبَاءُهُ يَتَغَوَّى بَغْيًا يَلْمَسَانَا
- 28- وَكَانَ مِنْ قِبَلِهِ (هِيَ التُّرَاثُ لَهُ) مَا بَالُهُ جَهْلُ التَّضَجِيفِ لَا تَكُنَا (233)
- 29- ظَمَانُ رَاحٍ لِأَنْفِ الشَّرْقِ مُلْتَهَمَا لَكِنْ غَدَا يَنْجِيعُ الْجَوْفِ رِيَانَا
- 31- بِرَمْحَةٍ أَظْهَرَ الْوَجْدُ الْجَمَامَ عَلَى حَيَاتِهِ فَضَاهَا عَنْهُ غَضْبَانَا
- 32- وَاسْتَقْبَلَ الْقَلْعَةَ الشَّمَاءُ فَاقْتَلَعَتْ رُوحَالَهُ . حَبِئْتُ رُوحًا وَجُحْمَانَا

(231) د/ص 141 .

(232) د/ص 307 .

(233) عبارة (هي التراث له) إذا صَحَّتْ أصبحت : هي التراث له أي الغير .

وأشار الشاعر إلى الكمين الذي نصبه الزناتيون أتباع يغمراسن للسعيد ، فكان من نتيجته أن سقط الخليفة من فوق فرسه وأجهز عليه مع وزيره ابن عطوش ، وانتهت محلته وتفرق عسكره . قال ابن الأثير [البيط] (234) :

34- حَتَّى الْجَوَاذُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَغْصِمُهُ أُرْدَاهُ يَقْصِمُهُ بَعْضًا وَهُوَ نَا
40- وَالْقُلُ مِنْ يَتِيهِ أَوْ ذَى الْيَتَا بِهِمْ غَلَى يَذِي أَيْدٍ كَالْعُضْبِ يَقْضَانَا

وسقط بعض حرم السعيد في الأسر كأخته تاغروش (235) . قال الشاعر [البيط] (236) :

56- هَذِي بَنَاتُ أَبِيهِ فِي طَعَائِنِهِ يُبْدِينَ لِلْسَّيِّ إِجْهَاشًا وَإِذْغَالًا

وافلتك منه الزناتيون مصحف عثمان ، وهو المصحف الذي كان الخلفاء الموحدون يضعونه في مقدمة موكبهم . وتذكر بعض المصادر (237) أن الزناتين ، وقد أصبحوا حلفاء لأبي زكريا ، سلموه إليه باعتباره أولى به من الخليفة الموحيدي . قال ابن الأثير [البيط] (238) :

58- إِنَّ الْإِمَامَ ابْنَ فَارُوقِ الْهُدَى عُمَرِ أُولَى بِمُصْحَفِ ذِي الثَّوَرَيْنِ عُثْمَانَا (239)

وهكذا استطاع أبو زكريا بأحلافه من بني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى ، أن يجد من غلواء الموحدين في مرحلة أولى وأن يقضي على آخر أمل لهم في استرجاع مجدهم . وفي نظر الشاعر انتصار هؤلاء على الموحدين

(234) د/ص 8 - 307 .

(235) د/ص 309 .

(236) د/ص 309 .

(237) د/ص 309 .

(238) د/ص 309 .

(239) ذكر المقرئ في التفتح : 605/1 أن هذا المصحف كان موحودا في مقدمة موكب الخليفة الموحدي الواقع سنة 1267/666 .

هو نصر من الله تأتي بطاعة أبي زكريا يحيى الحفصي [السيط] (240) :

- 45- تُجْرِبُ (241) بَيْنَ عِنْدَ الْحَقِّ (242) وَاصْطَلَبُوا وَتَلَّهَا مَا اشْيَخِرَ ابْنُ زَيْنًا (243)
46- أَغَارِجُ السَّنَا لَكِنَّ مَنَاسِبُهُمْ تَنَمَّى إِلَى الْغَرْبِ الْغَرْبَاءِ فَخَطَاءَا
47- مُتُونٌ غِيْلُهُمْ أَوْطَانُهُمْ وَكَفَى عِزًّا بِشَاوِيِ مُتْسُونِ الْخَيْلِ أَوْطَانَا
48- نَادَوْا بِطَاعَةِ يَحْيَى فَاسْتَجَابَ لَهُمْ نَصَرَ مِنَ اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانَا

وبدأت الوفود تتهاافت على عاصمة الحفصيين تدعو العاهل الحفصي لاستكمال المرحلة الأخيرة من فتوحاته ، وهي الاستيلاء على عاصمة الموحدين مراكش والقضاء على دولتهم قضاء مبرما . قال ابن الأبار [الطويل] (244) .

- 1- هَيِّبًا لَوْفِدِ الْعَرَبِ مِنْ صَفْوَةِ الْعَرَبِ قُدُومٌ عَلَى الرُّغْبِ الْمُجِيرِ مِنَ الرُّغْبِ
3- أَلَمْ تَرَهُمْ أَقْبَضُوا إِلَى فَائِضِ التَّدَى فَلَقَاهُمْ بِالنَّائِلِ الرُّخْبِ وَالرُّخْبِ
4- وَقَلَّدَهُمْ لَمَّا كَسَاهُمْ فَلَا تَرَى سِوَى الْعَضْبِ بِلَاحِهِ النُّضَارُ عَلَى الْعَضْبِ

10 — الدَّوْلَةُ الْحَفْصِيَّة :

لقد وصل ابن الأبار إلى إفريقية في بداية عهد الدولة الحفصية . ولا شك أن هذه الدولة في هذه الفترة أي في الربع الثاني من القرن 13/7 في حاجة أكيدة إلى من يشد أزرها سواء أكان ذلك بالسيف أم بالقلم . وسوف لن تجد خيرا من شاعر قدير كابن الأبار لينافح عن مبادئها ويمجد أمراءها وينوّه بشأنها ويحقّر من أعدائها لتثبيت أسسها وتدعيم أركانها . ولهذا السبب فسح الأمير أبو زكريا لشاعر بلنسية المجال للمجيء والاستقرار بتونس حاضرة الدولة بعد ضياع وطنه ومسقط رأسه بالأندلس .

ونظرا إلى الظروف التي كانت تمرّ بها العدوّة الإفريقية بعد انهيار صرح الأميراطورية الموحدية كانت الدعوة الحفصية في حاجة ماسة إلى تبرير شرعيتها في وراثة الدولة

(240) د/ص 308

(241) أي الموحدون .

(242) ابن عبد الحق : بنو مرين .

(243) بنو زيان : بنو عبد الواد .

(244) د/ص 83 .

الموحدية . وقد فهم ابن الأبار ما تحتاجه هذه الدولة الفتية من تبرير ، فرأى أن بني حفص هم أحق بوراثه دعوة المهدي بن تومرت ودولة عبد المؤمن . فهذه العائلة لها مجد طريف وتليد ، فهي تنتمي في نسبها إلى عمر بن الخطاب ونعم النسب والأصل ، قال الشاعر [الكامل] (245) :

18 - هِيَ ذَوْلَةُ عَمْرِيَّةَ سَيَّرَا خَضَعَتْ لِعِزَّةِ أَمْرِهَا الدَّوْلُ

وهي لم ترث النسب والأصل من عمر بن الخطاب بل ورثت أيضا أشهر خصلة عرف بها الخليفة الثاني وهي الاستقامة والعدل وتطبيق أحكام الشريعة السمحاء . قال ابن الأبار [الطويل] (246) :

33 - فَنِيْلًا لِأَمْرِ اللَّهِ أَنْ شُدَّ أَرْزُهُ بِأَلِ أَبِي حَفْصٍ إِلَى التَّهْيِ وَالْأَمْرِ
38 - وَمَا هِيَ إِلَّا ذَوْلَةُ عَمْرِيَّةَ يَدُومُ بِهَا الْإِقْبَالُ مُنْفَسِحَ الْعُمْرِ

وهذا المجد الأيل لم ينقطع بل استمر إلى أن تجسم في شخص جدّ الحفصيين وهو أبو حفص عمر أحد أصحاب المهدي بن تومرت الذين قامت الدولة الموحدية على أكتافهم . وهكذا جمعت هذه العائلة بين نقاوة الدم العربي قديما ، وخلاصة مآثرهم حديثا . قال ابن الأبار (247) [المتدارك] (248) :

68 - لَا ضَيْعَ بِهِمْ وَتَمَضَّرُهُ يَنْمَى صُعْدًا وَتَمَغْدُدُهُ (249)
70 - عَدَوِي (250) الْبَيْتِ مُطَبَّعُهُ فَسَوْقُ الْأَمْسَلَاكِ مَمْدُدُهُ
71 - وَرِثَ الْعُمَرَيْنِ (251) سَنَاءَهُمَا يَغْنَدُ بِسَوْءِهِ وَيَغْدُدُهُ
72 - عَنْ غَبْدِ الْوَاحِدِ أَخْرَزَهُ فَادُّ التَّوْحِيدِ وَأَوْخَسَدُهُ

(245) د/ص 241 .

(246) د/ص 192 .

(247) مطلع القصيدة ص 154 من الديوان :

1 - مَرْقُومُ الْخَدِّ مَرْوَدُهُ بَنُكُورِي الْمُنْقَمِ مَحْرُودُهُ

(248) د/ص 158 .

(249) أي يتسبب الممدوح وهو أبو زكريا إلى مضر ومعد .

(250) نُسَبُّهُ إِلَى غَدِّي جَدِّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (انظر كذلك : الديوان ص 160 بيت 25) .

(251) الْعُمَرَيْنِ : عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَبُو حَفْصٍ عُمَرَ الْهَنْتَانِي .

وهذه الخصال ورثها المؤيد عن الحد وأورثها الابن. قال الشاعر [المتدارك] (252) :

- 4 - عَنْ غَيْدِ الْوَاحِدِ أَخْرَزَهَا بَحَيْسَى لِلتَّجَلُّلِ انْزَلَتْ وَأُتِ
5 - فِي جُمُوحِ غُلْبَا وَرَحَى غَمْرُ الْقَارُوقِ لَهَا قَطْبُ

ومن الناحية المذهبية العقائدية تمسكت هذه العائلة بدعوة المهدي بن تومرت ولم تتنكر لها كما فعل المأمون الموحدي . قال الشاعر [الكامل] (253) :

- 35 - وَإِلَالَةُ مَهْدِيَّةٍ عُتْرِيَّةٌ أَوْدَى بِدَعْوَتِهَا الضَّلَالُ وَطَاحَا

وبهذه الخصال وبهذا السب الرفيع شادت هذه العائلة ملكا يفوق ما شادته عائلات أخرى، لها في التاريخ ذكر وصيت ، وتمكنت من تطهير البلاد من أصحاب الفتن والشغب . قال الشاعر [الكامل] (254) :

- 32 - أَيْبَى أَبِي خَفْصَرٍ ذَهَبْتُمْ بِالْعُلَى وَأَفْسَدْتِ الدُّنْيَا بِكُمْ إِفْسَادًا
33 - وَتَقَاصَمْتُمْ عِيدَانُكُمْ أَنْ تُعْتَزَى فِي آلِ بَرْمُكٍ أَوْ يَنْبِي بَرْزَادًا
34 - شِذْنْتُمْ بِإِفْرِيقِيَّةٍ مُلْكًا غَفَا لَهَا اصْطَفَقْتُكُمْ مَلْحًا وَمَعَادًا
35 - وَطَرَدْتُمْ عَنْ حَايِنِهَا كُلِّ ذِي دَعَاؤِ نَهَادَى بَيْنَهَا وَنَهَادَى (255)

وهكذا صفا الجور لدولتهم وساد الأمن والرخاء وتطلعت النفوس لتحقيق ما تطمح إليه وترجو بل وتمنى . قال ابن الأثير [الزميل] (256) :

- 25 - إِنَّمَا آلُ أَبِي خَفْصَرٍ هُنْدَى يَكْثِفُ الْعُمَى وَيَجْلُو السَّرَا
26 - قَدْ أَفْسَأَ بِهِمْ ظُلُّ الْمُنَى وَصَفَا مِنْ شَرِّهَا مَا كَادَرَا
27 - نَحَذُّ النَّاسَ عَنْ غُلَاهُمْ سُنْنَا وَنَلَا الدُّفْرَ حُلَاهُمْ سَوَارَا

(252) د/ص 92 .

(253) د/ص 115 .

(254) د/ص 183-184 .

(255) المقصود ابن غانية .

(256) د/ص 186 .

وَاتَّخَذَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ شِيعَارًا لَهَا الرَّايَةَ الْحُمْرَاءَ رَمَزًا لِدِمَاءِ أَعْدَائِهَا وَمَنَاوِئِهَا . قَالَ
الشاعر [الطويل] (257) :

45 — بِرَائِيهِ الْحُمْرَاءُ يَصْنُطِلُمُ الْعِصْدَى لِمَلَّتِهِ الْبَيْضَاءُ غَضَبَانِ مُقْتَصًّا

11 — العائلة الحفصية :

لا نجد في ديوان ابن الأبار ذكرا — من الأسرة الحفصية الكبرى — إلا لعائلة أبي
زكرياء يحيى الأول مؤسس الدولة الحفصية ، فقد تردّد ذكر هذا الأمير وذكر ابنه
أبي يحيى زكريا وأبي عبد الله محمد .

المولى أبو زكرياء الحفصي

أ — ألقابه :

عندما تمكن أبو زكرياء من القضاء على ثورة ابن غانية واستقلّ بإفريقية متحدّيا
بذلك السلطنة الموحدية بمراكش ، رأى ألاّ يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة . وهذا
دليل على حصافة رأيه وبعد نظره فاكتفى باسم (أمير) ورفض أن يخاطب بأمرير
المؤمنين (258) في سنة 7/634—1236 . وفي ديوان ابن الأبار نجد كلمة (خليفة)
تردّد بكثرة نعتا لأبي زكريا من ذلك قول الشاعر [الكامل] (259) :

31 — وَخَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ لَكِنْ تَبَيَّنَتْهُ فَوْقَ السَّمَاءِ ، يُعَدُّ فِي تَضْيِيبِهِ

كما نجد لقب (المرتضى) كما جاء في قول الشاعر [الكامل] (260) :

24 — فَسَمَّا بِبَيْحِي الْمُرْتَضَى لَقَدْ انْتَضَى مِنْ بَأْسِهِ مِثْلَ الصَّفَاحِ صِفَاحًا

(257) د/ص 342 .

(258) الأدلة البيّنة ، ص 48 .

(259) د/ص 79 .

(260) د/ص 117 .

كما يدعو به بأمر المؤمنين بعد فتح تلمسان ، وتهاطل بيعة مدائن العدوتين الإبريقية
والأندلسية عليه . قال: [السرير] (261) :

2- أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي دَوَّأْتَهُ يَمَنٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

كما نجد ابن الأبار يسمي أبا زكرياء (ملك المغرب) تفاؤلا وتشيرا بامتلاكه لكامل
أرض المغرب . قال ابن الأبار بمناسبة حفلة سيرك شاهدها في ملعب تونس في أواخر
شعبان سنة 1238/636 بعد أن وصف الحيوانات المفترسة [المقارب] (262) :

34- غَرَابُ شَيْءٍ يَهْرُنُ الْعُقُولَ جَمْعُ الَّذِي مَلِكُ الْمَغْرِبِ
36- إِمَامٌ هَذَا نُورُهُ ثَابِتٌ وَزُهْرُ الْكَوَاكِبِ لَمْ تَنْقَبِ
37- عَلَى مَذْهَبِ الْإِسْمَاءِ الرُّضَى ثَقِيلُ نَفْسِهِ ، وَغَلِيٌّ مَشْغَبِ
38- يُهَيِّبُ لِذَعْوَتِهِ بِالْأَسْمَاءِ فَرُضِي الْإِلَهَ وَبُرُضِي النَّبِيَّ

ب - عائلته :

— أبوه وجده :

لئن كان الفضل في قيام الدولة الحفصية يرجع بالدرجة الأولى إلى الأمير أبي
زكرياء ، فقد مهد له الأرضية الصالحة لذلك أبوه أبو محمد عبد الواحد ، وجده أبو
حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب المهدي . ولهذا نجد ابن الأبار كثيرا ما
نوه بشأنهما أثناء تمجيد بصفه عامة للعائلة الحفصية ، وبصفة خاصة عند مدحه لأبي
زكرياء . قال ابن الأبار يذكر ثلاثهم [البيط] (263) :

21- وَإِنَّ يَحْيَى بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي خَفْصَرٍ لَأَنْوَرَ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَبَا
22- ثَلَاثَةٌ هُمْ نُجُومُ الْأَرْضِ قَدْ عَشَرُوا وَغَاشَرُوا فِي السَّمَاءِ السَّبْعَةِ الشُّهُبَا

(261) د/ص 300 .

(262) د/ص 101 .

(263) د/ص 74 .

ويرى ابن الأثير أَنَّ السَّلْطَةَ التي ورثها أبو زكرياء عن أبيه هي حقٌّ من حقوقه وله أن يورثها أبناءه بعده حقاً شرعياً لا مُراءَ فيه . قال [المتدارك] (264) :

- 4- عَنْ عَبْدِ الْوَاحِسِ أَخْرَزَهَا يَخْيَى لِلنَّجِيلِ ، ابْنُ وَأَب
5- فِي جُمُجْمَةٍ (265) عَلِيًّا وَرَحَى عُمَرُ الْفَارُوقُ لَهَا قُطْبُ

— أبناؤه :

وأبناء المولى أبي زكرياء جديرون بهذا الإرث وهذا التوزيع فهم كالتجوم مع البدر ، نوراً ورفعة . قال الشاعر [البسيط] (266) :

- 66- يَلْقَا حَبْدًا أَبُو يَخْيَى الْأَمِيرُ وَهُمْ إِزَاءَهُ كَالْتُجُومِ الزُّهَرِ أُنْثَالُ
67- قَدْ رُبُّوا فِي نِظَامِ الْمُلِكِ أَرْبَعَةً كَمَا يُرْتَّبُ نَظْمُ الْعَقْدِ لَأَلْ

ولا يكتفي ابن الأثير بالتعميم بل نراه يذكرهم بأسمائهم واحداً واحداً . قال [الطويل] (267) :

- 66- وَأُطْلِعَ مِنْ أَبْنَائِهِ زُهْرًا نُجْمِ يَنْفَسُ فِي أَنْوَارِهَا الْمَغْرِبُ الشَّرْقَا
67- تِلْكَ زَكْرِيَاءُ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٌ وَبَرَّرَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَهُمَا سَبَقَا
68- وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ أَخِيرًا بِأَوَّلِ مِنَ الْفَضْلِ يَسْتَوْلِي عَلَى شَأْوِهِمْ لَخَفَا

ولا يترك الشاعر فرصة تمرّ دون تهنئة الأمير بولیده الخامس عثمان الذي ترامن مولده مع عيد الأضحى . قال [مخلع البسيط] (268) :

- 38- اللَّهُ مَسَّنْ نَجْلُسَهُ الْمُفْسَدَى نَجْمٌ يَزِينُ الزَّمَانَ حُسْنًا
40- سَمَّاهُ عُثْمَانَ إِذْ تَمَّاهُ يَسْلُبُ نَفْعَ السَّمَاحِ مَعْنَى

(264) د/ص 92 .

(265) الجمجمة : رؤساء القوم وساداتهم .

(266) د/ص 248 .

(267) د/ص 385 .

(268) د/ص 4—303 .

- 42- جاذ به حابس الذراري دفر لوى ترهنة وضنا
44- مولاي هنت عبت اضحى اضحى بيملايه يهنا

ج - حياته الخاصة :

إن ما تورده كتب التاريخ من تفشيف أبي زكرياء في مأكله وملبسه ومركوبه يمكن أن يكون من المبالغات التي وجب ترويحها في تلك الفترة لتدعيم أركان الدولة الجديدة ، حتى أنها كادت أن تجعل من أبي زكرياء صورة طبق الأصل لجده — كما زعموا — عمر بن الخطاب . والشعر قد يفتح لنا بعض الأبواب الموصدة فترى صاحب السلطة على حقيقته . فابن الأبار قد عاش مدة طالت أو قصرت — في رحاب بلاط أبي زكرياء فوصف في ديوانه بعض مجالس الأنس التي كانت تقام في منتزهات الحفصيين بأبي فهر في ضواحي عاصمتهم . وكان الأمير يستدعي من رجال دولته من يراه جديرا بهذه الجلسات الخاصة . قال ابن الأبار في مجلس أنس بأبي فهر عقدت فيه مأدبة في عهد أبي زكرياء [مجزوء الوافر] (269) :

- 51- وَيُؤْمِرُ فِي (أبي فهر) يُؤَوِّخُ فَنُورَهُ الْأَبْدُ
52- تُغْدِي الرُّوحَ وَالرَّيْحَا نَ مِنْهُ الرُّوحُ وَالْجَسْدُ
53- أَفَانِيْنَ مِنَ التُّغْمَى إِذَا مَا أُصْدِرَتْ تُرْدُ
54- وَجَنَاتٌ مُزْحَرَفَةٌ يَشُوْقُ حَمَامُهَا الْقَرْدُ

ومن هذه الحزنيات التي يهتم بها شعراء البلاط مرض الأمير وشفاءه . فابن الأبار يذكر مرض أبي زكرياء وشفاءه في ثلاث قصائد مدحية : نرجع أنه قال الأولى منها وهو في تونس في فترة كانت علاقته بالأمير علاقة عادية . وقد اغتنم مناسبة شفاء الأمير ويوم عيد اضحى ليهته بالمناسبتين . قال [الكامل] (270) :

- 38- إِنْ كَانَتِ الْأَيَّامُ يَهْمًا قَبْلَهُ فَلَسْتُ مَا كُنَيْتُ بِهِ إِفْصَاخَا
39- أَوْ لِحْنٌ مَرَضَى لَا شِفَاءَ لِسُقْمِهَا فَلَا أَنْ لِمَا صَحَّ رُخْنٌ صِيحَاخَا
40- اللَّهُ أَضْحَى زَائِلُهُ يَبْهَائِهِ كَالشَّمْسِ زَانَ شَعَائِهَا الْإِصْبَاخَا

(269) د/ص 146 .

(270) د ص 118 .

أما الثانية والثالثة فيبدو أنه قالهما في آخر عهد أبي زكرياء وهو مفضوب عليه
ببجاية . فقد ذكر في الأولى الأمير محمدا وناداه بولتي العهد⁽²⁷¹⁾ ، فقال [الكامل]
(272) :

12 - بِشِقَائِكَ الْمَيِّتُونَ مَطْلَعُهُ نَكَصَتْ عَلَى أَغْفَابِهَا الْعِلَلُ

وطلب العفو في الثانية مشيرا إلى بعده عن الممدوح⁽²⁷³⁾ . فقال متوها بشفاء
أبي زكرياء [الوافر]⁽²⁷⁴⁾ :

1 - نُفُوسُ الْعَالَمِينَ لَكَ الْفِدَاءُ فَكَيْفَ أَلَمْ يُؤْلِمُكَ اشْتِغَاءُ

8 - فَإِنْ عُوفِيَتْ عُوفِيَتْ التَّرَايَا وَقَدْ نَاجَى مَعَالِمَهَا الْعَقَاءُ

11 - نَصَا عَنْكَ الضُّعَى بُرْءٌ سَعِيدٌ كَمَا رَوَتْ صَدَى الْأَرْضِ السُّمَاءُ

د - وفاته :

ويبدو أن هذا المرض الأخير كان سببه الحزن الشديد الذي ألم بأبي زكرياء بعد
وفاة ولتي عهده وابنه أبي يحيى . ولم يلبث الخليفة أن توفي ببونة⁽²⁷⁵⁾ بعد أن ظن
الناس أنه شفي من مرضه أو كاد . فقال ابن الأبار [الكامل]⁽²⁷⁶⁾ :

18 - فِي بُؤَةِ بَاتَتْ حَيَاةُ الْمُرْتَضَى بَخِي وَفِيْدَ إِلَى الثَّرَى بِرَمَامٍ

19 - وَهَذَا خُطُّ صَرِيحِهِ سَفِيَالُهُ هَلَا⁽²⁷⁷⁾ بِأَفِيْدَةِ عَلَيْهِ حَيَامٌ

(271) تولى العهد بعد وفاة أخيه أبي يحيى في سنة 7-1248/646 (أنظر أيضا د/ص 242 بيت
39 و40).

(272) د/ص 241 .

(273) د/ص 51 بيت 18 .

(274) د/ص 50 .

(275) حسب الأدلة اليقينية ض 51 توفي ليلة الجمعة 29 جمادى II 9/647 أكتوبر 1249 ، في
د/ص 262 : 22 جمادى II 1249/647 .

(276) د/ص 263 .

(277) هل المطر هلا : أمطر بشدة .

أبو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء يحيى الحفصي

أبو يحيى زكرياء هذا هو الابن الأكبر لمؤسس الدولة الحفصية أبي زكرياء يحيى الحفصي . وقد اختاره والده لحكم مدينة بجاية — أو الناصرية (278) كما يحلو لابن الأتبار تسميتها — في سنة 1237/633 بعد رجوعه من حملته الأولى الموقفة على المغرب الأوسط . ولا نجد صدى لهذا الحدث الكبير في حياة هذا الأمير في شعر ابن الأتبار ، لسبب بسيط هو أن الشاعر في هذه السنة مازال في وطنه ومسقط رأسه بنسبة .

وعلى عكس ذلك نجد في ديوان ابن الأتبار اهتماما بهذا الأمير في ثلاث مناسبات :

— الأولى : بمناسبة تعيينه ولياً للعهد يوم الخميس 2 رجب 1240/638 . وقد نوه الشاعر بهذا الحدث خمس مرات في القصائد رقم 58 ص 133 ورقم 84 ص 181 ورقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 5 من الملحق ص 440 .
إن كفاءة الأمير وقدرته وحسن سلوكه وجليل أعماله هو الذي جعل أباه يعينه لولاية العهد . قال ابن الأتبار [الطويل] (279) :

30 — أَمِيرًا حَبَا مِنْهُ أَمِيرًا يَمْلِكُهُ فَأَذْرَكَ نَارَ الدِّينِ فِي الْبَغْيِ وَالْكَفْرِ
31 — وَقَلَّدَهُ الْعَهْدَ الْإِمَامِيَّ رَاضِيًا بِسِيرَتِهِ الْحُسْنَى وَأَثَارِهِ الْغُسْرَ

والدولة في حاجة إلى مثل هذه الكفاءة لردع من بناوئها من الأعداء . قال الشاعر [الكامل] (280) :

29 — أَمْضَى وَأَنْفَذَ مِنْ وَلَائِهِ عَهْدِهِ مَا شَرَفَ الْإِمْضَاءَ وَالْإِنْفَازَ إِذَا
30 — وَنَضًا لِنَصْرِ الْحَقِّ مِنْهُ مُهَنْدًا يَنْتَقِي الْعِذَى صِرْفَ الرَّدَى هَذَا إِذَا

(278) نسبة إلى مؤسسها الناصر بن حماد الصنهاجي .

(279) د/ص 192 .

(280) د/ص 183 .

وهي بيعة إجماع لم يتخلف عنها أحد لما يَتَمَتَّع به الأمير أبو يحيى من خصال .
قال ابن الأثير [الرجز] (281) :

- 6 - وَلَا لَهَا فِي الْأَرْضِ مِنْ مُعَانِدٍ تَبَعَهُ رِضْوَانٌ وَهَسْدِي خَالِدٍ
7 - مَا يَنْ مَغْهُودٍ لَهُ وَغَاهِدٍ مِثْلُهَا حُلٌّ عَرَى الْمَكَائِدِ
8 - وَغَفْدُهَا جَلٌّ عَنِ الْعَقَائِدِ كَانَتْ لَهَا السُّعُودُ بِالْمَرَاوِدِ
20 - إِنَّ الْعُلَى مَجْمُوعَةٌ فِي وَاحِدٍ مِنْ زَكَرِيَاءَ الْأَمِيرِ الْمَاجِدِ

وهي كذلك بيعة رضوان وبركة على المسلمين فلا غرو أن يشيد بها الشادي وبنوه
بها المنوه . قال الشاعر [الطويل] (282) :

- 1 - أَشَادَ بِهَا الدَّاعِي الْمُهَيَّبُ إِلَى الرُّشْدِ فَهَبَ لَهَا أَفْلَ السُّعَادَةِ بِالْخُلْدِ
2 - وَلَا يَبَةُ عَهْدٍ أَنْجَزَ الْحَقُّ وَغَدَهُ بِتَقْلِيدِهَا مِنْ أَهْلِ الصَّادِقِ الْوَعْدِ
3 - وَتَبَعَهُ رِضْوَانٌ تَبْلَسُجُ صَبْحَهَا عَنِ الْقَمَرِ الْوَضَّاحِ فِي أَفْقِ الْمَجْدِ
12 - عَلَى زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى التَّقَى الرُّضَى كَمَا تَلَقَّتِ الْأَنْدَاءُ صَبْحًا غَلَى وَزِدِ

وهي بيعة لئن جَسَمَت استمرارية الدولة في آل أبي حفص ، فهي تدعم سنة عريقة
يتم بموجبها انتقال السلطة من الأب إلى الابن . قال ابن الأثير [الرملي] (283) :

- 21 - حَسْبُهُ (284) ، مَغْلُوبَةٌ ، خِذْمَتُهُ لِلْأَمِيرِ بْنِ إِسَامِ الْأَمَرَا
22 - زَكَرِيَاءَ بْنِ يَحْيَى الْمُرْتَضَى ابْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عُمَرَ
23 - نَسَبُ أَبْهَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى لَيْسَ مَاءُ الْمُزْنِ مِنْهُ أَطْهَرَا
24 - وَأَبْ يَخْلُقُهُ ابْنٌ فِي الْعُلَى كَالْجَنَى يَغْقُبُ بَعْدُ الزُّهَرَا

— الثانية : بمناسبة زيارته لتونس . وقد أشار الشاعر إلى هذا الحدث في خمس
قصائد : وهي القصيدة رقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 87 ص 193
ورقم 116 ص 225 ورقم 202 ص 425 .

(281) د/ص 4-133 .

(282) د/ص 1-440 .

(283) د/ص 186 .

(284) الضمير يعود على الشاعر .

ويبدو أن حاضرة تونس استعادت لقبول أمير بجاية وولي العهد ، فبدت في أحلى زينة وكأنها في يوم عيد . ولهذا تساءل الشاعر في مطلع قصيدته رقم 86 ص 190 قائلاً [الطويل] (285) :

1 - أُمْنَسِمُ الْأَضْحَى وَمَطْلَعُ الْفَيْطْرِ أَمِ الدَّوْلَةُ الْغُرَاءُ وَصَاحَةُ الْبَشْرِ (286)
ودخوله إلى حاضرة الدولة يشبه الأبطال العائدين من المعركة مكّملين بأزاهير الغار .
قال الشاعر (287) :

28 - تَجَلَّسَى يَنَلَا الدُّنْيَا جَلَالاً وَأَكْنَفَ السُّهُولَةَ وَالْوُغُورِ
29 - فَكُنْ مِنْ أَنْفَسِ لِهَذَا مِثْلٍ وَكُنْ مِنْ أَغْيَنِ لِسَانِهِ صُورِ
30 - وَجَاسَتْ مِنْ حَوَالِيهِ جُيُوشٌ تَحُلُّ بِحَارُهُنَّ عَنِ الْعُيُورِ
31 - وَرَايَاتُ كَافِقِدَةِ الْأَعَادِي إِذَا خَفَقَتْ وَأَجْنَحَةِ الطُّيُورِ

ويرى ابن الأثير - تأكيداً على أواصر المحبة التي تربط الابن بأبيه - أن هذه الزيارة هي زيارة الشبل لعرين الأسد . قال [الطويل] (288) :

5 - أَلَا هُوَ شَبْلُ النَّاسِ زَارَ هَزْنَهُ فَقَرَّ قَرَارُ النَّاسِ مِنْهُ عَلَى الزُّارِ
15 - تَنَاصَرَتِ الْبُشْرَى يَوْمَ قُدُومِهِ عَلَى الْحَضْرَةِ الْعَلِيَاءِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ

ويؤكد الشاعر على البهجة التي عمرت القلوب بزيارة الأمير أبي يحيى زكرياء إلى تونس ، فوالده قد قرّت عينه برؤية نجله ، والعاصمة بأكملها عمّها السرور بحلول ركب ولي العهد بها . قال [الوافر] (289) :

19 - هَلَا حَلَّ مَنَزِلَةَ الثَّرِيَا وَقَبْلَ رَاخَةِ الْبَذْرِ الْعُمَيْرِ
20 - وَشَبْلًا يَهْضُرُ الْأَسَادَ بَأْسًا أَلَمْ يَغَابِ الْأَسَدُ الْبَهْصُورِ

(285) د/ص 190 .

(286) تعليق المحقق يدل على سوء فهم للبيت .

(287) د/ص 194 .

(288) د/ ص 1-190 .

(289) د/ ص 194 .

- 23 - أَمِيرُ الدَّهْرِ يَوْمَ فِيهِ وَافَى أَبُو بَخِي الأَمِيرُ ابْنُ الأَمِيرِ
24 - لِذَارِ الْمُلْكِ صَارَ وَسَارَ يُعْتَا فَأَنْعَمَ بِالْمَصِيرِ وَبِالْمَصِيرِ
27 - وَأَكْرَمَ زَائِرِ تَجَلَّ أَقْرَتْ عُلاَهُ عَيْنَ تَاجِلِهِ الْمَرْوَرِ

إنَّ الزَّائِرَ هو رجل الدولة في المستقبل ، ولقد تشبَّع بكلِّ خصال رجالها من الجدِّ الأوَّل للعائلة وهو عمر بن الخطاب ، إلى جدِّه القريب الشيخ أبي حفص ، إلى أبيه أبي زكرياء يحيى مؤسِّس الدولة . وقد قام هذا الأخير بتدريج وصية له يرى الشاعر أنها مستفاد من مبادئ المهدي بن تومرت (290) فقال [الوافر] (291) :

- 1 - وَلِيَّ الْعَهْدِ أَمَّ عَهْدُ الْوَلِيِّ أَتَى يُرْزِي الْبَسِيطَةَ كَالْأَرْبِيِّ
13 - إِلَى الْفَارُوقِ تَنْبِيهِ السَّجَايَا سَبَّحِي أَيُّهَ يَا لَكَ مِنْ سَمِيٍّ
14 - وَحَسْبُكَ مَا هَذَا مِنْ الْوَصَايَا عَنِ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ السُّوسِيِّ
17 - وَلَمْ يَكْ مِنْ أَبُو حَفْصٍ أَبُوهُ يُلْقَى غَيْرَ شَيْحَانِ أَبِي

— الثالثة : بمناسبة رجوعه من الحضرة تونس إلى بجاية ، وقد رأى الشاعر أنَّ الأمير ذهب هلالاً مضيقاً فَعَادَ بِدِرَا كَامِلَا ، عليه ملامح الشَّباب جمالاً وبهاء ، وله عقل الكهول حكمة وسدادا . قال [الخفيف] (292) :

- 1 - آتٍ بِدِرَا وَقَدْ أَلَسَّ هَلَالًا مَلِكٌ زَيْدٌ لِلْكَمَالِ كَمَالًا
2 - إِنْ يَكُنْ يَمْلَأُ الْعُيُونُ شَبَابًا فَلَقَدْ يَنْهَرُ الْحُلُومُ اكْتِهَالًا

أبو عبد الله محمد المستنصر

جاء ذكر أبي عبد الله محمد المستنصر الابن الثاني لأبي زكرياء في 6 مناسبات في القصيدة رقم 42 ص 103 ورقم 70 ص 167 ورقم 69 ص 166 ورقم 68 ص 162 ورقم 120 ص 262 ورقم 22 من الملحق ص 541 ورقم 132 ص 290 .

(290) من مبادئ السياسة الحفصية التأكيد على تمسكها بالمذهب الموحدي وبمبادئ المهدي ، وذلك ردًّا على ما فعله المأمون الموحدي في مراكش من تنكُّر لمذهب الدولة الرسمي .

(291) د/ ص 425-6 .

(292) د/ ص 254 .

الأولى : قالها الشاعر لما توفي أخوه الأمير أبو يحيى زكرياء حاكم بجاية وولي العهد ، فقد اختاره أبوه أبو زكرياء يحيى أولًا ليعوض أخاه على رأس ولاية بجاية المدينة الثانية في المملكة الحفصية وكان ذلك سنة 1248/646 . فقال ابن الأثير منوها بهذا الاختيار [الكامل] (293) :

16 — هَـذِي بَجَايَةَ قَدْ سَدَّدَتْ نُفُوزَهَا بِبِغَارِكِ يُنْطَبِي الْأُمُورُ مُسْنَدًا

ويغتنم الشاعر هذه الفرصة ليطلب من المولى أبي زكرياء تكريم أبي عبد الله محمد بولاية العهد ، وهو ما يرغب فيه أبو زكرياء نفسه . قال (294) :

22 — وَاعْقِدْ لِمَوْلَايَ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَهْدًا بِهِ تُسْزِي النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
20 — هُوَ زَانُ إِخْوَتِهِ وَهُمْ زَانُوا الْهَدَى فَكَأَنَّهُ نَسِيتُ الْقَصِيدَ مُجَسَّدًا
21 — وَسَطَى فَلَاذَنْبِهِمْ وَزَهْرَةَ رَوْضِهِمْ وَأَحَقُّ مِنْ حَبِي الْجَسِيمِ وَقَلْدًا (295)

— الثانية : قلت بمناسبة تعيين هذا الأمير في نفس السنة التي توفي فيها أخوه يحيى ، وليًا للعهد . فتوه ابن الأثير بهذا الحدث ورأى أن أبا زكرياء أحسن الاختيار عندما عين ابنه محمدًا لهذا المنصب الخطير . فقال [الطويل] (296) :

1 — تَخَيَّرْتُ مُحْتَارَ الْخَلِيفَةِ لِلْعَهْدِ فَرَوَيْتُ أَمَحَالَ السَّيْطَةِ كَالْعَهْدِ (297)
6 — وَفِي رَجَبٍ مَا هُنُّوا بِإِعْقَادِهَا لِيَهْنَهَا فَرْدُ الشُّهُورِ إِلَى فَرْدِ
29 — هَيْبًا يَحْيَى أَنَّهُ بِمُحَمَّدٍ تَوَخَّى أَوَاخِيَّ الْخِلَافَةِ بِالشَّدِّ
31 — إِمَامَ أَرَا مِنْ إِمَامَةٍ تُجْلِيهِ مَيَّةَ مُسْتَفْصِرٍ وَمَيَّةَ مُسْتَعْدِ

وفي الديوان ذكر المحقق — اعتمادًا على المصادر التاريخية — تاريخين لولاية العهد هما رجب 646 (د/ص 162) و 12 ذي الحجة 646 (د/ص 166) . وفي إحدى

(293) د/ص 168 .

(294) د/ص 168 .

(295) هذه القصيدة أصاب التلف بعض أبياتها كما أشار محقق الديوان ، ويغلب على الظن أن ما بقي منها من أبيات وصل إلينا مشوشًا فحاولنا إعادة ترتيب الأبيات المستشهد بها .

(296) د/ص 162 و 164 .

(297) العهد : مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله .

القصاصد نجد أنها تمت في أول عام جديد أي في شهر محرم ولن يكون هذا العام
إلا سنة 1249/647 . قال ابن الأبار [الرجز] (298) :

- 11 - يَا بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ أَوْ يَا أُخْتَهَا هُنَّتِ فَخُرًّا ، غَمْرُهُ لَنْ يَنْقُدَا
12 - أَفَدَى بِكَ الْعَامَ الْجَدِيدُ أَمَلًا يَسْنَ يَدَيْهِ لِلْهُدَى مُجْدَا

وهو بذلك لم يترك المسلمين نهب الضياع بعده ، فضمن لهم بتعيين ولّي عهد
جديد الاستمرارية في كنف الأمن والطمأنينة . قال [رجز] (299) :

- 1 - إِنَّ إِمَامَ الْخَلْقِ لَا يَسْأَلُ أَنْ يُصْدَرَ عَنْ حَقِيقَةٍ وَيُورَدَا
2 - قَلْدَهَا عَنِ اجْتِهَادِ أَهْلِهَا يَا مَنْ رَأَى مُجْتَهِدًا مُقْلِدًا
4 - خِلَافَةً لَوْ غَيْرَ يَخْيِي الْمُرْتَضَى بَعِيْهَ زَامَ قِيَامًا قَعْدًا
6 - وَلَمْ يَدْعُ أُمَّةَ أَحْمَدٍ سُدَى حُبُّ الرُّضْوَانِ لِعَهْدِهِمَا مُحَمَّدَا

، وولّي العهد المعين يستحق هذا المنصب لما حباه الله من خصال موروثه ومكتسبة
[الطويل] (300) :

- 41 - خِلَافَةً يَخْيِي زَانَ عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّنْدَ يَزْدَانُ بِالْقَلْبِ (301)
42 - هُمَا الْقَمَرَانِ التَّيْرَانِ وَإِنَّمَا مَدَارُهُمَا لِلْمَعْلَوَاتِ عَلَى قُطْبِ
43 - أَمَا وَوَلِيَّ الْعَهْدِ أَزْكَى إِلَهَ لَقَدْ أَحْرَزَ الْعَلِيَا بِالْإِثْرِ وَالْكَسْبِ

— الثالثة : قالها الشاعر بمناسبة إعداد بعض أبنائه . وكان ذلك ما بين نهاية
1249/646 وبداية 1249/647 عندما كان أبو عبد الله ولياً لعهد أبيه . وهذا من
باب الترجيح لا اليقين لأنّ الشاعر لا يذكر اسم الممدوح وإنما يكتفي بقوله (ولّي

(298) د/ص 166 .

(299) د/ص 166 .

(300) د/ص 86 .

(301) القلب : السّوار .

المعهد). وهذا يمكن أن ينطبق على أبي عبد الله ويمكن أن ينطبق على أبي يحيى أخيه الأكبر. قال الشاعر [البسيط] (302):

- 18 - يَا شِدَّةَ النَّاسِ إِنْ يُسْتُفْ فِيكَ فَقَدْ أَضْحَى زَجَاءً وَلِيَّ الْعَهْدِ لِي فَرَجًا
30 - هَادٍ لِقَصْدِ أَبِيهِ الْمُرْتَضَى عَلَّمَا لِيخِيرَ مَا انْتَهَضَ أَوْ إِصْلَاحَ مَا مَرَجَا
31 - اللَّهُ مَشْرُوعُ آثَارِ تَقَبُّلِهَا هَذَا فَاغْنَدَهَا أَهْلَ الْهَيْدَى لِحُجْجَا
32 - مُطَهَّرًا مِنْ بَيْتِهِ كُلِّ مَنْ طَهَّرَتْ أَعْرَافُهُ ، وَتَرَقَّتْ فِي الْعُلَى ذَرْجَا

— الرابعة : قالها في موت أبي زكرياء : يبدو أن المولى أبا زكرياء تأثر لوفاة ابنه أبي يحيى فمرض وتوفي بعد ابنه بأشهر فلائل بمدينة بونة في جمادى II 647/أكتوبر 1249 (303). فاغتنم ابن الأبار هذه الفرصة ليتقرب إلى الحاكم الجديد. فقال راثيا [الكامل] (304):

- 18 - فِي بُؤَةِ بَائِتِ حَيَاةِ الْمُرْتَضَى يَحْيَى وَفِيهِ إِلَى الثَّرَى بِرَامٍ
وَمُهْنًا (305):

- 49 - بِمُحَمَّدٍ وَعِدَتْ رَعَايَا أَحْمَدٍ أَلَّا تُزَالَ زَوَاهِرُ الْأَسَامِ
51 - مَلِكٌ نَشَأَ فِي الْمُلُوكِ عَصَابَةً هِيَ مَفْخَرُ الْأَسْيَافِ وَالْأَفْلامِ

— الخامسة : قيلت في سنة 1250/648 ، بمناسبة إيصال المستنصر الماء إلى مدينة تونس من زغوان بواسطة الحنايا الرومانية التي أعيد ترميمها وتصليحها ، كما أوصل الماء إلى جامع الزيتونة . وقد كتب ابن الأبار رسالة طويلة (306) للتثويه بهذا

(302) د/ص 5-104 .

(303) اختلفت المصادر في تحديد اليوم . في الديوان ص 162 : 22 جمادى II ، وفي الأدلة البيئية التوراتية ص 51 : 29 جمادى الثانية وفي تاريخ ابن أبي الضياف ج 1 ، ص 160 : ليلة الجمعة 28 جمادى II .

(304) د/ص 263 .

(305) د/ص 265 .

(306) انظر الرسالة في أزهار الرياض للمقري: 114/3 .

الصنيع،⁽³⁰⁷⁾ وخلال الرسالة ذكر ابن الأبار أحياتا له في مدح المستنصر أولها [البسيط]⁽³⁰⁸⁾ :

1 - جَمَعْتَ لِلنَّاسِ بَيْنَ الرَّيِّ وَالشُّبْعِ فَهُمْ بِأَخْصَابِ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبَعِ

وهذه الأبيات لابن الأبار هامة من الناحية التاريخية لأنها تبين أن ترميم وإصلاح الحنايا تم في مرحلتين : الأولى وكانت في سنة 1250/648، والثانية تمت في سنة 1267/665⁽³⁰⁹⁾ أو 1268/666⁽³¹⁰⁾ وهي التي أنشد فيها حازم القرطاجي المقصورة . وقد أخطأ بعض الباحثين المعاصرين في ذلك وجعلها مناسبة واحدة⁽³¹¹⁾ وأزحها سنة 1250/648 .

— السادسة : قالها بمناسبة كان لها صداها في عاصمة الدولة الحفصية ، إذ جاءت المستنصر بيعة مكة . وقد كتب نص البيعة المتصوّف الشهير ابن سبعين ، وكان ذلك سنة 1252/657 أي بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية على يد التتار بسنة .

والطريف أن هذه البيعة وصلت وقد شفى الأمير من مرض ألم به . ولهذا جمع ابن الأبار في بيتين له أرسلهما من بجاية إلى تونس بين الأمرين ، فقال [الكامل]⁽³¹²⁾ :

1- إِنَّ النَّبَائِرَ كُلَّهَا جُمِعَتْ لِلدُّيْنِ وَالْدُّنْيَا وَلِلْأُمَمِ
2- فِي نِعْمَتَيْنِ جَسِيمَتَيْنِ هُمَا بُرْءُ الْإِمَامِ وَنِعْمَةُ الْخَرَمِ

(307) أرسل أبو المطرف هو الآخر من مدينة قابس وكان قاضيا عليها رسالة إلى المستنصر مهتبا بهذه المناسبة .

(308) د/ص 451 .

(309) الفارسية ص 127 .

(310) الأدلة البيّة التورانية ص 8-67 .

(311) محمد ابن شريفة : أبو المطرف ، ص 152 .

(312) د/ص 290 .

يجد الناظر في ديوان ابن الأثير إشارات إلى المشرق العربي تندرج في نطاق التمجيد والتأييد بأبي زكرياء وبالدولة الحفصية . فكما خضع له المغرب فإن الشرق بشأه وعراقه لا محالة خاضع تبعاً لذلك . وابن الأثير لا يذكر من حكام المشرق العربي إلا حكام مصر من الأيوبيين . وهو يذكرهم ليستقص من شأنهم باعتبارهم ساهموا بدور فعال في إطالة ثورة ابن غانية . فقد أرسلوا لمساعدته الغزاة ، وعلى رأسهم القائد قراقوش . قال ابن الأثير [الكامل] (313) :

- 22 — هَذِي الْمَمَالِكُ وَالْمُلُوكُ لَأَمْرِهِ تَتَقَادُ طَيْعَةً كَمَا تَنْسَاقُ
23 — سَتَجِيئُهُ عَقِبَ الْمَغَارِبِ شَامُهَا وَتَتَقَدِّي يَمَسَّنْ بِهِ وَعِرَاقُ
26 — يَا آلَ أَيُّوبِ اضْعَمُوا عَنْ مِصْرِهِ (314) أَوْ أَذْعَمُوا فَلَهُ بِهَا إِخْرَاقُ

وقد يذكر الشاعر بني أيوب حكام مصر ويقارن بينهم وبين آل يعقوب من الموحدين . ويرى أن الموحدين أكثر جرأة وشجاعة ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام أبي زكرياء فكيف بالآل أيوب ؟ قال [البسيط] (315) :

- 66 — وَاصْرِفْ عَنَّاكَ عَنْ مَرَاكِبِ ثِقَةٍ بِالنَّجَحِ فِيهَا إِلَى مِصْرٍ وَبَعْدًا
67 — مَا آلَ أَيُّوبَ وَالْأَسَارُ نَاطِقَةٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ إِفْدَاءً وَإِمْكَانًا
68 — إِيَّاهُ لَأَعْلَى عَلَيْهِمْ فَضْلُ بَأْسِهِمْ وَقَدْ قَرَضَتْهُمْ قَسْلًا وَخِلْعَانًا
69 — بِالْأَيْدِ وَالْكَيْدِ تَضْطَرُّ الْعِدَى أَبَدًا إِلَى إِبَادَتِهِمْ سُخْمًا (316) وَغَزَا (317)

(313) د/ص 388 .

(314) مصره : بلده . وقد يكون الشاعر قصد مصر البلد المعروف تفاؤلاً بخضوع هذا البلد الكبير إلى المملوك .

(315) د/ص 310 .

(316) السَّحْم : الموحدون .

(317) الغَزَا : الغزاة وقائدهم قراقوش كانوا مع ابن غانية .

13 — مقتل ابن الأَبار

توفي أبو زكرياء وترك لابنه المستنصر دولة قويّة ، فاتجهت عنايته إلى البناء والتشييد (وجمع حوله طبقة من العلماء والأدباء . وكان ابن الأَبار واحدا منهم) ⁽³¹⁸⁾. وكان من ألد أعداء الشاعر في هذا البلاط الوزير ابن أبي الحسين ، وكان يحقد على ابن الأَبار . (وكان سبب حقد هذا الوزير عليه أنّ ابن الأَبار لمّا قدّم في الأسطول من بلنسية نزل بمنزلة وخطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته ، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم ، ونبه إلى ذلك فاستضحك ، وقال : إنّ أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل . ونميت إلى الوزير فأسرّها في نفسه) ⁽³¹⁹⁾ وراح يكيد له .

واستطاع هذا الوزير في نطاق تنافس البلديين والأندلسيين على المناصب الهامة في البلاط الحفصي أن يوغر صدر المستنصر على الشاعر . وكان (في ابن الأَبار أنفة وبأو وضيق خلق ، وكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصّر مداركه ... مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولاتها عليه) ⁽³²⁰⁾ .

وزاد ابن سعيد على ذلك (أنّ أخلاق ابن الأَبار لم تكن على الوفاء بأسباب الخدمة) ⁽³²¹⁾ فأشخصه السلطان إلى بجاية . لكن متى تمّ ذلك ؟

إنّ ابن سعيد عندما كتب ترجمة ابن الأَبار في القدح ⁽³²²⁾ ذكر أنّ الشاعر كان في ذلك الوقت في بجاية . ومن المعلوم أنّ ابن سعيد دخل تونس سنة 1254/652 والتقى بابن الأَبار وأخذ عنه المقطوعات التي أوردها في كتابه . حينئذ يحقّ لنا أن نفترض أنّ ابن الأَبار نفى إلى بجاية بعد هذه السنة . وبقي هناك إلى أن عفا عنه المستنصر سنة 1259/657 ، وقد هنأه صديقه أبو المطرف بذلك في إحدى رسائله ⁽³²³⁾ .

(318) مقدّمة إعتاب الكتاب ، ص 15 .

(319) العبر : 654/6 .

(320) العبر : 654/6 .

(321) اختصار القدح ، ص 19 .

(322) اختصار القدح ، ص 19 .

(323) ابن شريفة : أبو المطرف ، ص 155 .

وقال الشاعر وقد التقى وجها لوجه بالمستنصر بعد طول غياب [الكامل] (324) :

- 1 - بُشْرَايَ تَاشَرْتُ الْهُدَى وَالتُّورَا يَلْقَائِي الْمُسْتَنْصِرَ الْمَنْصُورَا
- 2 - فَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَقِيْتُهُ لَمْ أَلْقِ إِلَّا تَضَرَّةً وَسُرُورَا

ويدو أن الشاعر لم ينجح للمرة الأخيرة في التأقلم مع بلاط الدولة الحفصية . وتظاهر العاملان الأعداء ومزاجه الحاد في نفور المستنصر منه من جديد . ولكن في هذه المرة لم ينفه ، نظرا إلى تقدمه في السن ، وإنما احتقره وأهمله فكان ابن الأبار إذا دخل على المستنصر ، لا يكلمه ولا يلتفت إليه وكان ابن الأبار يتشكى من ذلك ويتألم [الوافر] (325) :

- 1 - عَلَتْ سِنِّي وَقَذِرِي فِي انْخِفَاضِ وَحُكْمِ الرَّبِّ فِي الْمَرْبُوبِ مَاضٍ
- 2 - إِلَى كَمْ أَسْخِطُ الْأَقْدَارَ حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا بِرَاضٍ

وكان المستنصر إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز معصي أو مترجم بعث به إليه فيحله ، فإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه . فقال في ذلك [مجزوء الكامل] (326) :

- 1 - أَمْرِي عَجِيبٌ فِي الْأُمُورِ بَيْنَ الثُّورَارِي وَالظُّهُورِ
- 2 - مُسْتَعْمَلٌ عِنْدَ الْمَغِيرِ بِمُهِمَّلٍ عِنْدَ الْحُضُورِ

ويغتم ابن الأبار مرض السلطان وشفاه فيهنقه بالإبلال ، وجلاء الشك والحيرة من قلوب الرعية [الكامل] (327) :

- 12 - شَفِيَّ الْأَمِيرُ فَكُلُّ قَلْبٍ سَاكِنٌ بَعْدَ الْخُفُوفِ وَكُلُّ طَرْفٍ هَاجِعٌ
- 13 - وَبَدَا سَنَاءُ فَلَا عَدُوَّ آمِنٌ يَرْجُو النَّجَاةَ وَلَا وَلِيَّ حَارِعٌ
- 17 - كَانُوا مِنَ الشَّيْءِ الْمُضِلِّ فِي دُجَى فَجَلَا غَيَاهِمَهَا هَذَا السَّاطِعُ

(324) د/ص 447 .

(325) د/ص 448 .

(326) د/ص 445 .

(327) د/ص 356 .

ثم يطلب منه العفو عنه من الجفوة والإهمال [الكامل] (328) :

- 40 — مَوْلَايَ عَبْدُكَ فِي الرُّضَى مُسْتَشْفَعٌ وَبَنَاتُ حَاطِرِهِ إِلَيْكَ شَوَافِعُ
41 — هُوَذَا بِسَابِكِ لَيْسَ بِسَائِمٍ قَرَعَهُ وَلَطَالَمَا وَلَجَ الْغُلِيطُ الْقَارِعُ
44 — إِنَّ الضَّرَاعَةَ لِلْقَبُولِ ذَرِيعَةٌ وَالْحَقُّ فِي تَحْلِيدِ أَمْرِكَ ضَارِعُ

وسواء أناله أم لم ينله فقد بقي ابن الأبار شخصا ثقيلا غير مرغوب فيه في بلاط المستنصر ، بل إنه أصبح بسلوكه مستهدفا للتخلص منه . وقد أتاح الشاعر الفرصة لأعدائه والمستنصر (ذلك أنه حضر يوما مجلس السلطان فسمعه يسأل بعض من حضر عن مولد ولده الواصل . فغدا عليه ابن الأبار في اليوم التالي برقعة فيها تاريخ الولادة وضالعها فلما رآها المستنصر استشاط غضبا من فضوله وتطفله) (329) . وألصقت به تهمة (توقع المكروه للدولة والترتب بها كما كان أعداؤه يشتنعون عليه ، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع . ولقي أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها :

طَفَى بِشَوْنٍ خَلَفَ سَوْرُهُ ظُلُمًا خَلِيفَةً (330)

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه ثم بقتله قعصا بالرماح وسط محرم 1260/658 (331) . وأحرق شلوه وكتبه ومن بينها كتاب سماه (كتاب التاريخ) يسيء فيه إلى السلطان (332) .

ولا شك أن هذه بعض الأسباب التي أدت بابتاب الأبار إلى هذه النهاية المأسوية . ولكن لا يمكن أن نقول إنها كل الأسباب . فقد ورد في الديوان مثلا بيت منفرد

(328) د/ص 357 .

(329) الإعتاب ، ص 17 .

(330) د/ص 452 .

(331) العبر: ص 5—654 .

(332) الإعتاب ، ص 18 .

وهو قول ابن الأبار — إن صحّت نسبه إليه — في المستنصر [السريع] (333) :
 غَصَى أَبَاهُ وَجَفَّأَ أُمُّهُ وَلَمْ يُقْلَ مِنْ غُثْرَةِ عُمِّهِ
 وهو بيت يدلّ على أنّ الشاعر لم يكن راضيا على سلوك هذا السلطان مع أبيه ،
 وبعد وفاته مع أمّه . بل لعلّه كان يرى في مقتل عمّه محمد اللّحائي وأبي إبراهيم
 في ثورة سنة 1250/648 ظلما وعدوانا لأنهما لم يشاركا فيها . وهذه التّهم من التّاحية
 الشرعيّة خطيرة لأنّها تجيز التّراجع في بيعه السلطان بل الخروج عليه .

الخاتمة

قام الأستاذ عبد السلام الهّراس بتحقيق ديوان ابن الأبار لأوّل مرّة بالاعتماد على
 النّسخة الوحيدة المحفوظة في الخزنة الملكيّة بالمغرب تحت رقم 4602 . والأستاذ
 الهّراس بعمله هذا الجيد سدّ ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الشعر الأندلسي . فصاحب
 الدّيوان هو إحدى الشّخصيات المرموقة خلال القرن 13/7 على المستويين السّياسيّ
 والأدبيّ وفي العدوتين الأندلسيّة والإفريقيّة .

وبصفة عامّة إنّ النّاظر في النّصّ الأدبيّ يمكن أن ينظر فيه من زاويتين :

- 1 — فإن كان ناقدًا أو أسلوبياّ كانت غايته منه القيمة الجماليّة فيه .
- 2 — وإن كان مؤرخًا للأدب أو دارسا للتّفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقيّة .

وبما أنّنا أصبحنا نؤمن بالقيمة الوثائقيّة للنّصّ الأدبيّ — بعد عدّة دراسات في دوواين
 شعريّة أندلسيّة — (334) فإنّنا حاولنا أن نطّبق نفس هذا المنهج على ديوان ابن الأبار
 فكيف تراءت لنا الأحداث التاريخيّة في هذا الأثر الشعريّ من القرن 13/7 ؟

(333) د/ص 462 .

(334) انظر على سبيل المثال :

— القيمة الوثائقيّة في ديوان ابن الخطيب (مجلّة كليّة الآداب بتطوان السنة 2 عدد
 1987/2، ص 291).

— القيمة الوثائقيّة لديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي (حوليات الجامعة التونسيّة العدد
 1988/27 ، ص 119) .

— القيمة الوثائقيّة في ديوان يوسف III (الحوليات عدد 1988/28 ، ص 185) .

إن ديوان ابن الأبار هو ديوان شعر ذاتي ورسمي :

1 — ذاتي بالنظر إلى العدو الأندلسي : لقد بكى فيه الشاعر وطنه الضائع فحزن وتآلم لمصابه ، وحنّ واشتاق إلى رحابه ، ودافع وحرّض على استرجاعه .

2 — رسمي بالنظر إلى العدو الإفريقيّة : فقد نظر للسياسة الحفصية فمدح وقرّض أمراءها ، وهجا واستنقص أعداءها ، وشجّع ونوّه بمن حالفها ووالاها .

3 — على أنّ هناك مظهرا ثالثا في الديوان يتخلّل الجانبين الذاتي والرسمي هو الجانب الشخصي : عبّر فيه الشاعر بكلّ صدق عمّا أصابه من محن الأيام وصروف الدّغر بالعدوتين وخاصة ما تعرّض له من نكبات في إفريقيّة آلت به إلى المأساة الكبرى وهي مقتلته على يد المستنصر الحفصي .

ونحن لا ندعي البتّة أننا وجدنا في ديوان ابن الأبار شيئا كثيرا يختلف عمّا هو مسطرّ في كتب التاريخ ، لكن هناك من الأحداث الجزئية ما لم يهتم به المؤرّخون ذكرت في الديوان ، وهناك بعض التدقيقات في حياة الشاعر استخلصت وأضيفت . والأهمّ من كلّ هذا وذاك أننا نجد في ديوان ابن الأبار تفسيراً للأحداث ، وخاصة الإفريقيّة منها ، من وجهة نظر معينة . هذا التفسير قد لا نجده في كتب التاريخ ، ومجال المقارنة فسيح لَوُ وجد الشعر المقابل لشعر ابن الأبار أي الشعر المعبر عن وجهة نظر الدولة الموحدية مثلا وكان لهم في مراكش شعراء عديدون (335) . وهذا ابن الأبار نفسه يتراجع نادما عمّا بدر منه مغاييرا للحقيقة في ديوانه . قال [المتدارك] (336) :

1 — حُرِمْتُ الرِّشَادَ لَأَنِّي سَفَاهَا خَدَمْتُ الْمُلُوكَ وَهُمْ أَغْبَدُ
2 — وَفِي رَغْبَاتِي لَهُمْ جُنْتُ إِذَا فَهَلْ رَغْبَتُ لِمَنْ أَغْبَدُ

فهل هذا الموقف من الشاعر كاف لنحذر كلّ الحذر إذا أردنا معرفة الحقيقة خالية من كلّ الشوائب ؟

(335) انظر نموذجا ثانيا من هذا الشعر في الجزء II من أطروحتنا : الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ص 204 عند مقارنتنا للشعر المعبر عن وجهة نظر المأمون الموحدية والشعر المقابل له المعبر عن وجهة نظر غريبه ومنافسه على الخلافة ابن أخيه يحيى المعتصم .

(336) د/ص 178 .

الدار العربية للكتاب

- مؤسسة تونسية ليبية تحسم وجهها طريفا من وجوه التعاون المثمر بين قطرين عربيين في ميدان النشر والطباعة والتوزيع.
- خمس عشرة سنة من العمل المتواصل في خدمة الكتاب وتنمية الثقافة العربية والمعرفة الإنسانية وإحياء التراث وتشجيع الإبداع العربي المعاصر.
- طموحات ومشاريع مستقبلية مهمة في مجال الأعمال الموسوعية والسلاسل المتخصصة.
- من منشوراتها التي تعنى بالأندلس تاريخا وحضارة، لغة وأدبا :
 - 1 — ابن هاني الأندلسي متنبّي المغرب تأليف أبي القاسم محمد كرو.
 - 2 — العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب تأليف عبد العزيز الفيلاي.
 - 3 — دراسات ونعوت في تاريخ المغرب والأندلس تأليف د. أمين توفيق الطيبي.
 - 4 — فصول الأحكام للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي تحقيق وتقديم محمد أبو الأحفان.
 - 5 — حركة المؤرخين في المغرب في القرنين الثاني والثالث عشر ترجمة أمين الطيبي.
 - 6 — كشف الأسرار عن علم حروف العبار للقلصادي تحقيق د. محمد السويسي.
 - 7 — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسّام الشنتريني تحقيق الدكتور إحسان عبّاس.
- ودراسات أخرى في طريقها إلى الصدور :
 - (1) الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي تأليف الدكتور جمعة شيخة تعتمد هذه الدراسة على الشعر المعبر بصدق عما خالج نفوس أصحابها من الأحداث والوقائع والانتصارات والنكبات، الهدف منها النظر في المادة الشعرية الأندلسية من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع هجري، باعتبارها مرآة تعكس مجموعة من الأحداث والمظاهر الحضارية للبيئة الأندلسية.
 - (2) ديوان ابن زمرك، تحقيق الأستاذ توفيق التّيفر.
- لم يصلنا من شعر ابن زمرك إلا ما هو مثبت في المصادر القديمة «كنفح الطيب» و «أزهار الرياض» وغيرهما.
- فالدّيوان زيادة على الجهد الذي بذله المحقق، مادة جديدة تنضاف إلى كنوز الشعر الأندلسي.

شاعر وفي لوطنه

د. عبد السلام الهّراس
كلية الآداب فاس — المغرب

لعلّ أول أديب مسؤول في تاريخ الأندلس ، إلى منتصف القرن السابع أو ربما إلى آخر تاريخها الإسلامي ، سجّل في شعره قضية بلده وهمومه نحوها فهو ابن الأتار البينسي ... نعم ! لقد سبقه سفير شاعر مقلّ بلاده في كل من بلاد الروم وبلاد المجوس الفيكنك ، لم يعكس في شعره سوى مغامراته الغرامية ، أما القضية التي من أجلها سفر وسافر فلم يتسرب منها شيء إلى شعره الذي بيّن أيدنا على الأقل⁽¹⁾.

لقد كان ابن الأتار وزيرالاكالوزراء ، فهو الذي كلف بحمل عبء التسليم كما كان الرجل الكفء ليضطلع بمهمة الاستنجاد بتونس الحفصية مرتين ، وقد نجحت مساعيه الأولى والثانية ، وترك الرجل أثرا كبيرا في الأوساط السياسية والأدبية مما جعله شخصية ناجحة ولامعة ومحبوّة .

وكَلَمًا كان الأمل في إنجاد بلده كبيرا كان هاجسه واهتمامه بها وحدها واسع المدى ، غير أن دائرة الاهتمام بنفسه بدأت تتسع شيئا فشيئا عندما سقطت بلنسية وبعض مواقع شرق الأندلس ، ومع ذلك بقي كيان الرجل أندلسيا بما كان ينفث من تحسرات ويصعد من آهات ويستكثر لبلده من أمجاد . وإن الهمم الأندلسي ظل يلازمه إلى آخر

(1) اختصارا رمزنا للديوان ابن الأتار بحرف (د) .

نفس من حياته إذ كان تأليفه كالتكملة نوعاً من المفاخرة والمباهاة بما للأندلس من شخصيات علمية وأدبية ذكورا وإناثاً أصلاء وطّارئين (أي غرباء) .

إن الرجل كما يبدو لم يكن أول أمره يفكر في نفسه أو في أسرته أو مصالحه على حساب بلده ، فقد أخلص للقضية وأبى أن يفرّ من الزحف بل رأيناه يتشبّث مع بلديّه بتراب وطنه وبتراب ماجاوره ، وينتقل مع اللاجئين إلى دانية ومرسية أملاً في العودة إلى الرصافة والجسر والمسجد والمنتزهات .

وقد سبق له أن التجأ مع أميره أبي زيد إلى صاحب أرغون سنة 1229/626 وعمره إحدى وثلاثون سنة لكنّه ما لبث أن عاد إلى بلده بعدما ذاق مرارة الغربة التي لم تستطع حلالة المقام هناك من التخفيف من جذّتها ورُعاقيها .

وقد دافع عن نفسه بأن تلك الهجرة كانت مشروعة فهي كهجرة الصحابة إلى الحبشة النصرانية للاحتماء بملك نصراني كُتّابي: ومعنى هذا أنّ هجرته كانت لخدمة قضية بلده . لكنه كيف خدمها؟ ذلك ما لم يطلعنا عليه كما ضيع علينا معلومات ثمينة عن العلاقة بين إمارة بلنسية ومملكة أرغون في هذه الحقبة لكنه قال ما يلي فقط [السيط] (2) :

قالوا : الخروجُ لأرض الروم منقصةٌ قُلتُ : كلا ! ولكن صادّها بَاءٌ إذا خرجت وفاءً ثمّ عدتْ تُقَى أثبت بفعلِي عُذَاتِي والأجْباءُ وكان لي في قسريش أسوةٌ وكفى مع التجاشي ترضافها الألباءُ

لمن كان هذا الوفاءُ البُقية بلده أم لأمره المرتبط به ببيعة لا يستطيع الفكّك منها دون مُسوّغ شرعيّ ؟ حتى إذا ما أصرَّ صاحبه على البقاء في بلاد النصراني كانت العودةُ إلى بلاد الإسلام واجبةً .

وإني استبعد أن يكون خروجه تمّ دون موافقة شيخه أبي الربيع سالم الكلاعي وكذلك عودته .

كان ابن الأبار شخصيّةً جديرةً بأن يستقبلها الأرغونيون بكلّ تقدير ويحيطوها بكلّ

احترام لكنه كان يشعر بقسوة الحشرات وهو يرسف في أغلال الغربة فلم يرضَ بتلك الإقامة . يقول [الكامل]⁽³⁾:

وكفناك أن الروم كانت جيرتي من جور دُفري واستحالة حالي
كنش الطليق هناك لكن لم أزل من شدة الحشرات في أغلال
أبكسي على استئصال من خلفته وأطيل في الأسفار والآمال

وهذه الأغلال لم تكن سوى آلامه المتراكمة بمفارقة وطنه وأهله واستقراره مما لم يجد معه صبراً ولا جُلداً . ولم يكن له من ملاذ سوى الاعتصام بحمد الله على الحال التي أصبح عليها من حرب الزمان له بعد ما كان مسالماً معه مدة معينة سرعان ما انقضت، يقول [البيضاوي]⁽⁴⁾:

الحمد لله لا أهل ولا ولد ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا سلماً إلى أميد فعاد حرباً لنا لما انقضى الأمد

وكثيراً ما صعد الزفرات شوقاً إلى أهله وذويه كما يقول [الوافر]⁽⁵⁾:

إلى الإنفين من أهل ودار تأوَّبني اشتياقي وأذكاري
وحن القلب أعشاراً إليها حنين الوالعات من العشار
فبئ كائني توقفاً وشوقاً على مثل الأنسة والشفار
وما حشو الضلوع سوى أوارٍ وما نوم الجفون سوى غرار

ويقول [الوافر]⁽⁶⁾:

بعيشك عاطني أخبار داري بها أغنى عن القمحر المذار
إذا قرئت بهيج لها اشتياقي وإن زححت يملها أذكاري
ودغ لومسي إذا أبصرت مثلي فسكّر الشوق من سكر العفار

لقد كان تعلقه ببلنسية ومنازلها أقوى من كل إغراء ولكن كيف يعود ؟

(3) د/ص 250

(4) د/ص 178

(5) د/ص 199

(6) د/ص 200

لعله غامر في العودة إلى الأندلس الإسلامية إذ نجده في وادي آش في شوال 1229/626 ، مما يدل أنه لم يمكث طويلا عند الأرغونيين . ومن هناك فيما يبدو صار يرأسل صديقه أبا الحسين الخزرجي حاكم شاطبة واستهل قصيدته الأولى بذكر بلده وجناتها يقول [الوافر]⁽⁷⁾:

جَنَانِي عَامِرٌ بِهِوَى جِنَانِي وَإِنْ صَدَعْتَ بِرَحْلَيْهَا جَنَانِي
وَطَرْفِي لَيْسَ يَغْنِيهِ سِوَاهَا وَلَوْ عَنَّتْ لَهُ حُورُ الْجِنَانِ
وَقَادَ إِلَيَّ هَوَاهَا الْقَلْبَ قَهْرًا فَأَصْبَحَ فِي يَدَيْهَا الْقَلْبَ عَانٍ
وفيهما بيت آلامه وأحزانه ويصف واقعه المظلم الذي يحاصره بأخطاره فلا يشعر بأمل لا في الذهاب ولا في الإياب، وهو تصوير دقيق لحالته التفسيرية بل لوضعه الحرج الذي وقع فيه إثر خروجه من بلنسية فارا مع أميره يقول [الوافر]⁽⁸⁾ :

أَمَّا أَنْ اللَّيَالِي غَالِبَاتٌ وَلَوْ يُغَرَى بِسِنْصَرِي الْفَرْقَدَانِ
إِذَا لَمْ أَتَقْهَا بِعَلْسَى ابْنِ عَيْسَى وَحَسْبِي مِنْ حُسَامٍ أَوْ سِنَانِ
فَلَسْتُ مِنَ الْإِيَابِ عَلْسَى يَقِينٍ وَلَسْتُ مِنَ الذَّهَابِ عَلْسَى أَمَانِ
فَإِنْ أَبَا الْحُسَيْنِ يَنَالُ مِنْهَا مَنَالُ الذُّغْرِ فِي قَلْبِ الْجَبَانِ
يُنْهِنُهَا مَتَى انْهَدَّتْ لِحَرْبِي وَيَأْخُذْ لِي الْأَمَانُ مِنَ الزَّمَانِ
ويدو أن أبا الحسين بذل للرجل ضررًا من المعروف ، وفتح له باب الأمل ليعود إلى بلده معززا مكرمًا . فهو الذي طأهَرَهُ على الليالي وأخذ له الأمان من الزمان الذي أعلن عليه الحرب ، وبذلك أصبح في ظل حاكم شاطبة كباقي الرعية كلها في حرز وضمان من الدهر وإذائه وامتناهيه . وقد شاهد عيانا في أبي الحسين أكثر مما كان يُحَدِّثُ به نفسه . وهكذا استعادت أجنحته ريشها المقصورة بمقص الظلم ، كما صارت راحته تجني أغلى الأمانى وتطفئ ثمارها من قَمِيمِهَا الشَّمَاءِ . يقول [الوافر]⁽⁹⁾:

وَجِيتَكَ سُورَ أَيْسَامٍ لِإِسَامٍ أَعَانِي مِنْ أَذَاهَا مَا أَعَانِي

(7) د/ص 323

(8) د/ص 324

(9) د/ص 325

ومثلُك رَقُّ سُدُّدُهُ لمثلُسي فأجَنُسي راحتُسي شَمُّ الأمانُسي
وراشُ جناحُسي المقصُوصُ ظَلَمُا وأنسانُسي الأخبُنةُ والمغانُسي

وهكذا أصبح ابن الأَبَّار يتمتّع في شاطِبة بربيع مزهر دائم متصل صيفا وشتاء، ولا سَعِير ولا زمهرير . ومع ذلك فإنّ بلنسية هي بلنسية . فهناك الرصافة وهناك المصلّى وهناك الجسور والحدائق الغناء والجنان الفيحاء، وهناك شيوخه وأصحابه وهناك مَركَزُه ومسؤوليته إذن فالعُودَةُ مُحْتَمَّةٌ، لذلك نراه ينتقل إليها بعد محاولات بذلت لاشك ، من الداخل والخارج لتحقيق هذا اللقاء لقاء الشاعر الوزير بحبيته : بلده بلنسية .

وفي العودة تحمل مسؤولية جديدة ...

وقد دشّن عودته بقصيدة رائقة في قائدها الجديد ورفيقه القديم في البلاط الراحل ، والقصيدة إشادة ببطولة القائد الأمير الذي اضطلع بمسؤولية الدفاع عن بلنسية. وإذا ما صدقنا ما جاء فيها — ولا شك أنها لا تخلو من أصل الحقيقة مع بعض المبالغات — فإن جيش بلنسية بقيادة جَمِيل حَقَّق انتصارات متعددة على الأَرغونيين لكنّ تحت الراية السُوداء التي تدل على ولاء هذه الإمارة الصغيرة النائية للخلافة العباسية المشرقة على الهلاك في ذلك الحين .

فكانَ ابن الأَبَّار يُسَوِّغ عودته إلى بلنسية بكون الإمارة الجديدة تبنت قضيتها ، وهو ما دفعه للإشادة بهذه القيادة التي تضمّن لبلده البقاء والاستمرار وللأَرغونيين اليأس من الانتصار . والقائد الجديد لا يقف موقف الدفاع فقط وإنما تجاوز ذلك للهجوم في عقر دار الأعداء . يقول ابن الأَبَّار ، واصفاً أبا زَيْيَان [الطويل]⁽¹⁰⁾ :

وَتَغَزَوُ العَدَى فِي عَقْرِهَا مَتَابِعَا وحسبك غَزَوُ فِي العَدَى مَتَابِع
فَتُلْفِي دِيَارَ المَشْرِكِينَ وَلَمْ تَنْزَلْ أَوَاهِلَ قَدْ أَصْبَحَ وَهِيَ بِلَاقِعُ
وَلَاذُوا بِأَعْلَى الرِّاسِيَّاتِ تَوَقُّعَا لِمَا سَوْفَ يَغْشَاهُمْ . وَمَا حُمُ واقِعُ
فَلَمْ تَأَلْ هَذَا أَرْضَهُمَ وَاسْتِبَاحَةَ تُجَادِبُهُمْ أَطْرَافَهَا وَتُنَازِعَ

إلى أن يقول (11) :

أَرْجُو انتصاري في زمانك نصرَةً وقد كَثُرَتْ فيهم لَعْمَرِي الوقائع
فَأَعَيْنُهُمْ بَعْدَ الهَجْرِ سَوَاهِدٌ وَأَعْيُنُنَا بَعْدَ السُّهَادِ هَوَاجِعُ

ويقول (12) :

تَغْشَوْا نَغْشَورَ الْمُسْلِمِينَ بِوَأَسْمُ بِهِ وَرَقَابُ الْمُشْرِكِينَ خَسَوَاضُ
وأخيراً يتكلم عن علاقته بالأمير واعتذاره عما كان منه (13) :

أَمِيرَ الْعُلَى أَرْجُو وَمِثْلُكَ سَامِخُ أَمِيرَ الْعُلَى أَذْغُو وَمِثْلُكَ سَامِعُ
وَأَشْدُو بِمَا طَوَّقْتَنِي مِنْ صَنَائِعِ جَسَامٍ كَمَا تَشْدُو الْحَمَامُ السَّوَاحِعِ
فَيَصْدَحُ مِنِّي بِاعْتِمَادِكَ صَادِحٌ وَيَصْدَعُ مِنِّي بِاعْتِمَادِكَ صَادِحُ

تولى قضاء دانية سنة 633 هـ/ 1235 - 1236 م ، ثم الوزارة ببلنسية . وقد
خلف قصائد تتحدث عن همومه التي كانت تشغل عواطفه وتحتل بؤرة تفكيره وملك
عليه كيانه :

ففي القصيدة السينية المشهورة لم نجد له فيها أي إشارة إلى شخصيته من حيث
منفعة تخصها ، وإنما هناك أبيات قليلة في أواخر القصيدة يشير فيها إلى أن السعيد
من يلقى الأمير ، ويشير نفسه بتحقيق آماله فيه كأنما خاض إليه البحر طريقاً يئساً فوجد
الوجود في استقباله . ثم يعود إلى الموضوع الذي من أجله سافر وكأنما قدم لآخر
القصيدة بتلك المقدمة الصغيرة من أجل التأثير وتحقيق ما من أجله وقف هذا الموقف
. فهو يريد إنقاذ الأندلس عموماً وشرق الأندلس خصوصاً وبلنسية بصفةٍ أخصراً . وقد
وضع أمام الأمير صورة الواقع كما هو ليس فيه تزييداً أو تزييفاً : السبيل إلى إنقاذ الأندلس
دَرسٌ . فليس من السهل ، إذن ، نجاتها مما هي فيه [البسيط] (14) :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجارتها درساً

(11) د/ص 361

(12) د/ص 361

(13) د/ص 361

(14) د/ص 395

لقد فاجأهم بالحقيقة المرة ولكنَّ الأمل قوي في الحفصيين الذين يخاطبهم باسم الأندلس ، فالأندلس تعاني حشاشتها ما تعاني من سكرات الموت وحشرجات الاحتضار بما يعتورها من بلأيا صباح مساء ، ففي كل مطلع شمس تحلُّ بها بائقة وفي كل مغرب تنزل بها كارثة تتناولها الولايات والمصائب لا تكادُ مصيبة تفارقها حتى تنفض عليها أخرى ، فهناك مدائن ارتحل عنها الإيمان مبثسا مذعورا إذ حلَّها الإشرارك مبتسما مسرورا ، أما المساجد فهي تستحق الرثاء وتستوجب الإنجاد إذ عادت بيعة وكنائس وتحول بها الأذان إلى أجراس ونواقيس ، كما أنَّ مدارس العلم والمعرفة قد اندرست معالمها وطُمس وجودها مما يشير في النفس الألم والحسرة .

أما المرباع الجميلة والحدائق الغناء والأشجار الباسقة والزهور المتفتحة النظرة فقد صوّح نبتها وبيست أغصانها وجفت حُضرتها وتساقطت أوراقها وتغيّر كل شيء جميل فيها .

ومما يضاعف الآلام أنَّ الأندلسيين أصبحوا جَزْراً وقطعا مفرقة تهنئهم الأحداث واستحال حظهم السعيد السالف شقاء وبؤسا . ويُبرز ابن الأثير عنصر « الغرض » كَلْبُ المأساة ليستثير همم الحفصيين : فقد أقسم الروم ألا تنال أيديهم بالقسمة والتوزيع إلا نساء الأندلس المحجبات المصُونات .

واختار من مدائن الأندلس حاضرتها الكبرى : قرطبة وحاضرة الشرق بلنسية ، فإنَّ حالتها وما تعاني كلُّ منهما ما يفضي النفس ويستنزف النفس وإن كان ميّز بلنسية بتأكيد خاص [البسيط] (15) :

وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعائهم زكوا ونحسا

وهو كما قلنا يشيد بما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الوفادة ، لكنه سرعان ما يتخذ ذلك وسيلة لخدمة الغرض المقصود لتحقيق هدفه فيوحي للأمير أنَّ الإجماع والتواتر قائمان على أنه الوحيد الذي يجدر أن يُحيي الأندلس بمحق أعدائها [البسيط] (16) :

وقد تواترت الأتباء أنك مَنْ يُخَيِّي بقتل ملوك الصفر أندلسا

(15) د/ص 399

(16) د/ص 399

ويعود إلى بلنسية وقد نجحت سفارته تصحبه نجدة حفصية ، كاستجابة فورية ،
افتتح الشاعر أنها كافية لإنقاذ بلنسية . وهكذا سيتم في نظره فتح جديد يذكر بفتح
مكة ، فاستحق منه هذا الحدث قصيدة على غرار قصيدة حسان بن ثابت رضي الله
عنه التي أنشأها بمناسبة الفتح . وقصيدة ابن الأبار جاءت في وصف لأسطول الحفصيين
الذي يقل على متنه أسودا عظاما، ومدح الأمير الحفصي الذي هو وحده الجدير بعلاج
الخطب الذي حل ببلنسية .

لكن هذه النجدة لم تستطع أن تحقق أمل ابن الأبار لا في الإنقاذ ولا في دفع خطر
الحصار ، مما جعل البلد يقرر الاستسلام ، فكان ابن الأبار هو المفاوض في هذا الأمر .

على الرغم من ذلك فإن الشاعر الوزير لم يأس من استعادة بلده أو على الأقل من
المحافظة على ما تبقى من شرق الأندلس كدانية ومرسية لأنه وجد في تونس من
يستجيب لندائه وينفعل لشعره . ويتأثر لصريخه . فعاد إليها مرة ثانية ليُنَاشِذَ الأمير أبا
زكريا إعادة الكثرة لإنقاذ الأندلس لا سيما وقد حمل إليه بيعة بعض مدنها
[الكامل] (17) :

هي ذَا رُكَّ القُصُوى أوث لِيَا لِيَا لِيَا ضَمِنْتَ لَهَا مَعَ نَصْرَهَا إِيوَاءَهَا
وهو يعيد على مسامعه الآن أُنْبَاءَهَا التي بُشَّيْهَا إِلَيْهِ فِي السَّفَارَةِ الْأُولَى [الكامل] (18) :

مَوْلَايَ هَاكَ مُعَادَةُ أُنْبَاءَهَا لِيُتِمَّلَ مَسْنِكَ سَعَادَةُ أُنْبَاءَهَا

فالأندلس ليس لأهنيها سبيل إلا الضراعة والتوسل إليك، كما أن أهلها خلعت قلوبهم
لباس الصبر ورداء السلوان، ذلك أنهم دُفِعُوا دُفْعًا لَتَقْتَرِسَهُمُ الْخَطُوبُ بِشَتَّى أَنْوَاعِهَا :
تلك التي عرفتموها سابقا وأخرى جديدة . وهكذا أشرفت على الهلاك والموت ، فلم
يبق منها سوى نبضات متقطعة . وقد قدم صورا لِمَآسٍ حَلَّتْ ببلنسية بعد ضياعها ،
وصار يشجع الأمير بأساليب متعددة من أجل إنقاذ الجزيرة التي تريد العدى الاستيلاء
عليها ، وقد حاول أن يغريه لقيادة جيش النجدة بنفسه ، إذ يقول [الكامل] (19) :

بُشْرَى لِأَنْدَلُسٍ تُجِبُّ لِقَاءَهُ وَيُجِبُّ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِقَاءَهَا

(17) د/ص 33

(18) د/ص 35

(19) د/ص 37

كان ابن الأتبار يغتنم كل فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط
ولاء وتبعية ، من ذلك قصيدته رقم (25) (ص 80) ، التي سجل فيها بيعة بعض
المدن الأندلسية لأبي زكريا ، وذلكس حوالي 1243/641 يقول [الطويل] (20) :

إلى مذهب سَنَّه سَنَةً ، قاصِدٌ به عدلوا عن زائفات المذاهب
ألا هذه « حمص » تُناسِبُ طاعةَ سِجْلَماسةَ في رفضها للمَناصِبِ
وما خالفت غرناطة رأيَ رِيبةَ تشمل أنوار الهدى كل جانب
وجيان لم ترح كثيلِ وطنجة ممارسة هوج الصبا والجنايب
إلى أن يقول :

لأندلس البُشرى بنصر خليفسة ضروب بنصل البسف زاكِي المَناصِبِ
ورفع للأمير أبي زكريا قصيدة طويلة بمناسبة بيعة المرية عقب بيعة سِنة . ولعل
مدنا أخرى بايعت أيضا وسُمِّي هذا العام : عام الجماعة ، يقول [البسيط] (21) :

لأمرية أن إقطاع المرية في أعقاب سِنة للإجماع ميعاد
عام الجماعة ما اعتصمت ولا نفلت فيما يُقرّر جِسان وتُعسداد

وعندما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في شعبان 646 هـ/ 1248 م كان ابن
الأتبار في بجاية . وبعد ذلك بثلاثة أشهر أنشأ قصيدة موجهة إلى أبي زكريا ، وكان
ذلك بعد العفو عنه ، كلها تحريض وإثارة لحمية الحفصيين حتى يسارعوا لإنقاذ
الأندلس . بأسلوب يدل أن الأمر هين ، وأن ليس بين الحفصيين وبين القضاء على
محتلي بالنسبة وغيرها سوى أيام قليلة . فأرض الأعداء قد استوجبت وأذنت بافتتاحها
إذ ليس وراء الليل إلا الصباح ، إنهم ذئاب هيجوا ليث الحرب والمعامع ، وقد صور
الأعداء بأنهم ضعفاء ومنهزمون ، في حين صور الحفصيين في قوة واكتساح . وتحدث
عن النجدة وكأنها أمر واقع ، يقول للأندلسيين [المديد] (22) :

وعُدت أندلس منه يوم هي لاستقباله فسي ارتباح

(20) د/ص 80

(21) د/ص 141

(22) د/ص 20 — 119

إن يَكُن عَيْداً لِنَحْرٍ وَذَنْحٍ كَيْفَ شَاءَتْ فَلْأَعَادِي أَصَاحِي
أَجْنَسِي جَنْمَصِرَ أَبَاخُوا جَهَارَا وَجَمَاهَا لَمْ يَكُنْ بِالسَّاحِ
لَا وَيَخِي الْمُرْتَضَى لَاهِنَاهُمْ بِالسَّيْسِ الْقَرْحِ وَرْدُ الْقَرْحِ
إِنَّمَا يَرْقُبُ مَيْقَاتَ فَتَحٍ هَوَاتٍ فِي ضَمَانِ الشَّجَاحِ

ولم يتحدث عن نفسه إلا في آخر القصيدة حيث أبرز فرحة عارمة بالعفو عنه إذ يقول :

يَذُكُّ الْعَلِيَا حَبَّتْ كُلُّ حُذْيَا مَا لِأَرْبَاحِي بِهَا مِنْ بَرَاحِ
بُورَكْتُ مِنْ رَاحَةٍ سَوَّغْتَنِي فِي بُكُورِي لَقَمَهَا أَوْ رَوَّاحِي

كانت بيعة إشبيلية قبل سقوطها ذات أهمية وتأثير في بيعة الجزيرة وشرش كما يظهر ذلك من قوله [الكامل] (23) :

لِلَّهِ حِمَصٌ وَفَوْزُهَا بِسَعَادَةٍ هَدَتْ الْجَزِيرَةَ نَحْوَهَا وَشَرِيحَا

ويظهر جليا أنه عندما استقرت به الأحوال في تونس ، لم يستسلم للحياة الإدارية التي تولى فيها منصبا كبيرا . فلم ينس «القضية» ، بل ظلت هاجسه في كل مناسبة ، ولذلك نجده يغتنم كل فرصة من أجل حمل تونس على إعلان الجهاد وإنقاذ المدن الأندلسية الضائعة أو المهددة فالقصيدة رقم (65) (ص 151) يبدو أنه أنشأها إثر نزوله بتونس ملتجئا كما يفهم من قوله [الزمل] (24) :

قَرَّتْ الْحَالُ بِكُفْمٍ فِي نَعْمَةٍ أَنْطَقْتَنِي بِالْقَوَافِي الشُّرْدِ
تُصِفُ الرُّوْضَ وَقَدْ غُثِّي بِهَا وَاصْفُ سَجْعَ الْحَمَامِ أَلْفُسُرْدِ

وهي مليئة بوصف شجاعة أبي زكريا وجهاده ، وتهديد الروم به يقول (25) :

إِنْ يَكُن طَاغِيَةُ السَّرُومِ بَعْسِي فَظُنِّي الْهِنْدَ لَهُ بِالْمَرْصِدِ
غَرَّهُ الْبَعْدُ وَعَنْ قَرِيبٍ يَرَى جَزِيرَةَ الْكُفْرِ تُؤَدِّي عَنْ يَدِ

(23) د/ص 404

(24) د/ص 153

إلى غير ذلك مما كان يتصور وقوعه على يد أميره الجديد .

ومن القصائد التي مدح بها أبا زكرياء واصفا أحواله الجديدة وحياته بتونس في ظل الحفصيين تلك التي مهد لها بمقدمة غزلية طويلة مادحا الأمير بأوصاف مستعصية من العلم والشجاعة والكرم . وربط ذلك بجهاده للكفار بالأندلس . يقول آخر القصيدة [الطويل] (26):

وَهَذِي مَلُوكُ الرُّومِ تُشْخِصُ رُسُلُهَا بِسِلْمِكَ ثُبُغِي لِلسَّلَامَةِ سُلْمًا
وَيُغْزِي جَنَابَ طَالٍ بِالْغَزْوِ عَهْدُهُ وَيُفْتَحُ بَابَ كَانَ لِلْكَفْرِ مُنْهَمًا
وعنا حقيقة هامة لم تسجل في التاريخ أو على الأقل في تاريخنا ، وهي السفارات الأروغونية أو غيرها إلى تونس في شأن تنظيم العلاقات الحربية والسلمية بين الجانبين .

كان ابن الأتار شخصية قوية مفرطا في الإعجاب بنفسه ، وزادته الغربة حدة في طبعه مما جعله يجأر بالشكوى . وكان يثّ هذه الشكوى خلال قصائده الاعتدالية وخلال نغاثاته الحزبية التي كانت أشواقا لوطنه ووصفا لحماله ، وترديدا للذكريات حميلة في رياضته وحلقاته العلمية ومجالس أصحابه ومدارح ألعابه :

يقول شاكيا ضياعه ، وأرجح أن تكون هذه الأبيات في تونس أو بحاية [الكامل] (27) :

لَأَمْ الْمَجْبُونُ الْفَسَاقُ وَلَمْ تَنْهَ لَكُنْهُمْ سَلَمُوا وَلَمَّا أَسَامُ
ظَعَنُوا وَهُمْ قَدْ وَدَعُوا أَوْ سَلَمُوا وَظَعِنْتُ غَيْرَ مَوْدَعٍ وَمَسَلَمُ
فَعَلَيْ فُلْتَيْكِ الْبَوَاكِي إِنِّي أَخْرَجْتُ مِنْ وَطَنِي وَلَسْتُ بِمُحْرِمِ
وَأَضَعْتُ يَوْمَ وَضَعْتُ فِي أَرْضِ بِهَا يَفْدُو الْقَصِيحُ مَعْظُنًا لِلْأَعْظَمِ
لَا أَسْتَرِيحُ بِغَيْرِ لَيْسَلٍ أَيْسَلِي أَشْكُو تَطَاوُلَهُ وَيَوْمِ أَيْسَوْمِ

وقد مَرّت على الشاعر الوزير حقت كان الحديث فيها عن نفسه معزوحا بوطئه وقضيته . فالجراح ملكت عليه جوارحه واستبدت بها لا تخلو حارحة من جرح يتزف

(25) د/ص 152

(26) د/ص 3-272

(27) د/ص 292

دماً، فلا أمل في شفائه ذلك لأنه كوطنه عار أعزل أمام هجمات الخطوب والكوارث المتحددة ، وهو في صحراء قاحلة لا ماء ولا شجر بل إنه يسير في متاهاتها ليس له من سبيل ولا قدرة على التخلص من الهلاك الذي يترصده في كل ناحية كطائر مهبط الجناح . وحديثه عن وطنه مفعّم أبداً بالأسى والكمد إذ أُسْلِمَ إلى العدو الذي هوى عليه بسيفه كالسفاح في حين غاب عنه منصوره الذي كان يحمي حماه ويحورطه بالأمن والأمان . يقول في نذب بلنسية [الكامل] (28) :

مَلَكْتُ جَوَارِحَهُ عَلَيْهِ جِرَاحُهُ فَشَفَاؤُهُ لَا يَرْتَجِسُ وَسَرَاحُهُ
عَارٍ لِأَبْكَارِ الْخُطُوبِ وَعَوْنُهَا غِيضَتْ مِوَارِدُهُ وَهَيْضَ جَنَاحِهِ
لَمْ يَعْتَرِضْهُ مَسَاؤُهُ بِسِمَاءَةٍ إِلَّا وَضَاعَفَهَا عَلَيْهِ صَبَاحُهُ

وَحَدِيثُهُ كَمَدٌّ عَنِ الْأُنْقَى الَّذِي تَصِفُ الْجَنَانُ تِلَاعُغَهُ وَبَطَاحُهُ
يَجْرِي حَيْثُ مَا تَحْتَهُ أَنُهَاؤُهُ وَتَمِيسُ لَيْثًا فَوْقَهُ أَدْوَاخُهُ

وهو أسير شوقه لبلنسية وحدائقها وجناتها ولا سيما الرصافة والغدير [الخفيف] (29) :

لَا تَصْدُؤُا فَرَبِّمَا مِمَّا مَاتَ صَدَا مُسْتَهَامٌ لِسُلُوءٍ مِمَّا تَصْدَى
جَعَلَ السَّهْدَ فِي رِضَاكُمْ كَرَاهٍ وَانْخَسَى فِي هَوَاكُمُ السُّقْمُ يُرْذَا

ثم يقول (30) :

يَا سَقَى اللَّهَ لِلرِّصَافَةِ عَهْدًا كُنْ سِيمَ الصَّبَا يَرْقُ وَيَنْدَى
وَجَنَائِفِهَا أَهْيَمُ حَنَائَا يَبْدَأُنِّي حُرِمَتْ فِيهِنَّ خُلْدَا
مُسْتَهْلًا كَأَذْمُعِي يَرْزَمُ وَدَّعَا تَرَاهَا التَّفَاحَ مِسْكَانًا
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرْجِعُ الدَّهْرُ عَيْنَنَا يَنْهَهُ الطَّيِّبُ أَنَّهُ كَانَ شُهْدَا

وكثيراً ما ردد تعلقه بوطنه وبخاصة بلنسية ، وهو غير قادر على السلو عنها ، لأنها

(28) د/ص 131

(29) د/ص 175

(30) د/ص 176

ماثلة في قلبه ونفسه وهي ملء السمع والبصر لأن ذكرياته فيها جميلة لا تُنسى أبدا .
[الوافر] (31) :

إلسي أوطانه حنّ العميسد فظل كأثفه غصنُ يَمِيد
ومسقط رأسه ذكر اشتياقا فذاب فؤاده وهو الحدييد
ولورام السلو أبت عليه معاهذه عهدُها الماضي حبيد
ويشبه نفسه بالشاعر العربي : الصمّة بن عبد الله القشيري الأموي [الوافر] (32) :

ضميري واجد بهوى «المصلى» كوجد أحسي قشير بالضمار
لأصال به حسنت وطبات كما حذنت عن نور العرار
وما جار العرام عليّ حتى تاكسد يئنا سب الجسوار
وهو يسكر بذكرى بلده يهيجه قربها ، فإذا ابتعد عنها تمثّل ذكرها ، لذلك كانت
أثاؤها كؤوس خمر تغنيه عن الكؤوس المدارة [الوافر] (33) :

يعيشك عاطني ألباء داري بها أغنى عن القدح المدار
إذا قرئت يهيج لها اشتياقي وإن نرحت يمثلها اذكاري
وهو في غربته كالحمام لا يفتر عن التواح كلما ذكر شرق الأندلس . وتسح عيونه
بالدموع كأنما تسكب منها الغمام كلما لمع برق من تلك الجهات ، حتى أصبح
محسودا على بكائه ونوحه من المطر والحمام [الطويل] (34) :

أنوخ حماما كلما ذكر الشرق وأبكي غماما كلما لمع البرق
ويغطني في سكب أدمعي الحيا وتخصيني في نذب أزعمي الوزق

وفي القطعة (186 ص 400) أنات حزينة على الماضي الجميل للبنسية وواقعها
الحالك ، لذلك فهو يندبها ندب الطلول المندسة مع أنخا أهلة بالسكان ولكن أي

(31) د/ص 177

(32) د/ص 200

(33) د/ص 200

(34) د/ص 392

سكان ؟ ويتوجع باكيا وناديا بلدته وَيُخَصُّ منها عذوبة مائها وجناها[الطويل](35) :

لننسية يا عذبة الغاء والجَنَسى سُئِيت — وإن أَشْفَيْت — صَوَّبَ الرُّوْاجِسَ
أَجْتُ وَأَقْلَى مِنْكَ حَالاً وَمَاضِيَا بِسُوجِثَةِ أَلْسَوْتِ يَغْفِدُ الأَوَانِسَ
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الدِّيَارَ أَوَاهِلَ وَأُنْدُبَهَا نَدَبَ الطَّلُولِ السَّدَوَارِسَ

وهكذا نجد ابن الأثير يرتبط ببلده ووطنه الكبير والصغير ، لذلك تجاوز ذكر الأندلس في ديوانه ثلاثين مرة ، ولننسية بملاعبها وسانيتها ومصلاها وجسرهما ووصافتها حوالي ثلاثين مرة أيضا ، وأنيسة ومرسية وجيان مرتين ، كما ذكر كلاً من قرطبة ومالقة والعمرة وميورقة وشلب وإشبيلية بالإضافة إلى سبتة ، كما عبر برموز كثيرة عن أماكن لهوه وصباه في وطنه الصغير بلنسية .

ونو بقي لنا ديوانه كاملاً لرأينا أكثر من ذلك وأصرح ، غير أن الرجل لم يكن في جو من الحرية ليعلن عن جميع شعره الذي عبر به عن خوالج نفسه كشخصية أندلسية فذة لاقت حيوياً من ثلة لم تُقدَّر مواهبه العظيمة ولا مكانته العلمية الكبيرة ولا انتماءه الحضاري الرفيع .

ومنها يكن من شيء فإن بعض مؤلفاته أيضا مما يكشف لنا عن شديد تعلقه بوطنه كالتكملة ، والحلة السبراء ومعاجمه لشيوخ الأندلس وإعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب ، وخضرء السندس في شعراء الأندلس ، وإيماض البرق في شعراء الشرق .

كما يعتبر درر السمط ومعدن اللحن من الآثار الأدبية التي بكى فيها الأندلس عبر بكائه الحسين وآل البيت .

لذلك وطن نفسه وألزمها أن تظل دائما وفية للوطن وذكرى مواطنيه : بسكب الدموع وتصعيد زفرات الأسى والحزن ، وقد أصبح بذلك مشهوراً إذ يحمل راية الأشجان رغم كبر سنه وضعف جسمه .

يقول في قصيدة رائعة له مخاطباً نفسه [البسيط](36) :

وَطَنٌ عَلَى الدَّائِيْنَ : الدُّمْعُ والشَّجَن يا نَادِبَ الذَّاهِبِينَ الأَهْلِي وَالْوَطَنِ
هَذَا فَوَادِي كَالْمَرْقِ الْخَفْرِ فِي أَسَى وَهَذِهِ أَدْمَعِي كَالْعَارِضِ الْهَيْلَسِ
بِرَاحَتِي رَايَةُ الأشْجَانِ أُحْمِلُهَا وَإِنْ غَدَا الْجِسْمُ وَهَذَا لَيْسَ يَحْمِلُنِي

(35) د/ص 400

(36) د/ص 320

دار التركي للنشر

68، شارع الحبيب بورقيبة — 2000 باردو — تونس
الهاتف : 222.536 / 222.502 تليكس : 13.664 TN
كتب تشرف الأدب العربي : أصالة وتفتخا

آخر ما صدر :

- تنبيه الحكام على مآخذ
الأحكام لمحمد بن عيسى بن المناصف (القرن السابع
المهجري) تحقيق عبد الحفيظ منصور
2 — بينات النبوة الخاتمة من القرآن
والسنة والأخبار
تأليف مصطفى نقرة
3 — الصخرة العالية
(مجموعة أساطير من التراث التونسي)
تأليف الطاهر قبقة
4 — أضواء على الشيعة
المهدي حمّو
5 — أبو الحسن الشاذلي
محمد بوذينة
6 — كلبلة ودمنة (منتخبات)
تقديم البشير المجدوب
7 — أبو منصور الماتريدي
بلقاسم الغالي
8 — شرح منازل السائرين إلى الحق المبين
تحقيق عبد الحفيظ منصور
- 380 ص (24 × 16)
9973.715.03.9
السعر : 8 د.ت. / \$ 15
311 ص (5,5 × 24)
9973.715.18.7
السعر : 8 د.ت. / \$ 15
125 ص (14 × 21)
9973.715.10.1
السعر : 4 د.ت. / \$ 8
268 ص (16 × 24)
9973.715.09
السعر : 8 د.ت. / \$ 15
208 ص (14 × 21)
9973.715.12.8
السعر : 7 د.ت. / \$ 14
216 ص (16 × 24)
9973.715.06
السعر : 5 د.ت. / \$ 10
324 ص (14 × 21)
9973.715.07.1
السعر : 8 د.ت. / \$ 15
جزء (1) 324 ص
جزء (2) 312 ص
(16 × 24)
9973.715.16.0
9973.175.17.0
السعر : 7 د.ت. / \$ 14 ج 1
7 د.ت. / \$ 14 ج 2

de l'autre côté de Gibraltar. La prise de Valence eut lieu le 17 Safar 636. Ibn-al-'Abbār, assumant de nouveau sa responsabilité, repartit à Tunis, pour tenter une nouvelle fois, de convaincre le monarque hafside de la nécessité d'intervenir en Andalousie pour sauver ses coreligionnaires de Valence. Il utilisa pour y parvenir son génie politique et sa veine poétique.

Ni l'accueil favorable et chaleureux que lui avait réservé Abū Zakariyyā, ni le poste de chef de chancellerie qu'il lui avait décerné dans la capitale hafside, n'arrivèrent à lui faire oublier la cause de sa patrie. Sa fidélité à Balansiya et à al-Andalus était totale. Il finira sa vie à Tunis et consacrera tous ses écrits (notamment K.al Takmila et K.al Ḥulla al-Siyarā') et toute sa poésie à chanter l'amour éternel qui le liait à son pays natal, à savourer une nostalgie qui ne cessait de croître, et à glorifier et pleurer son paradis à jamais perdu. Sa fidélité presque légendaire à sa patrie a certainement été à l'origine de son renom et probablement aussi, l'une des causes de sa disgrâce et de sa fin tragique.

c) **Ibn al-'Abbār, a poet faithful to his homeland**

The purpose of this paper is to study one of the most attractive and original aspects of Ibn al-'Abbār's personality, namely his faithfulness to his homeland al Andalus and to his hometown Balansiya, the Spanish Orient of Moslem rule. In fact, Abū 'Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbār al-quḍā'ī (died in 658/1260) was not a simple and conservative historian or an ordinary court poet. He was rather a brilliant minister, a courageous and lucid statesman and a militant poet. Following the siege of Valence by King Jack I of Aragon in 635/1238, Ibn al-'Abbār headed a delegation to the Hafsid Ifrikyā in order to secure some help from the ruler of Tunis, Abu Zakarya, who was then at the top of his strength and glory. He read in the presence of the Hafsid prince, his famous poem rhyming in «sīn» (Siniya) in which he mourned his homeland and depicted his besieged hometown; he urged the Moslem prince to help save Islam which was threatened from the other side of Gibraltar. Valence fell on 17 Safar 636. Ibn al-'Abbār, once again made a journey to Tunis to try to convince the Hafsid monarch of the necessity to save his moslem brothers in Valence. To reach his goal, he used his political cunning and his poetry.

Neither the warm and favourable welcome by Abū Zakariya, nor the post of head of chancery he was offered in the Hafsid capital resulted in his forgetting the plight of his homeland. From Tunis, where he died, he recorded in his writings (K. Takmila et al-Ḥulla as-siyarā) and in his poetry the eternal love for his homeland. His almost legendary faithfulness towards his lost paradise was certainly at the origin of his fame; it was also probably one of the causes of his disgrace and tragic death.

poeta militante y comprometido. Después del asedio de Valencia por el rey Jaime I de Aragón en el año 1238, Ibn al-Abbār, a la cabeza de una delegación, hizo rumbo a la Ifriqiyya hafsí para pedir ayuda al soberano de Túnez, Abū Zakariyya, que, en aquel entonces, estaba en el pináculo del poderío y de la gloria. Recitó ante el emir hafsí su famoso poema cuyos versos tienen como rima común la letra «sín» (Siniyya). En él, lloraba la pérdida de su patria, bosquejaba un cuadro conmovedor de su ciudad natal asediada, e incitaba al emir musulmán a que salvase al Islam del peligro y amenaza que se cernían sobre él, procedentes del otro lado de Gibraltar. Valencia fue conquistada el 17 de Safar del año 636 de la era musulmana. Asumiendo de nuevo su responsabilidad, Ibn al-Abbār volvió a Túnez para tratar, otra vez, de persuadir al monarca hafsí de que su intervención en al-Andalus era imprescindible para salvar a sus correligionarios de Valencia. Para ello se valió de su instinto político y de su vena poética.

Ni la acogida favorable y calurosa que le había dispensado Abū Zakariyya, ni el puesto de canciller que le había otorgado, en la capital hafsí, consiguieron que abandonara su causa. Su fidelidad a Valencia y al-Andalus era absoluta.

pasó los últimos años de vida en Túnez y consagró todos sus escritos (especialmente: al Takmila y al Hullaa'l-Siyarā) y toda su poesía a cantar el amor eterno que le unía a su país natal, a saborear una nostalgia que no cesaba de crecer y a glorificar y llorar su patria perdida para siempre. El renombre de Ibn al-Abbār era, sin duda, el resultado de esa legendaria fidelidad a la patria que, probablemente, era también una de las causas de su desgracia y final trágico.

b) Ibn al-'Abbār : un poète fidèle à sa patrie

L'article se propose d'étudier à travers la poésie d'Ibn al-'Abbār un des aspects les plus attrayants et les plus originaux de sa personnalité à savoir sa fidélité à sa patrie al-Andalus et à sa ville natale Balansiyya, métropole du levant espagnol, le Šarq-al Andalus de l'époque musulmane. En effet, Abū Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbār-al quḍā'ī (mort en 658/1260) n'était pas un simple historien traditionaliste ou un poète de cour ordinaire ; c'était plutôt un ministre brillant, un homme d'Etat, courageux et lucide, et un poète militant et engagé. Après le siège de Valence par le roi d'Aragon Jacques 1^{er} en 635/1238, Ibn al-'Abbār prit le chemin de l'Ifriqiyya hafsīde, à la tête d'une députation pour solliciter aide et secours du souverain de Tunis, Abū Zakariyyā, alors au faîte de sa puissance et de sa gloire. Il récita, devant l'emir hafsīde, son fameux poème rimant en sín (Siniyya) dans lequel il pleurait sa patrie, brossait un émouvant tableau de sa ville natale assiégée et invitait l'emir musulman à venir en aide à l'Islam menacé

3 — However, besides the subjective and official aspects, a third one can be pointed out, the personal aspect : the poet earnestly evokes his misfortunes in Moslem Spain and Ifriqiyya, misfortunes which led to his killing by El Mustansir El-Hafsi.

We do not claim to have found a lot of things differing from what is found in history books, but there are details in Ibn al-'Abbār's poetry which historians did not mention. There are also precisions added to the poet's biography. Most important is the fact that one finds in Ibn al-'Abbār's poetry an explanation of events — especially those about Ifriqiyya — from a special viewpoint. Such an explanation might not be found in history books.

Had an opposite poetry — for example that relating the Muwahdine dynasty point of view — been discovered, there would be enough room for comparison. The Muwahdines had numerous poets in Marrakech (2). The reader is invited to examine the following lines where Ibn al-'Abbār regrets having distorted reality in his poetry (3) :

1 — I have been deprived of reason since I awkwardly served kings who are slaves.

2 — In my desires, I lied to them ; my desires should have been addressed to whom I pray.

Isn't Ibn al-'Abbār's confession sufficient enough for us to be careful if we want to know the truth, and but the truth ?

III

a) Ibn al-'Abbār: Un poeta fiel a su patria

El propósito de este artículo consiste en estudiar, a través de la poesía de Ibn al-'Abbār, una de las facetas más atrayentes y originales de la personalidad de este poeta, a saber, su fidelidad a la patria, al-Andalus, y a su ciudad natal, la metrópoli del Levante español o del Šarq al-Andalus, Valencia. En efecto, Abū Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbār al-Qudā'i, muerto en el año 1260 (correspondiente al año 658 de la era musulmana), no era un simple historiador tradicionalista o un ordinario poeta cortesano sino, más bien, un ministro brillante, un estadista valiente y lúcido y un

(2) See a second sample of this poetry in part II of our thesis : «Troubles and Wars and their effect in Andalusian poetry», (page 204) when we compare between the poetry relating el Ma'mūn El Muwahhidi's viewpoint and the opposite poetry relating the point of view of his rival about ruling i. e. his nephew Yaḥyā El Mu'tašim.

(3) Ibn al-'Abbar's diwān page 178.

rétractant et regrettant amèrement ce qu'il avait exprimé dans son Diwān, de façon contraire à la vérité, dit :

J'étais dans l'égarement, et, par sottise,
J'avais servi les rois, alors qu'ils ne sont que des esclaves (3)
Quel malheur que de les avoir suppliés.
Que n'aurais-je supplié celui que j'adore.

Cette attitude du poète suffirait-elle comme mise en garde, si nous tenons à atteindre la vérité, toute la vérité?

c) The documentary value in Ibn al-'Abbār's diwān

Professor Abdelssalim Harras has, for the first time, critically edited the works of the poet Ibn al-'Abbār. He has used the unique copy held at the royal library in Morocco under number 4602. Professor Harras' work constitutes a major contribution to the history of Andalusian poetry, for Ibn al-'Abbār was among the great personalities of the 7th/13th century, both on the political and literary levels in Moslem Spain and Ifriqiyya.

A literary work may lend itself to two kinds of study :

1 — For a critic or a stylist it is the esthetic aspect of the work which matters.

2 — For a literature historian or a thought investigator, it is the documentary value of the text which counts.

Since the documentary value of a literary text has proved worthwhile after many studies on Andalusian poetry (1), we have tried to apply this methodology on Ibn al-'Abbār's diwān. This is how historical events stand out in this poetic work belonging to the 7th/13th century. Ibn al-'Abbār's poetry has subjective and official aspects :

1 — Subjective as regards Moslem Spain : the poet conveys his feelings about his lost homeland.

2 — Official as regards Ifriqiyya : the poet supported the hafside policy ; he praised its princes and severely attacked its foes ; he encouraged and valued its faithful allies.

— dans la poésie Andalousie p. 204). Dans notre comparaison entre la poésie exprimant le point de vue de Ma'mun l'Almohade et la poésie correspondante de son adversaire et concurrent pour le Califat, son neveu Yahyā al Mu'tasim.

(3) Diwān p. 178.

(1) See for example our articles:

— The documentary value in Ibn al-Khatib's poetry (Faculty of letters Review of Tatouane volume 2 n° 2/1987 page 191).

— The documentary value in Abdelkarim el-qayṣī al-Andalusi's poetry (Annals of the university of Tunis n° 27/1988 page 118).

— The documentary value in Youssef III's poetry (Ibid. n° 28 / 1988 page 185).

1) Pour le critique, ou le linguiste, il s'agit d'en saisir la valeur esthétique.

2) Quant à l'historien de la littérature ou le chercheur de la pensée, leur but serait d'en déduire la valeur documentaire.

Et comme nous avons fini, après l'étude de maints recueils de poésie andalouse⁽¹⁾, par admettre la valeur documentaire du texte littéraire, nous avons essayé d'appliquer cette méthode à l'étude du *Diwān* d'Ibn al-'Abbār. Donc comment, nous parurent les événements historiques dans ce texte poétique du 7^e siècle (de l'Hégire)/13^e siècle (de J.C)?

Ce *Diwan* est un recueil de poésie particulières et officielles :

1) Particulières, par rapport à l'Andalousie. En effet, le poète pleure sa patrie perdue, traduit sa tristesse, clame sa souffrance pour ce malheur ; il exprime sa nostalgie et son désir de la retrouver ; il la défend et exhorte les *Hatsides* à la récupérer.

2) Officielles, par rapport à l'Ifriqiyya. En effet, il s'intéressa à la politique de la dynastie Hafsīde, loua ses princes, invectiva ses ennemis, encouragea et glorifia ses alliés.

3) Cependant le *Diwān* comporte, entre le subjectif et l'officiel, un troisième aspect : il s'agit de l'aspect personnel. Le poète y exprime avec toute sa sincérité, les malheurs et les vicissitudes, qu'il rencontra aussi bien en Andalousie, qu'en Ifriqiyya, notamment les calamités qui, en Ifriqiyya, auront pour dénouement tragique sa mort par ordre d'al Mustansir le Hafsīde.

Bien que n'ayant pas la prétention d'avoir découvert dans le *Diwān* d'Ibn-al-'Abbār beaucoup d'éléments qui diffèrent de ce qui existe déjà dans les livres d'histoire, nous pouvons soutenir qu'il contient des détails qui ont été négligés par les historiens. De même, y a-t-il sur la vie du poète, des précisions qui ont été déduites et ajoutées.

Le plus important, c'est que nous y découvrons une explication des événements, surtout concernant l'Ifriqiyya, selon un point de vue particulier. Ce qui manque dans les livres d'histoire.

Le domaine de la comparaison serait vaste s'il y avait une poésie, correspondante à celle d'Ibn al-'Abbār, c'est-à-dire, celle exprimant le point de vue de la dynastie Almohade par exemple ; celle-ci avait d'ailleurs de nombreux poètes à Marrakech⁽²⁾. ET voici, Ibn al-'Abbār, lui-même qui, se

(1) Cf. à titre d'exemple:

— La valeur documentaire du *Diwān* d'Ibn al Ḥatib (in Revue de la Fac. des lettres de Tétouan - Année 2 n° 22 / 1987 p. 291).

— La valeur documentaire du *Diwān* de Abdelkérīm al Qaysī al Andaloufī (Annales de l'université de Tunis n° 27 / 1988 p. 119).

— La valeur documentaire du *Diwān* de Youssef III (Annales n° 28 / 1988 p. 185).

(2) Cf. Un deuxième spécimen de cette poésie: Tome II de notre Thèse (troubles et guerres

— En el tercero y último grupo hablaba, con mucha sinceridad, de la serie de desgracias y vicisitudes que le habían sobrevenido en al-Andalus y sobre todo en Ifriqiyya donde tendría un final trágico : al-Mustansir al-Hafsi ordenaría su muerte.

Los elementos históricos que hemos descubierto en el diván de Ibn al-Abbār y que difieren de lo ya tratado en los libros de historia no son numerosos. No obstante, constatamos que contiene acontecimientos y detalles que los historiadores han descuidado. Por otra parte, hemos podido deducir otros elementos referentes al poeta que nos han permitido, por tanto, agregar nuevos datos y precisiones sobre su vida.

Pero lo más importante de esta obra es, sin duda, esa explicación peculiar de los acontecimientos acaecidos, sobre todo en Ifriqiyya, de la que carecen los libros de historia. El ámbito de la comparación sería amplio si existiera otra poesía opuesta a la de Ibn al-Abbār; es decir, una poesía que expresase, por ejemplo, el punto de vista de la dinastía almohade que contaba con muchos poetas en Marráquex⁽²⁾. Y he aquí al propio Ibn al-Abbār desengañado y arrepentido retractándose de lo que había escrito antes porque no correspondía a la realidad⁽³⁾:

Servía a los reyes desacertada y neciamente,

y a que los reyes no son más que esclavos.

Cometí un grave error al implorarles ;

debí implorar a los que adoro.

Es suficiente esta actitud del poeta para que estemos sobre aviso a fin de no confundir entre la pura verdad y la verdad alterada.

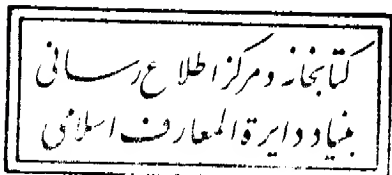
b) **La valeur documentaire de l'œuvre d'Ibn al-'Abbār.**

Le professeur 'Abdessalâm al Harras entreprit pour la première fois le rétablissement du Diwân d'Ibn al-'Abbār en se fondant sur l'unique texte (manuscrit) déposé à la Bibliothèque Royale du Maroc sous le n° 4602. Par cet excellent travail, le professeur vient de combler une lacune non négligeable dans l'histoire de la poésie Andalousie. En effet, l'auteur du Diwân est une personnalité célèbre du 7^e siècle (de l'hégire)/13 siècle (de J.C) sur les deux plans : politique et littéraire, aussi bien en Andalousie, qu'en Ifriqiyya.

D'une façon générale, le texte littéraire, pourrait être consulté sous deux angles :

(2) Cf. otro modelo de esta poesía en el segundo tomo de nuestra tesis (Disturbios y guerras en la poesía andalusí p. 204), cuando hacemos una comparación entre la poesía que expresa el punto de vista de Ma'mun el almohade y la opuesta; es decir, la de su adversario y rival para el califato, su sobrino Yahyâ al-M'utâsim.

(3) Divan Ibn al-'Abbâr p. 178.



grammar, eloquence, genealogy, etc... Tunis became then the center of scientists, doctors, engineers, technicians, teachers, men of letters and historians.

II

a) El valor documental del diván de Ibn Al-'Abbār

El profesor 'Abdeslām al-Harrās ha sido meritoriamente el primero en desempolvar y glosar el diván de Ibn al-'Abbār basándose en la única copia que se conserva en la Biblioteca Real de Marruecos bajo el número 4602. Con ello se ha llenado una laguna no despreciable en la historia de la poesía andalusí ya que Ibn al-'Abbār era en el siglo XIII de la era cristiana una de las personalidades notables en los campos político y literario tanto en al-Andalus como en Ifriqiyya.

De un modo general, se investiga un texto literario desde dos puntos de vista distintos: mientras que los especialistas en crítica literaria o en estilística procuran apreciar su valor artístico y estético, el objetivo de los que se dedican a la historia de la literatura o a estudiar el pensamiento del autor consiste en intentar captar su valor documental.

Después del estudio de varias obras de poesía andalusí⁽¹⁾, hemos terminado, nosotros también, por reconocer este valor documental de los textos literarios y, por lo tanto, hemos procurado deducir el que se desprende del diván de Ibn al-'Abbār. Cuáles son, pues, los acontecimientos históricos que se infieren de esta obra poética del siglo XIII (correspondiente al siglo VII de la era musulmana).

Los poemas de que consta este diván pueden agruparse por temas:

— En el primer grupo el poeta lloraba la pérdida de su patria, al-Andalus, la anoraba, expresaba su tristeza y dolor por esa desgracia e incitaba vehementemente a los hafsiés a que la reconquistasen.

— En el segundo, se interesaba por la política de la dinastía hafsi, alababa a sus príncipes, increpaba a sus enemigos, alentaba y enaltecía a sus aliados.

(1) Cf. entre otros estudios:

— El valor documental del diván de Ibn al-Ḥatib (in Revista de la Facultad de Letras de Tetuán — Año 2, n.º 22/1987, p. 291).

— El valor documental del diván de Abdelkarim al-Qaysi al-Andalusí (in Anales de la Universidad de Túnez n.º 27/1988, p. 119).

— El valor documental del diván de Yusef III (in Anales de la Universidad de Túnez n.º 28/1988, p. 185).

The sixth element deals with the attitudes of the Andalusian immigrants in general in Tunisia. They had an attitude of superiority over the local inhabitants. They were also conscious of their scientific and civilisational superiority, which caused them to live in closed small communities.

The seventh element was primarily political, and had the greatest impact on the decision of killing Ibn al-'Abbār. Some historians mention that what happened to Ibn al-'Abbār can be considered one part of the struggle between the Andalusians and Tunisians in high rank administrative positions. Upon that also lay the accusation against him that he expected « mishap and disaster to the Dynasty », and that he used to belittle al-Mustansir... who disfavoured him. Add to that Ibn al-'Abbār's preference for an Andalusian hegemony.

It is our opinion that the ingratitude of Ibn al-'Abbār towards his masters in Tunisia was based on political divergences. The only explanation for Ibn al-'Abbār's attitude is that he was motivated by political reasons. A reasonable explanation, if one considers that he was the only Andalusian on whom such a severe punishment fell. Ibn al-'Abbār was ambitious for power, rank and glory. Moreover, in one of his history books were found harmful remarks concerning the Khalifa al Mustansir and poems satirizing him.

We think that all those elements together caused Ibn al-'Abbār's loss and not just one single element of them. But among them all, the political element was the strongest.

The Andalusian immigration to Tunisia started since the beginning of the 13 cent. A.D. under the reign of Abū Zakariyya al-Hafsi, who encouraged them to live in Tunisia, and who allured them with favors so much the new Dynasty needed their knowledge in the various scientific, literary, administrative and artistic domains. A renaissance had started in Tunisia which distinguished that century from the other eras in that country, so much so that we can call it the Era of Tunisian Renaissance.

The endalusians kept influencing Tunisia during centuries afterwards. This influence became part of the Tunisian-traditions. Had that influence been limited to the courts of princes and notables, it would have vanished. Their knowledge there fore flourished so much so that Tunis, the capital, became the goal of those who aspired for sciences and arts.

The Andalusians renewed many aspects, and introduced new ways, systems and specialisations which had an immediate and strong impact over the cultural life and modernisation in Tunisia. Especially in educational subject matters, in building modern and great schools, libraries, book shoppes. They were the most important professors and authors in Tunisia during that period. They were famous for their distinguished scientific experiments and discoveries, in medicine, education, architecture, history,

of January 6, 1260 in Tunis, upon the order of al-Khalifa al-Mustansir bi Allah al-Hafsi (d. 1277).

The second aspect upon which I will concentrate is to bring to light the importance of the presence of Andalusian scholars in Tunisia, and their impact on the various sciences and specialisations there.

Concerning the first element of our study, I should notice that Ibn al-'Abbār reached Tunis in 1238. His misfortune was that his stay in Tunis coincided with the rule of its greatest Hafsi rulers, even of the founders of the dynasty itself. This fact makes the rulers very merciless towards any incident which may sap their rule.

I should notice first, in the tragedy of Ibn al-'Abbār, that the norms of racial strengths in the Islamic society had started to change after the superiority of the Arab race, the situation became different and the strong ruling families changed especially in the countries of North Africa.

The Hafsid princes were Berbers originating from the High Atlas mountains of Morocco. They had their own Berber ways which showed clearly in their strict rule in the interior or in their fierce confrontation with the outside powers endangering their interests and peace.

We can therefore easily imagine the fire of fury with which the Khalifa burned those un loyal to the ruler. Absolute fidelity to the Dynasty and personal self denial in order to secure its internal and external integrity were conditions not entirely part of Ibn al-'Abbar's character.

The second element was racial. Ibn al-'Abbār originated from an old Arab family deep rooted in its Kudhāī ancestry. He was very proud of his noble Arab origins and felt superior over those who were not Arabs, no matter what their positions were. So it was most probable that the relation of Ibn Al-'Abbār, the distinguished Arab, with his masters, the Berber-Bani Hafs, was a relation of ethnic competition in which the examination of intentions and of ethnic belongings was included.

The third element concerns the excellent training of Ibn al-'Abbār in administrative affairs, a struggle for high posts in Tunis started. As a result, the Khalifa feared Ibn al-'Abbār's betrayal and treachery.

The fourth element has to do with his feeling of superiority and with his stubborn positions and his pride in them. This made him an easy target for criticism and finally annihilation. He was finally accused of having expected « mishap and disaster to the Dynasty ».

The fifth element is that Ibn al-'Abbār was accused of tashayyu, or having Shiite leanings towards Ali Ibn Abi Talib and his family. Although it is quite difficult to believe such an accusation for several reasons, the context it was put in was one causing a death sentence. It is worthwhile mentioning, that the Tunisian Dynasty is considered among the strongest opponents of Shiisme, especially at that time in Tunisia, after the complete extermination of the Fatimids in Tunis at the hands of the Maliki Sunnis.

Sixième point compromettant : Ibn al-Abbar faisait partie de ces immigrants andalous qui, conscients de la supériorité de leur culture sur celle de la population d'origine locale, finissaient par se constituer en société à part et à vivre en petites communautés closes sur elles-mêmes.

Cette dernière constatation nous amène à une septième cause de la condamnation d'Ibn al-Abbar. Ainsi que le pensent quelques historiens, l'aventure d'Ibn al-Abbar n'est qu'un épisode de la lutte entre Andalous et Tunisiens dans les hautes sphères de l'administration. D'autant plus qu'Ibn al-Abbar ne se privait pas de critiquer al-Mustansir lorsque ce dernier manifestait à son égard quelque défaveur.

A notre avis, la prise de distance d'Ibn al-Abbar envers les maîtres de la Tunisie était surtout basée sur des divergences de vues politiques, et c'est là que gît l'explication ultime du sort qui, seul parmi les Andalous, le frappa finalement. Ibn al-Abbar était ambitieux ; il aspirait au pouvoir, aux hautes dignités, à la gloire. Ne découvrit-on pas dans un de ses livres d'histoire des réflexions — et jusqu'à des poèmes satiriques — qui ne pouvaient qu'offenser le Khalifa al-Mustansir ?

C'est l'ensemble de ces données qui, nous le pensons, expliquent la perte d'Ibn al-Abbar, mais un ensemble de données où domine tout de même, on le voit, la réalité politique.

L'immigration en Tunisie des Andalous commença au début du XIII^{ème} siècle sous le règne de Abou Zakariyya al-Hafsi qui les attira par la promesse d'avantages particuliers. Le nouvel Etat avait besoin de leurs services dans les domaines scientifique, littéraire, administratif et artistique. Ce fut le point de départ d'une renaissance qui valut à la Tunisie une de ses plus belles époques. Tunis, la capitale, devint un centre d'attraction pour quiconque aspirait à la science et aux arts.

Les Andalous furent les précieux agents d'un considérable renouveau civilisationnel et technique en Tunisie : rénovation des études, construction d'écoles, de bibliothèques, installation de librairies. C'était l'époque où professeurs et écrivains célèbres vivaient et produisaient en Tunisie, ainsi devenue centre de rayonnement culturel où se multipliaient expériences scientifiques, découvertes en médecine, où se fondaient les institutions les plus variées d'enseignement : architecture, histoire, grammaire, éloquence, science héraldique, etc. Tunis était à cette époque la *kāba*, le foyer d'un véritable univers culturel arabo-musulman.

c) **Ibn al-'Abbār and his epoch in Tunisia**

I have tried in this study to concentrate upon two aspects that have been on my mind for a long time. The first is the elements behind the death sentence and the killing of the scholar Ibn al-'Abbār (killed in the morning

dynastie. Les dirigeants politiques en Tunisie ne s'en montraient que plus intransigeants en face de tout ce qui était susceptible de porter atteinte à leur pouvoir.

Il convient de noter ensuite — et ceci n'est pas sans rapport avec la tragédie d'Ibn al-Abbar — qu'à cette époque l'équilibre ancien des forces raciales dans la société islamique avait commencé à se modifier. La race arabe avait désormais à compter avec de puissantes familles régnantes sur les pays d'Afrique du Nord et qui n'étaient point arabes.

Les princes hafsides étaient des berbères originaires du Haut-Atlas marocain. Ils avaient leurs propres coutumes qui se reflétaient dans les rigueurs de leur politique intérieure et dans la dureté de leur confrontation avec les forces étrangères qui pouvaient mettre en danger leurs intérêts et la paix intérieure de leurs Etats. Le khalifa réagissait violemment à toute tentative de résistance et n'hésitait pas à livrer au feu leurs auteurs. L'intégrité interne et externe de l'Etat exigeait, aux yeux des souverains, une fidélité absolue et une totale abnégation personnelle, toutes dispositions qui n'étaient pas spécialement inscrites au tempérament d'Ibn al-Abbar.

Rappelons, en second lieu, qu'Ibn al-Abbar était originaire d'une vieille famille arabe bien enracinée dans sa souche ancestrale. Il était très fier de ses nobles origines arabes et éprouvait à l'égard des non arabes, quelle que fût l'échelle de leur position sociale, un véritable sentiment de supériorité. Il est fort probable que son comportement d'arabe distingué envers ses maîtres Banī Hafs berbères n'ait pas été exempt de toute prétention ethnique pour laquelle il importait de faire valoir ses titres de noblesse.

Ibn al-Abbar — et nous touchons ici une troisième cause — avait de remarquables talents d'administrateur et manifesta la prétention d'accéder, coûte que coûte, aux plus hauts postes du pays. Le khalifa ne pouvait, bien sûr, qu'en prendre ombrage et même se méfier des fins, à ses yeux sans doute perfides, poursuivies par Ibn al-Abbar.

En quatrième lieu, au sentiment de supériorité dont était animé Ibn al-Abbar s'ajoutait la fière obstination avec laquelle il défendait ses propres vues, ce qui faisait de son personnage une cible exposée à la critique et à la vengeance qui tue. Ne l'a-t-on pas finalement accusé d'avoir prédit les malheurs et finalement la chute de l'Etat ?

Un cinquième motif de la condamnation d'Ibn al-Abbar fut l'accusation de « *taḥayyū* », c'est-à-dire de préférence pour « Ali et sa famille. Il y a, certes, plusieurs raisons de mettre en doute le bien fondé d'une telle accusation. Il reste qu'elle fut formulée de telle façon qu'elle ne pouvait qu'aboutir à une sentence de mort. Il ne faut pas oublier, en effet, qu'à cette époque, après l'extermination complète en Tunisie des Fatimides, les sunnites malékites, nouveaux maîtres du pays, étaient de farouches adversaires du shiisme.

En efecto, Ibn al-'Abbár se aferraba orgullosamente a sus ideas y opiniones y se exponía, por consiguiente, a las críticas y a la venganza y represalia. Además, se le acusaba de «tashyyu'»; es decir, de ser partidario de Ali y sus descendientes. No olvidemos que después del total exterminio de los fatimíes en Túnez, los nuevos jefes del país, sunnitas malikitas, eran enemigos mortales del chiísmo.

Por otra parte, Ibn al-'Abbár, administrador de talento, tenía empeño en desempeñar uno de los altos cargos políticos del país. Estaba dominado por la ambición de poder y gloria y era natural que el califa se sintiera celoso y ofendido y desconfiara de sus pretensiones «pérfidas».

Estos eran, creo, los motivos más importantes que contribuyeron a la desgracia y final trágico de Ibn al-'Abbár.

La inmigración de los andalusíes en Túnez empezó a principios del siglo XIII bajo el reinado de Abú Zakariyya al-Hafsi quien los atrajo prometiéndoles ciertas ventajas particulares. El nuevo Estado necesitaba de sus servicios en los campos científico, literario, administrativo y artístico. Fue el arranque de un renacimiento que proporcionó a Túnez una de sus épocas más resplandecientes y la capital se convirtió en un punto de atracción tanto para científicos como para artistas.

Los andalusíes emprendieron considerables renovaciones culturales y técnicas en Túnez: renovaron la enseñanza, construyeron escuelas y bibliotecas, instalaron librerías etc... El país se convirtió en un centro de esplendor cultural en el que se multiplicaban las experiencias científicas, se realizaban notables hallazgos médicos y en el que se dio un fuerte impulso a los estudios sobre todas las ramas del saber: arquitectura, historia, gramática, oratoria, ciencia heráldica etc... Le capital era, en aquel entonces, un foco de un verdadero universo cultural arabo-musulmán.

b) Ibn Al-Abbar et son époque en Tunisie

J'ai essayé dans cette étude de synthétiser mes recherches autour de deux axes majeurs : les motifs de la condamnation à mort de Ibn al-Abbar, et l'impact de la présence andalouse en Tunisie.

Comment'en est-on arrivé à la sentence de mort portée contre l'érudit Ibn al-Abbar et à son exécution au matin du 6 janvier 1260, à Tunis, sur les ordres de al-Khalifa al-Mustansir bi-Allah al-Hafsi (m. 1277) ?

Rappelons d'abord qu'Ibn al-Abbar arriva en Tunisie en 1238. La malchance voulut que son séjour y ait coïncidé avec le règne du plus puissant des Hafsides, plus puissant même que ne le furent les fondateurs de la

Les Résumés

I

a) Ibn al-'Abbár y su época en Túnez

En el presente estudio he procurado sintetizar mis investigaciones y centrarlas en dos puntos principales: los motivos de la condena a muerte de Ibn al-'Abbár y los efectos de la presencia andalusí en Túnez.

El califa al-Mustansir bi Alá al-Ḥafṣí (muerto en 1277) sentenció a muerte al erudito Ibn al-'Abbár y lo ejecutó en la mañana del 6 de enero de 1260 en Túnez. Influyeron en esta decisión, entre otros, los siguientes motivos:

Recordemos, primero, que la llegada de Ibn al-'Abbár a Túnez en el año 1238 coincidió desafortunadamente con el reino más poderoso y riguroso de la dinastía ḥafṣí y que el antiguo equilibrio de las fuerzas raciales en la sociedad islámica empezó, por aquel entonces, a modificarse:

En efecto, los intransigentes dirigentes ḥafṣíes se distinguían en aquella época por el rigor de su política interna y por la dureza de su lucha contra las fuerzas extranjeras que intentaran poner en peligro sus intereses. Para preservar la paz y la integridad del Estado, el califa no vacilaba en eliminar y ejecutar a todos los rebeldes y disidentes y exigía de los ciudadanos una fidelidad y una abnegación absolutas, y ello era inconciliable con el carácter de Ibn al-'Abbár.

Por otra parte, los emíres ḥafṣíes y las poderosas familias que reinaban en el norte de África no eran árabes sino bereberes originarios de Alto Atlas marroquí. Ibn al-'Abbár, en cambio, descendía de una vieja familia castizamente árabe y, por tanto, se vanagloriaba siempre de su noble origen profesando un verdadero sentimiento de superioridad con relación a los no árabes cualquiera que fuese su posición social.

Era asimismo uno de aquellos inmigrantes andalusíes que, concientes de la superioridad de su cultura respecto a la de los nativos, se reclusen en comunidades aisladas constituyendo una sociedad aparte.

Además del rigor de los dirigentes ḥafṣíes y del sentimiento de superioridad que Ibn al-'Abbár profesaba hacia ellos, la divergencia de tendencias y opiniones entre éste y aquéllos y, sobre todo, las pretensiones políticas de éste eran otros motivos importantes que influyeron en esta decisión:

moriscos » y « La problemática morisca a través de los escritos occidentales y árabo-musulmanes. »

Vemos un gran parecido entre estos encuentros modernos y aquellos que, entano, ocurrían entre los hombres más versados en las distintas ramas del saber. En efecto, estos hombres de sapiencia se aviaban de lo necesario y emprendían largos y penosos viajes, yendo en ciudad y de país en país, en busca de otros ilustres sabios, maestros o alfaquies para recibir nuevos conocimientos, intercambiar luminosas enseñanzas y ampliar horizontes. Así, el mismo sabio que en su tierra veíamos rodeado de discípulos, contestando a sus preguntas y dudas y juzgando sus aptitudes, lo veíamos en otros lugares convertido en un alumno que intentaba, a su vez, satisfacer su sed y anhelo de saber recibiendo enseñanzas sobre materias y cuestiones determinadas y, al final del cursillo, procurando demostrar su suficiencia ante sus nuevos maestros. Estos modestos sabios de antano, con sus alumnos eran tan generosos cual una fuente inagotable y, con sus maestros, tan ávidos de saber cual una sed inextinguible.

Algo semejante ocurre con los distinguidos talentos contemporáneos. El investigador moderno que sube al estrado y diserta sobre cierta materia embargando la atención de los presentes y demás participantes en el encuentro, cual un alumno, vuelve a su asiento a prestar oídos y enriquecer sus conocimientos con la disertación investigativa de otro maestro que hace un momento aprendía de él.

Como acabamos de ver, estos encuentros modernos tienen raíces muy antiguas y no creemos, por tanto, que los medios de comunicación actuales, tan desarrollados y tan rápidos, que van acostumbrando a la gente a desarrollar una actividad pasiva de exclusiva recepción matando así sus facultades intelectuales, puedan desbancar a esta lucrativa y secular tradición que tiene un encanto especial y cuyo fruto es, ante todo, el progreso de la investigación científica.

El Director de la revista
CHEIKHA Djomaâ

Presentación

Pese al difícil mercado de la prensa especializada y a los obstáculos, previstos e imprevistos, que hemos encontrado, he aquí la revista **DIRĀSĀT ANDALUSIYYA** que cumple su promesa y reaparece sin ningún retraso. En efecto, nos mantendremos siempre fieles a nuestro propósito y dichos obstáculos, lejos de frenarnos, nos alientan a proseguir nuestra tarea que consiste en velar por un inmarcesible patrimonio humano cuyo néctar seguimos libando.

Entre diciembre de 1988 y junio de 1989, fechas de la aparición del primer y segundo número de nuestra revista, se han celebrado tres encuentros que dejan sobrada constancia del interés y la atención creciente que se está prestando a los estudios andalusíes :

— En Túnez y a lo largo de una semana (del 3 al 10 de febrero de 1989), universitarios españoles y tunecinos participaron en un fecundo encuentro, organizado por el Centro de Estudios y de Investigaciones Económicas y Sociales de Túnez, sobre « El patrimonio andalusí y su influencia, tanto en el pasado como en la actualidad, en la cultura árabe y española. »

— Por otro lado, la Universidad de Alicante, con el patrocinio de la Consejería de Cultura, Educación y Ciencia de Valencia y la colaboración del Ayuntamiento de Onda, organizó en esta maravillosa ciudad andalusí, del 20 al 22 de febrero de 1989, un encuentro sobre la figura del gran poeta e historiador valenciano Ibn al-'Abbār⁽¹⁾.

— Por último, el Centro de Estudios y de Investigaciones otomanas, moriscas, de documentación y de información (CEROMDI) celebró en Túnez, del 15 al 19 de marzo de 1989, el IV Simposium Internacional de Estudios Moriscos que versó sobre « El Pensamiento religioso de los

(1) La revista «**SARQ AL-ANDALUS**» se comprometió a publicar las ponencias pronunciadas en español o francés mientras que «**DIRĀSĀT ANDALUSIYYA**» prometió dedicar un número especial a Ibn al-'Abbār e incluir en él las ponencias pronunciadas en árabe.

Revue d'Etudes Andalouses

Revue scientifique spécialisée dans les études concernant
l'Espagne Musulmane

Fondateur et Directeur
Djomaâ CHEIKHA

Comité Consultatif : Abdeslam Mseddi, Mohamed Yalaoui,
(Tunisie) - Abdelkader Zamama (Maroc) - Mikel De Epalza
(Espagne)

2 numéros par an qui paraîtront en Janvier et en Juin

Prix du numéro :

- En Tunisie : 3,000 DT
- Pays arabes : 4,000 DT
- Autres pays : 5,000 DT

Pour toutes correspondance et abonnements écrire à l'adresse suivante :
Cheikha Djomaâ B.P. N° 51. 1008 Tunis Bab Manara - Tunisie.
Tél : 227-616

Le Montant de l'abonnement peut-être réglé soit directement au C.C.P
543-94, soit par chèque bancaire.

Les opinions émises dans les articles publiés n'engagent que leurs auteurs.
Les manuscrits, publiés ou non, ne seront pas rendus à leurs auteurs.

Revue

D'ETUDES ANDALOUSES

«DIRASAT مركز تقيت كورسور سدي ANDALUSIYYA»

JUIN 1989 N° 2 (Spécial) : Ibn al-Abbar Dhou El Kaâda 1409
